المناهل



32

المناهل

تصدرها
وزارة الشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثاني والثلاثون
السنة الثانية عشرة

جمادى الثانية 1405
مارس 1985



تهنئة المناهل
بعيد العرش المجيد

يشرف أسرة "المناهل" ويسعدها أن ترفع بمناسبة عيد العرش المجيد، أسمى آيات التهاني والتبريك إلى ملك البلاد وراعي العلم والفكر والفن والثقافة، وقائد مسيرات الوطن، حضرة صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني حفظه الله.

و"المناهل" إذ ترفع عواطفها الجياشة الزاخرة بالمحبة إلى الجناب الشريف أعزه الله، مقرونة بوفائها وإخلاصها، تضرع إلى الله العلي القدير، أن يسعد العاهل العظيم، بهذا العيد الميمون، ويعيده مرات ومرات على أسرته وشعبه بما يرتجيه ويبتغيه، كما تضرع إلى الله أن يقر عينه الكريمة بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه صاحب السمو الملكي الأمير المحبوب مولاي رشيد، وبأخواتهما الأميرات الجليلات، وتسأل الله سبحانه أن يمتعه بدوام العافية والسعادة ويحقق ما يطمح إليه شعبه من تقدم ورفاهية.

"المناهل"

فهرس

الألفاظ والأساليب المستحدثة

عبد الله كنون

تحيي الأمم بلغاتها كما تحيي اللغات بأممها، فإذا رأيت أمة خاملة الذكر ضعيفة الحول، فإنك لا بد أن تجد لغتها قاصرة متخلفة، تعكس الأوضاع القائمة فيها من مجتمع بدائي وحياة ساذجة وجيل من الناس محدود النشاط والتفكير وبالعكس إذا كانت الأمة حية متطلعة إلى آفاق النمو والتطور، كانت لغتها مستجيبة لحيويتها متفاعلة مع عوامل التغيير الذي تتعرض له، فلا تلبث أن تصير من اللغات ذات الشأن، اسوة بالذين يتكلمون بها.

ولكم رأينا من أمة لم تكن شيئاً مذكوراً هي ولغتها، فما إن مسّها تيار التطور والتغيير، حتى برزت للوجود تأخذ وتعطي وتتبادل أسباب التقدم والرقي مع غيرها من الأمم النامية، بوسيلة اللغة التي دبت فيها نسمة الحياة من أبنائها الناهضين. إنما الغريب أن تموت اللغة بموت أهلها بعد الازدهار والانتشار حتى يصبح فكُّ رموزها من الفتوحات العلمية كما وقع

في لغة قدماء المصريين أعني الهيروغليفية، مما يؤكد أن الصلة بين حياة الأمة واللغة، شيء واقع لامرية فيه.

ويستثنى من ذلك بعض اللغات التي تعد أُمّاً لغيرها من اللغات المتفرعة عنها، فهي وإن ماتت بموت المتكلمين بها، بقيت محفوظة في فروعها المنتشرة بين أمم حية، لا تفتأ تستمد منها وتوسع لغاتها بالرجوع إليها اقتباسا وتوليدا واشتقاقا وتنظيرا، وكان هذا من حظ اللغتين اليونانية واللاتينية اللتين تعتمدها أكثر اللغات الأوروبية المستعملة اليوم لاسيما المنبثقة أصلا من اللاتينية.

والاستثناء الأعظم من هذا هو اللغة العربية، لغة الوحي والتنزيل، التي استهدفت لكثير من عوامل الركود والتخلف، بعدما كانت عليه من النمو والازدهار حتى طبقت أرجاء العالم، وأصبحت لغة العلم والحضارة في بلاد الشرق والغرب، طوال العصور الوسطى واستوعبت ثقافة الهند والفرس وسائر الشعوب القديمة لكنها بعد ذهاب دولتها بسيطرة الأعاجم على العرب وغزو الفرنجة لأرضهم ثم استيلاء الغرب على مقدراتهم المادية والأدبية، واضمحلال حضارتهم حتى أصبحوا عالة على الأجنبي في كل شيء، في هذه الحالة، لم يكن هناك مناص من دخول العربية في عداد اللغات الميتة لولا القرآن العظيم الذي حفظها وحفظ العرب أنفسهم من المصير الذي لقيه غيرهم من الأمم البائدة.

فهنا كانت اللغة هي صمام الأمن وضامن الوجود لأمة الرسالة الخالدة التي يقول كتابها : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾، ومن اللطائف في هذا الصدد ما روي عن القاضي إسماعيل أنه قيل له لم جاز

التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن فقال لأن الله تعالى قال في أهل التوراة : ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله**﴾ فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ فتكفل هو بحفظه، فلم يجز التبديل على أهله، ذكره عياض في المدارك، وهكذا بقيت العربية وبقي العرب فصح ما قلنا به أول هذا الحديث ان الأُمم تحي بلغاتها كما تحي اللغات بأمها.

ولا أُشير إلى فشل المحاولات التي أريد بها الإيقاع با لغة العربية وإلحاقها باللغات الميتة، كإحلال العاميات الناشئة في مختلف البلاد العربية محل الفصحى، وجعلها كاللغات المنبثقة من اللغة اللاتينية للقضاء عليها وتمزيق شمل الأُمة العربية، وكاقتراح كتابتها بالحرف الافرنجي كما حصل في اللغة التركية وغيرها من اللغات التي كانت إلى أوائل هذا القرن تكتب بالخط العربي، لفصلها عن ماضيها المجيد وتراثها العتيد، وغير ذلك مما يوحي به خصومها وخصوم حضارتها، ويتلقفه مع الأسف بعض العَقَقَة من أبنائها عن علم مدخول أو جهل مستحكم، ويرجون له من حين لآخر بين الطلبة والشباب لعله يجد منهم قبولا ورضى، فهذا نوع من الحروب التي تشن على أُمتنا العربية في شتىالميادين وكل الأوقات، فتشحذ عزيمتها وتقوى همتها للمزيد من النضال، وإحراز الخَصْل في كل مجال.

غير أن ما لابد من ذكره والتنويه به، هو هذه الجهود المتظافرة، والأعمال المتواترة من أبناء العربية الأبرار، كتابا وشعراء، وأساتذة وصحفيين ومجمعيين، وفي طليعتهم أعضاء مجمعنا القاهري الموقر، لبحث لغتنا الضادية وإحلالها محل الصدارة بين اللغات العالمية الكبرى، كما كانت وستبقى كذلك

بإذن الله مع تفوقها عليها بما تختص به من الريادة في عالم المعرفة الإنسانية والقوامة الروحية على التراث الإنساني لا ينافسها في ذلك أي لغة في العالم.

ويتمثل البعث اللغوي الذي تحرص عليه الجهات والفآت من الناس الذين ألمعنا إليهم في أمرين اثنين :

أولهما : الحفاظ على سلامة اللغة من الشوائب التي تكسف نصاعتها كالألفاظ العامية والتراكيب المنافية للفصاحة بمخالفتها لقواعد النحو والتصريف، والاقتباس من اللغات الأجنبية بغير مراعاة لصرف التعريب والترجمة الصحيحة.

وثانيهما : سد فراغاتها المعجمية والتعبيرية بما يغنيها ويثريها من الألفاظ والأساليب التي هي في حاجة إليها كالمصطلحات العلمية والتقنية والمفردات والأسماء، التي تعين الأدوات والأجهزة الحضارية الحديثة فإن هذه الأشياء في تزايد مستمر ولابد لمسايرة ركب التقدم من إيجاد الوسائل التي تبلغنا إليه، وأولها الرصيد اللغوي الذي نودعه إياه.

واللغات لا تنمو وتتسع بغير الأخذ والعطاء وقد أعطينا كثيرا من لغتنا للغات الأخرى، ففي الإسبانية ما يزيد على 15 ٪ من المفردات العربية في مختلف مجالات الحياة من اجتماع واقتصاد وعلوم طبية وفلكية وزراعية وغيرها، وأما في الأدب والشعر والقصص والأمثال فإن عطاءنا في ذلك كان هو أساس الإبداع والخلق عند الإسبان ومن تأثر بهم في هذه الفنون، وما تزال أسماء بعض النجوم وبعض الآلات الهندسية وبعض المناطق الجغرافية بل بعض العلوم بذاتها في اللغات الأوروبية الكبرى كعلم الجبر، باللغة العربية، فإذا عدنا لأخذ ما نحن في حاجة إليه من ألفاظ

وأساليب عن اللغات الأُخرى فهي قد سبقت إلى الأخذ عنا، وكذلك سبق أسلافنا فأخذوا عن اللغات القديمة ما يعبر عنه بالمعرب من الألفاظ وصقلوه فصار من صميم العربية ودخل حتى في لغة القرآن الكريم، وما نقص ذلك من قدر اللغة العربية ولا أثر في أصالتها، لأن كيانها محفوظ بقواعد النحوية والصرفية والبلاغية، ولا تدخل كلمة إلى معجمها حتى تصهر في بوثقة هذه القواعد وتصوغها على قالبها وقياسها المعروف والمقبول.

ومن هنا يظهر أن الألفاظ والأساليب المستحدثة ليست كلمات وجملا تقمش من هنا وهناك، ويوتي بها على غير هدى، لتضخيم المعجم العربي وجعل حجمه أكبر مما هو، فإن الأمر أعظم من ذلك، إن الكم والكيف فيه مقترنان، والحداثة والعراقة ملازمان، وما نستحدثه منه غالبا ما يكون له جدع أصيل في اللغة العربية وطرق تعبيرها نعتمد فيه الاشتقاق والتوليد والنحت والتركيب والمجاز والاستعارة والكناية وغير ذلك مما يؤدي المعنى المراد، ويكون وضعا جديدا يضاهي عمل الواضع الأول، وعمل الواضع كما نعلم هو جعل اللفظ دليلا على المعنى، ومن ثم يكون المستحدث على هذه الطريقة عربيا خالصا لاغبار عليه، اما ان كان مما يقتبس من لغة أُخرى فلا بد من خضوعه لعملية التعريب التي أشرنا إليها آنفاً، وهي عملية معروفة ومتبعة في سائر اللغات، وكلنا نعرف ما عمله الأجانب في إسم نبينا محمد ﷺ يميزوه عن غيره من الأسماء الموافقة له، فالمقتبس على هذا النحو هو أيضا من صحاح العربية الذي يثبت قاعدة تعامل اللغات بعضها مع بعض وقد أسرف بعض اللغويين المتشددين فانكر المعرَّب من الأساس وزعم أنه عربي أصيل.

وعلى كل فقد أضاف القرآن إلى متن اللغة معجما كاملا، لا سيا في المعاني الشرعية والقانونية، ولم يزد على أن خصص العام وقيد المطلق وبين المجمل، فأوجد لكلمات الصلاة والزكاة والوضوء والغسل والذكاة، والأضحية والجهاد والرباط والقراض والسَّلَم والإجارة والجعل وغيرها من مآت الألفاظ معاني ودلالات لم تكن لها من قبل، وهي هي نفس الألفاظ العربية التي كانت موجودة بالفعل وبالقوة ولا علاقة لها بما أصبحت تفيده من بعد، تماما كما فعلنا نحن في كلمة الجريدة والسيارة والباخرة والهاتف والثلاجة والكلّية والجامعة والدستور والقانون والإذاعة والأعلام والإدارة إلى ما لا يحضى من الألفاظ المستحدثة ذات الدلالة الجديدة وإن كانت قديمة.

أما إذا نظرنا في الأساليب القرآنية التي صاغ بها الكتاب العزيز دعوة الإسلام وخاطب العرب بما أهلهم له من إبلاغ رسالته إلى البشرية جمعاء فإننا نجد أمرا عجبا لم تكن هناك كلمة للتعبير عنه قبل وبعد أنسب من الإعجاز، فإنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالخطابة ولا بالسجع ولا غير ذلك مما تعرفه العرب في فنون القول، فكان أن ألقوا باليد وأقروا بالعجز وهم أساطين البلاغة وفرسان البيان حتى كان منهم من سجد لسماع بعض آيات منه، وتسمية جمله وفقره بالآيات هي نفسها من باب الإكبار والانبهار بأسلوبه الرائع، والموضوع بحاله كما يقول علماؤنا في هذا المقام، فإن الكلمات والمفردات هي هي، ما عرفوا وعلموا، ولكن الصياغة شيء آخر، غير ما عهدوا واعتادوا، فلقد روي عن الأصمعي أنه قال سمعت بنتا عربية خماسية أو سداسية تنشد :

استغفر الله لذنبي كلِّه   قتلت إنساناً بغير حِلِّه
مثل غزال ناعم في دَلِّه   وانتصف الليلُ ولم أصلّه

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك، فقالت ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى : ﴿**وأوحينا إلى أُم موسى ان ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين.

وهذا بعد انتشار الإسلام والعلم والمعرفة وتفتح الأذهان وارتفاع المستوى الثقافي لدى عامة العرب بما يفوق عدة درجات ما كان عليه الخاصة منهم، وحكي عن بعض البلغاء أنه كان يتشدق بمعارضة القرآن حتى إذا قرأ قوله تعالى في قصة الطوفان من سورة هود : ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي**﴾، سقط في يده وعلم أن ما يحاوله إنما هو عبث وليد، وعبارة سقط في يده نفسها هي مما أتى به القرآن ولم تكن العرب تعرفه، وذلك في قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿**ولمَّا سقط في أيديهم**﴾ وقد عدها علماء البلاغة من روائع كلم القرآن..

وهذا الذي قلناه في أُسلوب القرآن، وقاله العلماء قبلنا، قد عبر عنه رئيس مجمعنا السابق الدكتور طه حسين رحمة الله عليه، بكلام بين واضح مركز يطيب لنا أن نسوقه هنا وهو قوله : «ان القرآن ليس نثرا وليس شعرا ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الإسم، ليس شعرا وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا لأنه مقيد بقيود مخصوصة لا توجد في غيره، وهذه القيود بعضها يتصل بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة. كان وحيدا في بابه، لم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله وتحدى الناس أن يحاكوه، وأنذرهم أن يجدوا إلى ذلك سبيلا».

ورفـد الحـديث النبوي اللغـة العربيـة بمثل مـا رفـدهـا بـه القرآن أو بقريب منه، لفظـا وأُسلوبـا ولا غرو فهو ﷺ، أفصح العرب، واوتي جوامع الكلم ولم يفتأ علماء البلاغة، يضعون كلامه في المرتبـة الثـانيـة بعـد القرآن، وقـد تكلم بكلمـات لم يسبـق للعرب أن نطقت بهـا كتعبيره عن النسـاء بالقوارير في قوله : لأَنْجَشة الحـادي[1] «يـا أَنجَشَـةُ رفقـاً بـالقوارير» وكانت هذه الكلمة أبلغ ما سمع في وصف النساء وطبيعتهن الرقيقة وسرعة تأثرهن، وهي تشبه ما يقال الآن في النساء من وصفهن بالجنس اللطيف، ومن بليغ كلامه قوله في غزوة حنين «الآن حمي الوطيس» قال في النهايـة : الوطيس التنُّور، وهو كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرْب، ويقال أن هذه الكلمة أول من قالها النبي ﷺ، لما اشتـد البـأس يومئـذ، ولم تسمع قبلـه، وهي من أحسن الاستعـارات ونستطيـع أن نقـول بـاطمئنـان أن الروح التي نفخهـا القرآن والحديث في اللغة العربية جعلتها أعظم اللغات الساميـة أو أُمهـا كما يقول غير واحد من العلماء، وضمنت لهـا البقـاء على الـدوام، وصـارت بعـد ذلـك لا تزداد إلا غنى وثراء لاسيا وقـد سـار الصحـابـة على نهج الرسول في إعلاء شـأن العربيـة والتمكين لهـا في أقطـار الأَرض بحيث أصبحت اللغـات الكبرى في ذلك العهـد تبعـا لهـا ووضع علي بن أبي طـالب رضي اللـه عنـه قواعد لضبطها وحفظها من التغيير هي ما سمي بعلم النحو، وهكـذا توبعت المسيرة في العصـور الـوسطى حين نقلت العلـوم، والفنـون وترجمت كتب

1) أنجشة اسم حبشي كان ذا صوت حسن، وكان يحدو أي يغني للإبل فشرع السير السريع تـأثرا بالحداء، وكان هذا في سفر فخشى النبي ﷺ، على النسـاء اللائي كن معـه أن يجهـدون السير السريع فقال له هذه الكلمة.

الأوائل في عهـد الأمـويين والعبـاسيين فـأحضنتهـا العربيـة ولم تضـق بشيء منها، بل زادت عليها واتسعت بما لم تتسع به لغة قبلها، إذ صارت مستودعا للمعارف البشرية تقتبس منها الأمم والشعوب وتحتذى حذوها في التجـديـد والإبداع.

ولما أصابها ما أصابها من الفتور بسبب فتورنا نحن في الحقب المتأخرة اعتبارا بقاعدة (اللغات بـأممهـا)، لم تفتـأ أن انبعثت من جـديـد بـانبعـاثنـا وتأثرنا لخطى سلفنا في تنميتها وحقنها بـدم جـديـد، من العمل الـذي تقوم به النخبة في هـذا المجمع والمجـامع العربيـة الأخرى، وسبق أن قـام بـه جيل النهضة قبل تأسيس هذه المجـامع، وهو مـا يستحـدث من ألفـاظ وأسـاليب بـالطرق المتبعـة في ذلـك من أول يوم أحس العرب فيـه بحـاجـة لغتهم إلى التطور والتنمية ونتج عن ذلـك أن صـارت العربيـة أداة طيعـة للتعبير عن كل ما يختلج في النفس من أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس، وتصوير كل مـا تقع عليه العين من مختلف المرئيـات ومتنوع المشـاهـد، وأصبحت تتوفر على عشرات الآلاف من المصطلحـات العلميـة والفنيـة والحضـاريـة التي وضعت حـديثـا ولم يكن لهـا وجود قبل زمن قليل، ونبـغ فيهـا الكتـاب والشعراء، الذين يضاهون كبار كتـابنـا وشعرائنـا في العصر العبـاسي الأول ثم هي مـا تزال تطوي المراحل وتبغي فوق ذلك مظهرا.

وإذا كان هناك ما يلاحظ على عملنا اللغوي. فهو بطؤه الـذي يجعل المسيرة تتعثر أحيانا من عـدم إيمـان البعض بطـاقـة العربيـة وقـدرتهـا على، استيعاب المستجـدات من العلوم والفنون والتقنيـات، ومن ثم يعـارض هـذا البعض في تدريس المواد العلمية بالعربيـة ويتحمل مسؤوليـة تـأخر الركب العربي عن قافلة التقدم التي لا تنتظر أحدا، وأحيانا من تعارض الاتجـاهين

المحافظ والمجدد، فحينما يتزمت الأول حتى يمنع مالا يجوز أن يمنع يندفع الثاني فيقع في محظورات لا تقبل بحال، وتحتد المعركة ولا يسفر العمل عن نتيجة إلى أن يأتي التمحيص وربما لا يأتي.

ومثالا على ذلك نذكر لفظ (الفنّان) الذي أطلقه العرب الأولون على حمار الوحش لتفننه في العدو، وكان بعض المعاصرين استعمله في وصف رجل الفن، فلم يرتضه الملتزمون بالنصّ اللغوي، وكان كتاب مثل مصطفى الرافعي يضطرون إلى استعماله فيضعونه بين قوسين للتعبير عن تحفظهم بإزائه، مع أن له أكثر من وجه لتخريجه عربيا، وقد أشرنا إلى ذلك في بحثنا الذي ألقيناه في هذا المجمع منذ سنوات بعنوان السليقة عند العرب المحدثين.

ومثله الجدال الذي يثور من حين لآخر في جمع معجم على معاجم ومشهور على مشاهير، زعما بأن قياس الأول معجمات والثاني مشهورين، وليس هذان بأقيس من معاجم ومشاهير ومن التطاول أن يغير مصحح الطبع إسم كتابي مشاهير رجال المغرب في مقدمته إلى مشهوري رجال المغرب. وحمدت الله على أنه لم يستطع أن يغيره في عنوان الكتاب الخارجي المرسوم بمعرفة خطّاط، ويلجأ المجيزون للجمع المذكور إلى تتبع الكلمات التي جاءت على وزنه للاحتجاج بها، مع أن من المقرر نحويا أن مفاعل هو من باب فعالل الذي قال فيه ابن مالك :

وبفعالل وشبهه انطقا في جمع ما فوق الثلاثة ارتقى
من غير ما مضى . . . .

وقد ذكروا أن شبه فعالل مفاعل وفياعل وفعاول وغيرها مما هو مثله عددا أو هيئة، وأن خالفه زنة، كفاعيل وفعاعيل ونحوها، فهذه كلها جموع لما زاد على الثلاثة من الرباعي فما فوقه، أصليا أو ميزدا، باستثناء باب كبرى وسكرى وأحمر ورام وكاهل ونحوها، وهو ما أشار له ابن مالك بقوله : (من غير ما مضى) فإن له جموعا أخرى ذكرها، ويدخل فيما يعنينا هنا أعني مفاعل معجم ومصحف، مما أوله مضموم ومسجد وموطن مما أوله مفتوح ومعول ومضرب مما أوله مكسور، فيقال قياسا معاجم ومصاحف ومساجد ومواطن ومعاول ومضارب، ويقال في مشهور ومرسوم ومفهوم مشاهير ومراسيم ومفاهيم قياسا أيضا.

والأمثلة على اجتهاد بعض اللغويين في حال وجود النص كثيرة، ويكون الخطب سهلا إذا وافق الاجتهاد النص، ولكن المشكلة هي أن يخالفه، وأن يتعصب له صاحبه فتصير عويصة، وكل ذلك مما يعوق مسيرة العمل اللغوي ويبطئ به إلى حد بعيد.

وأما قبل وبعد فإن حرصنا على أن تسير حملة التنمية اللغوية في الطريق السوي ولا تخالف عنه يمينا أو يسارا، ليس فقط لتجنب المعوقات وسرعة الوصول إلى الغرض المنشود، بل ولربط الحاضر بالماضي، والمحافظة على هذه الميزة التي تجعل اللغة العربية حية في اذهاننا كما كانت في اذهان أبائنا وأجدادنا، فلا نبتعد عن مظلة القرآن الذي هو الحارس الحقيقي لها ولنا.

طنجة عبد الله كَنون

شعر الملحون في الأدب المغربي ومواضيعه
لماذا يسمى بالملحون؟

محمد الفاسي

الملحون هو الشعر باللغة العامية وقد برز فيه المغاربة وأبدعوا قصائد رائعة في كل فنون الشعر.

وأول ما يتبادر للذهن أنه شعر بلغة لا إعراب فيها، فكأنه كلام فيه لحن. وهذا الاشتقاق باطل من وجوه، لأننا لا نقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون، وإنما باللهجات العامية، ولم يرد هذا التعبير عند أحد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب. ولا يعقل أن يسمي أحد شعره بكلمة تنم عن الجهل.

والذي أراه أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى أن الأصل في هذا الشعر الملحون أن ينظم ليتغنى به قبل كل شيء. ونجد ما يؤيد هذا النظر في قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل الخمسين «في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد» بعد أن تكلم على الشعر باللغة العامية فقال :

«وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على الصناعة الموسيقية[1]». ومعنى هذا أنهم لا يدخلون أشعارهم في موازين الموسيقى المعروفة، من بسيط وبطائحي ونحوهما، وإنما يجعلون لها ألحانا خاصة وقد وقفت أخيرا على نص لأحد العلماء الإيرانيين من أهل القرن الثاني عشر الهجري يقول فيه عن الرباعي في الأدب الفارسي : «إن الرباعي الذي يغنى به الملحون يسمى ترانه بالفارسية»[2].

ومن أسماء هذا الشعر عندهم «الموهوب» وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على أنهم يعتبرون الشعر كهبة من الله، وليس هو مجرد نظم وإنما هو إيحاء وإلهام، وكأنه يجري على لسان الشاعر عضوا، لذلك يسمونه أيضا «السجية»، ويميزون بين الأشياخ الذين يقولون الشعر والذين يحفظونه ويغنونه بقولهم «شيخ الشجية» للشاعر و«شيخ القريحة» للمغني.

ويطلقون عليه كذلك لفظة «الكلام» كأن الشعر هو الكلام الحقيقي الذي يستحق أن يحمل هذا الاسم، وغيره كأنه لغو، وكل هذه العبارات تدل على تقدير الشعب لهذا الشعر ونظره إليه بعين الإكبار والإجلال.

وفي الحقيقة، دراستنا للملحون من بين الانتاجات الأدبية الشعبية، فيه تجوز، إذ أخص مميزات الأدب الشعبي أنه لا يعرف قائله، وهذا هو الشأن في الحكايات وفي الأمثال وفي العروبيات التي تغنيها النساء، وفي نحو هذه الأنواع الأدبية الشعبية حقا، أما الملحون فلا يربطه بالناحية الشعبية إلا كون قائليه في الغالب من عامة الشعب، وليسوا كذلك في الغالب من

---

1) ص 582.

2) دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية تحت كلمة « Rubai ».

المثقفين، بل كانوا أميين، وأما من حيث اللغة العامية فإنها ليست لغة طبقة شعبية منحطة بل هي لغة أرقى من اللغة التي يتكلم بها حتى المتعلمون، لأن شعراء الملحون يدخلون في كلامهم كثيرا من الكلمات الفصيحة بعد إجرائها على الأسلوب العامي، ثم إن من بين شعراء الملحون من لو ترجم إنتاجهم للغة حية لعدوا من أكابر شعراء الدنيا، فينطبق عليهم من هذه الناحية قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل المشار إليه آنفا.

«إعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية... إلى أن يقول : «ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان، لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر، فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر... فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغةسلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض... ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء». ثم قال في تقدير هذا الشعر بعد أن ذكر أن الكثير من المنتحلين للعلوم يستنكرون لهذه الفنون : «وهذا إنما أتي من فقدان الملكة في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره...»[3].

وهذه الملاحظة العميقة للفيلسوف العظيم ابن خلدون، لا زلنا نشاهد آثارها إلى يومنا حيث إن الكثير لا يقدرون الشعر الملحون، لا لشيء إلا

3) ابن خلدون، المقدمة، ط. بيروت 1961 ص 1124 ـ 1125.

لعدم معرفتهم لطرقه وأساليبه بل للغتـه. بمعنى أنهم لم تحصل لهم الملكـة التي يشير إليها ابن خلدون. وكل من حصلت لـه يتـذوقه ويعجب بـه ويقبل عليه.

هذا وإن نظم الشعر باللغة العربيـة العـاميـة وجـد في كل عصر وكل قطر، إلا أن أهل الأندلس والمغرب فاقوا غيرهم في هذه الناحية، وذلـك أنهم بعـد أن اهتـدوا إلى التحرر من أوزان العروض القـديمـة الضيقـة، واخترعوا الموشح[4] الذي له بحور خاصة، أخـذوا ينظمون بعـد ذلـك في أوزان تشبـه الموشح، ولكن بلغتهم العامية، وهو ما يسمى بالزجل. وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا للكلام على هـذه الأزجـال عنـد أعراب المغرب وعنـد أهل حـواضر الأنـدلس والمغرب، وأتى بـأمثلـة من ذلـك يظهر منهـا أن شعر الأعراب، وإن كان بلغة عامية فهو لا يزال قريبا من الأسـاليب العروضيـة الخليلية، كالتزام قـافيـة واحـدة في القصيـدة وشطرين في البيت. أمـا زجل الأمصـار فـابتعـد شيئـا مـا عن هـذه الأسـاليب. وذكر ابن خلـدون كيف «استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنـا آخر من الشعر في أعـاريض مزدوجـة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد[5].

وذكر أن أهل فاس أقبلوا على النظم على هذه الطريقة. وكان له هنا عبـارة يراهـا البعض كأنهـا تنقيض من أهـل المغرب حيث قـال : «وتركـوا الاعراب الـذي ليس من شـأنهم»[6]. وليس معنى هـذا أنهم لا عـلاقـة لهم

4) انظر عروض الموشح في مجلة «الثقافة المغربية» للمؤلف

5) ابن خلدون، المقدمة ص 1160 بيروت 1961.

6) ابن خلدون، المقدمة ص 1162 بيروت 1961.

بالإعراب، وإنما مقصوده أن النظم في هذه الطريقة لا شأن فيه للإعراب، وإلا فهو يعلم أن شيوخه الذين أخذ عنهم وهو شاب بتونس قبل قدومه على فاس، هم العلماء الذين صحبوا السلطان أبا الحسن المريني إلى تونس، وهم الذين شوقوه إلى التوجه إلى فاس للأخذ عن علمائها. وهو يعلم أن شأن هؤلاء مع الأعراب شأن وأي شأن، فلا ملامة عليه في تلك العبارة.

ثم ذكر أن هذا الشعر المستحدث باللغة الحضرية الفاسية «استفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل»(7). وقد أورد أمثلة منه لشعراء من أهل تازة ومن أهل زرهون. وقال بعد هذا : «وأما أهل تونس فاستحدثوا في الملعبة أيضا على لغتهم الحضرية إلا أن أكثره رديء ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لرداءته».

موضوعات الملحون :

إن الموضوعات التي يطرقها أشياخ الملحون يمكن أن نقول عنها من أول وهلة إن سائر النواحي التي نعتادها في الشعر العربي الفصيح نجد لها مقابلا في الملحون، فقد نظموا في الشعر الغنائي بسائر أنواعه من وصفه للطبيعة في قصائد تسمى الربيعيات، أو تحمل أسماء مختلفة كالعرصة، وكالرياض، وكالصبوحي، وكالديجور، أي الليل، وكالفجر، وكالذهبية أي غروب الشمس، ونحو ذلك، ونظموا في وصف مجالس الانس والمرح مع التعرض لذكر محاسن الفاتنات في قصائد تحمل مثل هذه الأسماء : النزهة، والزهو، وشعبانة، والغزال، والمزيان، وجمهور البنات، والفصادة والحجام.

---

7) ابن خلدون، المقدمة ص 1162 بيروت 1961.

وتسمى بهذين الاسمين الأخيرين القصائد التي يكون موضوعها وصف الحفلات التي كانت تقام بمناسبة الفصد.

وكثير من قصائد هذا النوع التي موضوعها وصف الجمال تعرف باسم من أسماء النساء، كزينب أو فاطمة، حتى إنك لا تكاد تجد اسم امرأة لا توجد قصيدة أو عدة قصائد منظومة فيه، على أن عددا كبيرا من القصائد التي تعرف باسم امرأة هي من باب النوع الغرامي الذي يعبر فيه الشاعر عن عواطف صادقة، ولا يكون وصف الجمال إلا عرضا وليس هو المقصود بالذات. والقصائد الغرامية تحمل أسماء كثيرة، مثل المحبوب، والمعشوق، والجار، والمرسول، والجافي، والهاجر، واللايم، والمرسم أي الحي أو المكان الذي يسكنه المحبوب، والشمعة حيث يشبه احتراقها وذوبانها وصفرتها بصفات العاشق الولهان الذي لا تنقطع دموعه، ويحترق فؤاده وتذبل سحنته. وقد انفرد كثير من الشعراء بأسماء خاصة للقصائد التي عبروا فيها عن هيامهم بمحبوبتهم، مما لا يمكن استيعابه.

ونظم شعراء الملحون الخمريات والقصائد في ذلك، تسمى الدالية، والكاس، والخمرية، والساقي، والساحي، والخمارة، وقد برع في هذا النوع الأدبي جل كبار الشعراء كالشيخ الجيلالي، والسي التهامي المدغري، وسيدي قدور العلمي، والكَندور، والحاج ادريس الحنش، وغيرهم. وأكثر الشعراء ينظمون في هذا الموضوع لإظهار براعتهم حتى إنني أحصيت نحو الستين ساقيا لثلاثة وثلاثين من الشعراء.

أما الهجاء فقد برعوا فيه وتفوقوا. ويسمونه «الشحط»، وهو «الدق» عند أهل مراكش. وإذا كان شعر المدح لم يحفظ لأن فائدته مقصورة على

المادح والممدوح، فإن الهجاء لهم به ولوع، ويرون فيه الشعر الصادق، فإنه غالبا ما يصدر عن غضب وتأثر، وذلك أنه كثيرا ما تقوم نزاعات بين أشياخ الملحون حول قضايا ترجع لفنهم وتؤدي إلى مساجلات ومناقضات مما يدفعهم إلى الهجاء. وقد حفظت قصائد كثيرة ممتازة في هذا النوع الأدبي، وهي تحمل أسماء مختلفة منها «الدعي»، أي الذي يدعى المعرفة والتفوق وهو دون ذلك، ومنها المطموس، ومنها ما يحمل اسم القافية كالضادية والواوية مثلا. ومن أشهر القصائد الهجائية «قصر العنان، للشاوي»، وقد ابتكر الغرابلي وبريسول في مساجلاتها معاني جديدة مقتبسة من الحروب البرية والبحرية، فسموا قصائدهم المهراز (المدفع الكبير)، والقرصان، أي السفينة الحربية التي كان القراصنة يغيرون بها على أعدائهم. وسمى الغرابلي إحدى قصائده بالغطاس قبل أن يخترع ويعرف.

وقد بلغ ولوعهم بالهجاء لدرجة أنه لا تجد قصيدة إلا في ما قل، باستثناء كلام السّي التهامي المدغري وسيدي قدُّور العلمي، لا يختمها صاحبها بهجاء خصومه ولو بإشارة خفيفة، فإذا أطال فذلك ما يسمى «بالزرب»، ويعنون بذلك أنهم يحيطون إنتاجهم بزرب من الشوك فلا يستطيع أحد من المعاندين الجاحدين الاقتراب منه ولا خرق ساحته، ورغم كل هذا فإنهم لا يحبذون الهجاء الشخصي، أي الذي لا يكون سببه خلافا فنيا أو مساجلة، وإنما مجرد هجو ناتج عن عداوة مثلا، ومثل هذه القصائد يطلقون عليها اسم «فضيحة». وهي لا تقبل ولا تحفظ. ويعاملونها معاملتهم لقصائد المدح، ويرون أن فائدتها شخصية، ولا تعني إلا القائل ومن قيلت فيه.

وينظمون كذلك في الرثاء ويسمونه «العزا»، أو «العزو» إلا أن القصائد في هذا النوع بما أنه لا يغني بها فإنها تضيع ولا تحفظ، وإنما نجد بعضها في الكنانيش القديمة مثل رثاء المنصور السعدي لسيدي عبد العزيز المغراوي.

وزيادة على هذه الأنواع التي توجد في الأدب العربي الفصيح، فقد امتاز شعراء الملحون بطرق مواضيع إما لا توجد مطلقا في الشعر العربي القديم أو الإنتاج فيها كان ضئيلا وضعيفا.

من ذلك، النوع المسرحي الذي مع الأسف لم يلهموا إخراجه في شكل تمثيلي حقيقي، وإنما بقي في طوره الموسيقي المحض، وإن كنت أرى أنهم اقتبسوا هذه المحاورات والمواقف المسرحية التي نجدها في القصائد التي نظمت في هذا النوع من الألعاب التي كانت تجرى بفاس وبمراكش أيام عيد الأضحى، وتسمى الفراجة أو بالشيخ، حيث تعرض روايات هزلية يقوم بتمثيلها أشخاص معروفون بإتقان أدوار خاصة.

وهذا النوع الأدبي يسمى عندهم ترجمة والمواضيع التي يطرقونها متنوعة، لكن أكثرها هو ما يسمى «الحراز»، حيث يصورون شخصا يحب امرأة ويحاول الاتصال بها، فيأتي في صور مختلفة ليحصل على ثقة بعلها الذي يمنعها ويحرزها، لذلك يسمى الحراز، فيصده ولا يترك له مجالا حتى يوفق إلى المجيء في صورة ينخدع فيها الحراز، فيتوصل العاشق إلى مرغوبه.

ومنه أيضا القصائد التي تسمى «الضيف» وهي تصور محبوبا يأتي عند محبه متنكرا في صورة من الصور، ويطلب منه «ضيف الله»، وتقع بينهما

محاورات ثم ينكشف له أنه حبيبه جاء عنده في غفلة من الرقباء. ومنها القصائد المسماة «القاضي»، حيث يصور الشاعر أنه يحاكم محبوبه عند القاضي ويقدم حجج محبته وغرامه حتى يقضي له الحاكم بأنه محق في دعواه.

وتارة يكون موضوع القصائد في هذا النوع المسرحي مفاخرة ما بين أشخاص كالعربية والمدينية، أي البدوية والحضرية، أو كالأمة والحرة، أو كالعجوز والشابة، وهكذا، أو بين أشياء كأزهار ونحوها. والقصائد في هذا المعنى تدعى «خصاما».

ومن المواضيع الطريفة في الملحون الرحلات الخيالية، وهم يصورون أنهم يوجهون طائرا إما لزيارة مكة والمدينة شوقا إلى تلك البقاع المقدسة ليصف المراحل التي يمر بها إلى أن يصل إلى الحجاز، أو يوجهونه إلى الحبيب أو إلى الأصدقاء في بلد بعيد. وفي كل هذه الأحوال توصف الطرق والمنازل التي يمر بها الطائر، والقصائد المنظومة في هذا النوع تحمل عادة أسماء الورشان، والحمام، والمرحول، والطلعة ونحوها.

ومما يمتاز به الملحون أيضا، وهو شبيه بالرحلة من جهة وصف البلاد أو أحياء مدينة من المدن، ما يتخيلونه من أن المحبوبة تركت عند حبيبها حاجة كحلي أو نحوه كتذكار، ثم ضاعت له فأخذ يبحث عنها. وتسمى عادة هذه القصائد باسم الشيء الضائع «كالخلخال»، «والدمليج» أي السوار، «والدواح» و«المقياس»، وهو السوار كذلك، «والسالف»، ويعنون به ضفيرة من شعر المحبوبة.

ومن هذا النوع كذلك قصائد رمزية يشبهون فيها المحبوب النافر الهاجر بحيوان كان يألف المنزل ثم هرب وتلف، فيقوم الشاعر بالبحث عنه

كذلك. ومثل هذه القصائد تسمى «الطرشون»، وهو الباز الصغير، «والغزال» و«الطير» ونحو ذلك.

ولشعراء الملحون براعة في الشعر الفكاهي. والمواضيع التي يطرقونها في هذا الباب كثيرة ومتنوعة. وتحمل القصائد الهزلية عادة مثل هذه الأسماء : «الزردة» و«الضمانة» و«الفار» و«الطحين» وغير ذلك.

ويختص الشعر الملحون بنوع يسمى عندهم «الجفريات»» وهو التنبؤ بالحوادث المستقبلة. والواقع أنهم يتخذون هذا الأسلوب كمطية للنقد السياسي متخذين لهذه الغاية إشارات ورموزا يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها. وأكبر من برز في هذا النوع الفقيه العميري. وكان أيام المولى عبد الرحمن، وله عدة قصائد جفرية منها اللامية (وكثير من قصائد هذا النوع تحمل اسم القافية).

ولما انهزمت فرنسا سنة 1940 في الحرب الأخيرة، أخذ الناس ينتسخون قصيدة جفرية لأحد شعراء مراكش يدعى الموقّت، كان يعيش في أوائل هذا القرن وتسمّى «الزّازية» (أي قافيتها زاي)، فيها للانتقاص من الفرنسيين والتنبؤ بهزيمتهم.

وتوجد كذلك قصائد سياسية نظمت بمناسبات وطنية كالقصائد المسماة «التّطْوانيات» حول حرب المغرب مع إسبانيا سنة 1859 ـ 1860، وقصائد حول فتح بونابارت لمصر، وحول دخول الفرنسيين لوجْدة. وقد نظم الشعراء كذلك في مساندة الحركة الاستقلالية أيام النضال. وأشهر من برع في هذا الباب الشاعر الملهم الشيخ العِيسَوي الفَلّوسْ من أهل فاس رحمه

الله. وكل الشعراء المعاصرين نظموا في التنويه بجهاد محمد الخامس قدس الله روحه، ووارث سره جلالة الحسن الثاني نصره الله.

وينظمون في الألغاز ويسمون عادة هذا النوع «السُّولان أو السوَال»، وهذا النوع مطية لإظهار البراعة في الإطلاع على معلومات عن أشياء غريبة يستمدونها من اتصالاتهم وملازمتهم لبعض العلماء ومن مطالعة كتب العجائب والغرائب.

ولهم قصائد تعليمية ينظمون فيها التوحيد والسيرة النبوية والمنازل الفلكية. ومثل هذه القصائد الأخيرة تسمى «ترحيل الشمس»، وممن نظم في ذلك المغْراوِي من القدماء، والحاج أحمد الغرابلي من المحدثين.

ومن المواضيع التي نظم فيها بعضهم ما يسمونه بالقصائد «الحسبية» تسمية للشيء بنقيضه، وهي من باب رجوع الشيخ إلى صباه ونحوها، وهي من الشعر الذي لا ينشد إلا في بعض مجالس اللهو أو بين جماعة من الناس ارتفعت من بينهم كل كلفة.

وامتاز كذلك شعراء الملحون بالنظم في موضوع لا نعرفه في الأدب العربي القديم، وهو موجود في الأدب الغربي، وهو مسخ القصائد (ويسمى بالفرنسية مثلا Parodie). وذلك أنهم يعمدون إلى قصائد جدية معروفة، ويقلبون موضوعها إلى الهزل والسخرية. وكثيرا ما يحولونها إلى النوع الحسبي المشار إليه آنفا. وممن اشتهر في هذا النوع من شعراء الملحون أحد شعراء مراكش كان يدعى أحْمر الرَّاسْ من رجال أوائل هذا القرن العشرين، ومنهم الفقيه الزرّاق من أهل فاس، وكان يقطن مراكش.

وأهم نوع برز فيه شعراء الملحون الشعر الملحمي «الابُوبيه» ويسمونه «الغزوات». والحقيقة أن القصائد التي موضوعها حروب المسلمين مع الكفار ليست هي كل الشعر الملحمي في الملحون. فهناك كذلك قصص «إبوبيه» تتعلق بسير الأنبياء والأولياء تتخللها كثير من الخوارق. ومن أشهر شعراء الغزوات والقصص الملحمية سيدي عبد العزيز المغراوي وله في ذلك الموؤودة وجرير والشدادية والشباب الغساني وغيرها، ومنهم سيدي مبارك أبو الأطباق، وهو من ناحية وَهْران، إلا أن شعره محفوظ ومتداول كثيرا بالمغرب. وقد كان له أثر على شعراء الملاحم عندنا، وهو في هذا مثل الشاعر التلمساني سيدي محمد بن يخلف، ومن آثار سيدي مبارك أبو الأطباق غزوة الصيد بن سلامة الخزمي والإسرائيلية والراحة، وتسمى كذلك غزوة أبيض ابن صلصال، ويقصد بالراحة هنا شفاء سيدنا علي كرم الله وجهه من مرض، وله فتوح إفريقية وغير هذا من القصائد الرائعة في هذا الموضوع الخيالي. أما سيدي محمد بن يخلف، فمن قصائده «الرهيب» (الراهب)، و«الضيافة» ويعني بها ضيافة رب العزّة لعباده، وقصة «الشباب مع أبي جهل» و«أبو يزيد البسطامي مع رهبان الدير» وغيرها كثير، وقد كان يعيش في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وأوائل الثاني عشر. وهو يؤرخ قصائده. وما وقفت عليه من كلامه مؤرخ ما بين 1095 و 1120 هـ.

وقد كاد ينعدم هذا النوع، إذ لم ينبغ فيه بعد هؤلاء الشعراء إلى أوائل هذا القرن أحد إلا ما كان من قصيدة أو قصيدتين تعرف لبعض الشعراء وكأنهم كانوا يتعمدون النظم في الغزوات والقصص الملحمية ليبرهنوا على براعتهم وقدرتهم - فمن ذلك «النباش» للشيخ الجيلالي و«الصالحية» لسيدي عبد السلام الزفري، و«العِيوَاجية» للسّي الكبير ابن عطية،

و«الكهفيـة» للشيخ غـانم القصري، و«النمروديـة» للغَرابْلِي ـ وفي أوائل القرن أحيي هذا النوع الشيخ المكّي ابن القُرْشي فنظم فيه الشيء الكثير «كالعاشقة مولاة التاج» و«جمجمة» و«البغدادية» و«اليوسفيـة» و«الشـدّاديـة» و«الشريفـة وسِيدُوك النصْراني».

وقد كان رجال الاستعمار أيام الحماية يمنعون إنشاد هـذه القصـائـد في الأسواق. وكان المراقبون إذا تقدم لهم أحد «المداحين» يطلب الإذن في السفر للتجول في المدن والقبائل قصد ترويج بضاعتـه أول مـا يسـألونـه عنـه هل يحفظ الغزوات ؟ فـإن أجـاب بـالنفي أعطي الإذن وإلا منع، لأنهم كانـوا يخشون بعث العـاطفـة الوطنيـة والـدينيـة في النواحي التي كانت مـا تـزال بعيدة عن أثر الدعوة الاستقلالية.

وهـذه نظرة وجيزة عن جـانب من هـذا الفن البـديـع وإني اهتم بـه وأجمع الإنتاجات التي أبدعها الأشياخ المغـاربـة ونعني بهذا التعبير «الشعراء» منذ نعومة أظفاري وجمعت من القصـائـد خمسـة آلاف قصيـدة ومن الشعراء خمسمائة شـاعر ووضعت أسس عروضـه ومصطلحـاتـه وتجمع من ذلـك كلـه مؤلف ضخم يحتـوي على عشرين جـزءا أخـذت الأكاديميـة الملكيـة المغربيـة نشره وسيظهر إن شـاء اللـه جزؤه الأول بعـد شهر وقـد قـدم لـه صـاحب الجلالة الحسن الثـاني نصره الله برسـالـة سـاميـة أوضحت قيمـة هـذا العمل وقدرته تقديرا يشرفني ويشرف أكاديميتنا الفتية جازاه الله خيرا عن الثقافـة والعلم.

الرباط　　　　　　محمد الفاسي

ترجمة رباعيات الخيام
مع إثبات نصها الفارسي

محمد ابن تاويت

آن قصر كه بر چرخ همي زد پهلو   بر دركَه أو شهان نهادندی رو
ديدم كه بركنكَره اش فاختة   بنشسته همي كَفت كه كوكو كوكو

☆ ☆ ☆

قصر بمنكبه طبّق السما   عنت لأعتابه أملاك الدُّنا
تجثو على قبته فاختة   تصيح «كوكو ؟» تعني «أين هو» هنا ؟

☆ ☆ ☆

آن قصر كه بهرام دروجام كَرفت   آهو بچه كرد وروبه آرام كَرفت
بهرام كه كَور ميكَرفتي همه عمر   ديدي كه چه كَونه كَور بهرام كَرفت

☆ ☆ ☆

قصر به بهرام كان يشرب   تنشي به الظبا ويأوى الثعلب
بهرام من كان يصيد الحمر «كَور»   رأيت كيف صاده ذا القبر «كَور»

☆ ☆ ☆

إي مفتي شهر أزتو پركارتريم   با إين مستي زتو هشيار تريم
ما خون رزان خوريم وتوخون كسان   إنصاف بده كدام خوخوار تريم

☆ ☆ ☆

أنفع منك أيها المفتي أنا ... ومع ذا السكر أصحى منك أنا
تحسو دما الناس ونحن العنبا ... فأنصف، من أسفك ؟ أنت أم أنا ؟

☆ ☆ ☆

شيخي بزن فاحشه كَفتا مستي ... هر لحظه بدام دكَرى پابستي
كَفتا شيخا هر أنچه كَويي هستم ... أما تو چنانچه مينمائي هستي

☆ ☆ ☆

شيخ لعاهر يقول، سكرى ... أنت وصيد لحظة لأخرى
قالت، أنا كذا، وحقا قائل ... فهل كما تظهر أنت فاعل ؟

☆ ☆ ☆

دل سرحيات أكَر كما هي دانست ... در مركَ هم أسرار الهي دانست
أمروز كه باخودى ندانستي هيچ ... فردا كه زخود روى چه خواهي دانست

☆ ☆ ☆

لو أدرك القلب سر الحياة ... لأدرك الأسرار للممات
فاليوم مع نفسك جاهل لها ... فكيف تعلم غدا سرا لها ؟

☆ ☆ ☆

أز آمدنم نبود كَردون را سود ... وزرفتن من جمال وجاهش نفزود
وزهيچ كسي نيزدوكَوشم نشنود ... كاين آمدن ورفتنم أز بهرچه بود

☆ ☆ ☆

اتياننا لم ينتفع به الفلك ... ولا غنا جماله من هلك
ما سمعت أذناي قط من أحد ... فائدة الاتيان والذهاب قد

☆ ☆ ☆

هركَه كه طلوع صبح أزرق باشد ... بايد كه بكف جام مروق باشد
كَويند بأفواه كه مي تلخ بود ... بايد به همه حال كه مي حق باشد

☆ ☆ ☆

كلما الصبح بدا لي أزرقا ... وجب الجام لكف أرقا
زعموها مرة خمرتنا ... وكذا حقا جرت قولتنا

☆ ☆ ☆

أبر آمد وبار برسر سبزه كَريست ... بي باده ى أرغوان نمي بايد زيست
ايروز كه إين سبزه، تماشاكَه ماست ... تاسبزه خاك ما تماشاكَه كيست

☆ ☆ ☆

جـــــاء السحـــــــاب فبكى المطر بـــــــدون خمر مـــــا حـــــلا العمر
في العشب منــــــــــا يسرح النظر لمن نكــــــون مسرحــــــا ينظر

☆ ☆ ☆

در دهر آنكـــــه نيم نــــاني دارد وزبهر نشست آشيـــــــاني دارد
نــه خـــادم كس بــود نــه مخــدوم كسي أو شـــاد بــزي كــه خــوش جهــاني دارد

☆ ☆ ☆

من كان في الــدنيــا لـــه نصف رغيف يملـــــــك عش سكن ولـــــو حفيف
لم يـــك خـــادمـــا لغير أو خــــديم محررا فليهن بــــــالظـــل الـــوريف

☆ ☆ ☆

زان پيش كــه أز زمــانــه تــابي بخــوريم بـــــايكـــــدكَر أمروز شرابي بخـــوريم
كاين چرخ فلـــك بـــه وقت رفتن مــــا چنــدان نــدهــد أمــان كــه آبي بخــوريم

☆ ☆ ☆

من قبــل أن يطـــوينـــا الـــزمـــان نشرب فــــاليـــوم لنـــا أمـــــان
ذا الفلــــك الــــدوار حين نــزمــع يضن بــــاللحظـــة مـــا أن نبلـــع

☆ ☆ ☆

مي خور كه بزير كَل بسي خواهي خفت بي مــونس وبي حريف وبي همــدم وجفت
زنهـــــار بكس مكَــوتــو إين راز نهفت هر لالــه كــه بــزمرده نخــواهــد بشكَفت

☆ ☆ ☆

اشرب الخمر طـــويـــــلا ستنـــــام لا أنيســـــا لا زميـــلا لا حـــــدام
واحــــــذرن لا تفش سرى لأحـــــد كل زهر ذابـــــل لن يستجــــــد

☆ ☆ ☆

آنتكـــه بكار عقــل درميكــوشنـــد هيهــات كــه جلــه كَــاونر ميــدوشنــد
آن بــه كــه لبـــاس أبلهي درپــوشنــد كامروز نـــه عقــل تره مي نفروشنـــد

☆ ☆ ☆

أولئـــــك الألى بعقـــل يجهــــدون هيهــــــات كلهم لثـــور يحلبـــون
خير لهم أن يرتـــــدوا البـــلاهـــه فـــاليــوم لا كراث بـــالنبـــاهـــه

☆ ☆ ☆

ايكاش كـــه جـــاي آرميـــدن بـودي يـــا إين ره دورا رســـدن بـــودي
كاش أزپى صــد هــزار ســال أزدل خــاك چــون سپــزه أميــد بردميـــدن بــودي

☆ ☆ ☆

يـــــــاليت للراحـــــــة من مكان أو لانتهـــــــاء السبـــــل من أوان

لــــو بعــــد آلاف السنين ننتعش من التراب مثلمـــــــا العشب نعش

☆ ☆ ☆

قـومي متفكر نـــد در مـــذهب ودين جمعي متحيرنـــــد درشـــــك ويقين

نـــاكَـــاه منـــادى در آيـــد زكمين كاي بيخبران ره نـــه است نـــه إين

☆ ☆ ☆

في الــــدين والمـــذهب قـوم فكروا والشـــــك واليقين جمـــع حيروا

وفجـــأة يـــأتي نـــداء من كمين أن أيهـــا الجهـــال مـــا لـــذاك حين

☆ ☆ ☆

چـون مردن تـو مردن يكبـار كَي است يكبـار بمير إين چـه بيچـاركَي است

خـوني ونجـاسق ومشتي ركَ وپـوست انكار نبـود زين چـه غمخـواركَي است

☆ ☆ ☆

إذ أن مـوتـك يكـون مـوتـة فرة مــوتن لم ذي الكبتــــة ؟

دم وأنجـاس وجلـد وعظـام فــلا يكن نكرا لمـاذا الغم طـام

☆ ☆ ☆

كَربر فلكم دست بـدي چـون يـزدان برد اشتمي من إين فلكرا أزميـــان

أزنـو فلـك دكَر چنـان سـاختمي كازاده بـه كَـام دل رسيـدي آسـان

☆ ☆ ☆

لـو كانت لي هيمنـة على الفلـك كخـالقي نـزعت عنـا ذا الفلـك

ولخلقت غيره جـديـدا نجـد فيـه أمـلا فريـدا

☆ ☆ ☆

آبـادئ ميخـانـه زمي خـوردن مـاست چـون دو هـزار تـوبـه دركَردن مـاست

كَر من نكنم كَنـاه رحمت چـه كنـد اسـايش رحمت أزكَنـه كردن مـاست

☆ ☆ ☆

حـانتنـا تعمر من مشروبنـا بينـا ألفـا متـاب طـوقنـا

رحمـة مـا هي بـلا ذنب لنـا ؟ إنمـا تـزدان من آثـامنـا

☆ ☆ ☆

يـزدان چـوكَـل وجـود مـا ميـآرست دانست زفعل ماچـه برخـواهـد خواست

بي حكمش نيست هركَنـاهي كـه مراست پس سوختن قيـامت أزبهر چـه خـواست

☆ ☆ ☆

حين برا اللــــه لنـــا طين الـوجـود علم من فعلنـــــا مـــــاذا سيعـــود
بـــدون حكــــه مـــا كان ذنبنـــا فــــالحرق مم سيكـــون حظنـــا

☆ ☆ ☆

در رهكَـــــذ رم هـــزار جـــادام نهي كَــــوبي كـــــه بكَيرمت أكَر كام نهي
يـك ذرة زحكم تـو جهـان خـالي نيست حكم تـو كني ومـــا عـــاصيم نـــام نهي

☆ ☆ ☆

في سبلي تضــــــــــــع ألف شرك تقـــول آخـــــذك إن - في الـــــدرك
وقعت والعـــــالم ليس نـــاجيـــا من حكمـــك المــاضي وأدعى عــاصيــا

☆ ☆ ☆

أز آب وكلَم سررشتـــــه من چــــه كنم وين پشم مرا تـورشتــــۀ من چـــه كنم
هرنيـك وبـدى كـه أز من آيـد بـوجود تـوبر سر من نـوشتــــۀ من چــــه كنم

☆ ☆ ☆

من مـــا وطين نشـــأتي، مـــا أصنـــع ؟ وصـــوفتي نسجتهـــــا، مـــــا أصنـــع ؟
كل جميلي وقبيحي في الـــــوجـــود أنت علي كاتب، مـــــا أصنـــــع ؟

☆ ☆ ☆

آنـــانـــك محيـــط فضـــل وأدب شـــدنـــد وز جـمـع كال شمـع أصحـــاب شـــدنـــد
ره زين شب تـــاريـــك نبردنـــد بيرون كَفتنــد فســانــه ودر خـواب شـــدنـــد

☆ ☆ ☆

أولئـــــــــك الألى بفضـــــــل وأدب وبـــالكمـــال أصبحـوا شمـع الصحـــاب
لم يهتـــــدوا للسبـــل من ليـــل الظـــلام قـــالـوا أســـاطير وصـــاروا في المنـــام

☆ ☆ ☆

تـــــا بتـــواني رنجـــــه مكَردان كسرا بر آتش خشم خـــويش منشــــان كسرا
كَر راحت جـــاودان طمـع ميـــداري ميرنـــج همشــــــه ومرنجـــــان كسرا

☆ ☆ ☆

لا تتعبن متى استطعت أحـــــــــدا لا تجلسن بنـــــار غيـــــظ أحـــــدا
إن تـــــك في دوام راحــــــة طمـــع فــــاتعب مـــداومـــا لا تتعب أحـــدا

☆ ☆ ☆

آن دهركــــه بـود مـــدتي منزل مـــا نـــامـــد بجـز از بـلا وغم حـــاصـل مـــا
أفسوس كـه حـل نكَشت يـك مشكل مـا رفيم هـــزار حسرت أنـــدر دل مـــــا

☆ ☆ ☆

ذاك دهر مـــــــدة كان لنــــــا | لم ينـل حـــاصلنـــا غير العنـــا
أسفــا مـــا انحـــل من مشكلنـــا | فــــذهبنــــا والأسى يغمرنـــــا

☆ ☆ ☆

آمـــد سحرى نـــداز ميخـــانـــه مـــا | كـــه رنـــد خرابـــات ديـوانـــهٔ مـــا
برخيز كــــه پركنيم جــــامـــــهٔ زمي | زان پيش كــــه پركننـــد پيانـــهٔ مـــا

☆ ☆ ☆

أتى نــــداء سحرا من حــــانــــــة | مجنــونـنـــا مـــولــــه الخرابــــة !
انهض لنــــلا قـــــدحــــا من خمر | من قبـــل مـــلء كاسهم من جـــذرى

☆ ☆ ☆

برخيز وبيـــا بتـــا براى دل مـــا | حـــل كن بجمال خـــويشتن مشكل مـــا
يـــك كــوزهٔ مي بيـــار تـــانـوش كنيم | زان پيش كه كوزه هـا كننـد أزكـل مـا

☆ ☆ ☆

انهض لقلبنـــا تعـــال يـــاجميـــل | وحـــل بـــالجمـــال مشكـلا وبيـــل
وهـــــــات كـــــوز خمرة فنكرع | من قبـــل لكــــد طيننـــا ليصنعـــوا

☆ ☆ ☆

إي كــوزه گران بكـوش اگر هشيــــاري | تـــاچنــــد كني بركــل آدم خـــواري
أنگشت فريـــــــــدون وكف خسرو | بر چرخ نهـــادهٔ چـــه مي پنــــداري

☆ ☆ ☆

يــــا أيهـــا الخـــزاف إن كنت تعي | إلى متى طينتنـــــــــــــا لا ترتعي
أصبـــــــــع افردون وكف كسري | وضعتـــــا في دولب أمـــــا ترى ؟

☆ ☆ ☆

دى كــوزه گرى بـديـدم أنـــدر بـــازار | بر پـــارهٔ گلي لگـــد همي زد بسيــــار
وآن كـل بـزبـان حـال بـأوى ميگفت | من همچـــو تـــو بـــوده أم مرانيكـــودار

☆ ☆ ☆

شـــاهـــدت خـزافـــا بســوق أمس | يـــدوس طينـــة شـــديـــد الـــدوس
كانت تقـــول بلســـان حـــالهـــا | أنـــا كـــذا مثلـــك كنت. انتبهـــا !

☆ ☆ ☆

عمرت تـــاكي بخـــود پرستي گــــذرد | يـــادرپي نيستي وهستي گــــذرد
مي نوش كـه عمري كـه أجـل درپي أوست | آن بــه كــه بخـواب يــا بمستي گــذرد

☆ ☆ ☆

إلى متى عمرك يمضي جاهدا ... في «الليس والأيس» ونفس عابدا

فاشرب فإن الموت يعقب العمر ... خير لذا أن ينقضي نوما او سكر

☆ ☆ ☆

تا زهره وماه در آسمان گشت پديد ... بهتر زمي ناب كسي هيچ نديد

من در عجبم زمي فروشان كايشان ... به زآنچه فروشند چه خواهند خريد

☆ ☆ ☆

منذ بدا القمر والزهرة ما ... رؤى خير من طلا تختما

عجبت من بائعي خمر يبتغون ... أحسن من تلك التي هم بائعون

☆ ☆ ☆

گرزمي مغانه مستم مستم ... گر كافر وگبر وبتپرستم هستم

هر طائفه بمن گماني دارند ... من زان خودم جنانكه هستم هستم

☆ ☆ ☆

إن همت في خمر المجوس ها أنا ... أو قيل كافر مجوسي ها أنا

كل له ظن ولكني أنا ... مالك نفسي حرة كما أنا

☆ ☆ ☆

روزى كه گذشته است أزو ياد مكن ... فردا كه نيامده است فرياد مكن

بر نامده وگذشته فرياد منه ... حالي خوش باش وعمر برباد مكن

☆ ☆ ☆

لا تذكرن يوما مضى فيما مضى ... لا تجزعن من غدنا فيما قضى

فالماضي والآتي اتركن ذكرهما ... طيبن نفسا واعرن غيرهما

☆ ☆ ☆

گرگوهر طاعتت نسفتم هرگز ... گرد گنه أزچهره نرفتم هرگز

نوميد نيم زبرگاه كرمت ... زيرا كه يكرا دو نگفتم هرگز

☆ ☆ ☆

إلا نظمت جوهر الطاعة قط ... وزحت عن خدى غبار الذنب قط

فلست قانطا بعباب كرمك ... إذ ما زعمت واحدا اثنين قط

☆ ☆ ☆

يا رب خردم در خور اثبات تونيست ... وأنديشة من بجز مناجات تونيست

من ذات ترا بواجبي كي دانم ... داننده ذات توبجز ذات تونيست

☆ ☆ ☆

عقلي عــــاجــز لا ثبـــاتـــك رب — وفكري إلا بمنـــاجـــاتـــك رب
فكيف لي أدرك ذاتـــك يـــارب — لامـــــدرك ذاتـــك إلا أنت رب

☆ ☆ ☆

كَفتي كــه ترا عــذاب خــواهم فرمــود — هركَـــز من أزين خبر هراسم نفـــزود
جــاي كــه تــوئي عــذاب نبـود آنجــا — وآنجــا كــه تــونيستي كجــا خــواهــد بــود

☆ ☆ ☆

قـــد قلت لي إني ســو أعـــذب — وأنـــا من ذا قـــط لست أوجب
فــلا يكــون حيث أنت من عـــذاب — وكيف دونـــك يكــون من جنـــاب

☆ ☆ ☆

من بنـدهٔ عــاصيم رضــاي تــوكجــاست — تــاريــك دلم نــور صفــاى تــوكجــاست
مـــارا تــوبهشت أكَر بطــاعت بخشي — إين بيع بــود لطف عطــاي تــوكجــاست

☆ ☆ ☆

إني أنـــا العـــاصي رضـــاك أين هــو — أظلم قلبي وصفـــاك أين هـــو
إن كنت بــالطــاعــة تعطي جنــة — فــذاك بيــع وعطــاك أين هــو

☆ ☆ ☆

نــاكرده كَنــه درجهــان كيست بكَــو — وآنكس كه كَنــه نكرد چون زيست بكَــو
من بـــدبكنم وتــو بــد مكافــات دهي — پس فرق ميـــان من وتـــوچيست بكَــو

☆ ☆ ☆

من الـــذي لم يـــذنب في الحيـــاة قــل — والـــذي لا يـــذنب كيف عـــاش قــل
إذا أســـأت وجـــزائي مثلهـــا — إذن فمـــا الفرق لنـــا ؟ ربي قـــل

☆ ☆ ☆

إي همنفســان مرا بــه مي قــوت كنيــد — وين چهره كهربــا چــويــاقــوت كنيــد
چــون مرده شــوم بــه مي بشــوييــد مرا — وزچــوب رزم تختــهٔ تــابــوت كنيــد

☆ ☆ ☆

يـــا أشقـــا النفس اجعلــوا راحي قــوت — وصيروا مصفر خـــدى يـــاقـــوت
وغسلــوني بـــالخـــور مـــائتـــا — واتخـــذوا تــابــوتي كرمــا نـــابتـــا

☆ ☆ ☆

آنم كــه پــديــد كَشتم أز قــدرت تــو — پرورده شـــدم بنـــاز در نعمت تــو
صــد ســال بامتحــان كَنــه خــواهم كرد — تـــاجرم منست بيش يـــا رحمت تــو

☆ ☆ ☆

أنـــا الـــذي بقـــدرتـــك ظهرا ... وبـــدلال نعمـــة قـــد ظفرا
مـــائـــة عـــام ســوف أكثر الـــذنــوب ... حتى أرى الرحمـــة أم ذنبي يصـــوب

☆ ☆ ☆

آنهـا كـه زبيش رفتـه انـد إي سـاقي ... در خـاك غرور خفتـه انـد إي سـاقي
رو بـاده خـور وحقيقت أز من بشنـو ... بـادست هر آنچـه گفتـه انـد إي سـاقي

☆ ☆ ☆

أولا الـــذين رحلـوا يـــا ســـاقي ... نـــامـوا بتربـــة الغرور ســـاقي !
هيـــــا اشرب الخمر ومني اسمعن ... حقيقـــة ـ قـــالـوا هراء ســـاقي !

☆ ☆ ☆

أفسـوس كـه سرمـايـه زكف بيرون شـد ... وزدست أجـل بسي جگرهـا خـون شـد
كس نـامـد از آن جهـان كـه برسم أزوي ... كأحـوال مسـافران عـالم چـون شـد

☆ ☆ ☆

راس مـــالي أسفـــا قـــد ذهبـــا ... كم دمـــاء سفـــك المـــوت هبـــا
لا أرى من عـــاد من ذاك الـسفر ... فيخبرني عن حـــال الـسفر

☆ ☆ ☆

سير آمـــدم إي خـــداى هستي خـويش ... أزتنـــكَ دل وأزتهي دستي خـــويش
أز نيست چـــوهست ميكني بيرون آر ... زين نيستم بحرمت هستي خـــويش

☆ ☆ ☆

شبعت يـــــالهي من وجـــودي ... وضيـق صـدري ويـــدي عن جـودي
بمـــا وجـودي صغتـــه من العـــدم ... بحرمـــة الـوجـود أخرج من عـــدم

☆ ☆ ☆

خيام كـه خيـه هـاي حكمت ميـدوخت ... در كـوره غم فتـاد ونـاكـاه بسـوخت
مقراض أجـل طنـاب عمرش ببريـــد ... دلال أمـــــل بر ايكانش بفروخت

☆ ☆ ☆

خيـــام خـــائـــط خيـــام الحكمـــة ... وقـــع فجـــأة بكـــور الغمـــة
فقطـــع المقراض أطنـــاب الأجـــل ... وبـــاعـــه دلالـــه بـــلا أمـــل

☆ ☆ ☆

أز تـو برفت جـان پـاك من وتـو ... خشتي تـو نـدهنـد بر مغـاك من وتـو
وانكـــه زبراي خشت كـــور دگران ... در كالبـدي كشنـد خـاك پـاك من وتـو

☆ ☆ ☆

إذا خلت من جسمنـــــا الأرواح ... لبنتـــان فـــوقنـــا أشبـــاح
ثم من أجـــل آجر لغيرنـــا ... هم يملأون قـــالبـــا من تربنـــا

دنيـانـه مقـام تست نـه جـاي نشست — فرزانـــــه در أو خراب أو ليتر ومست
بر آتش غم زبـــــــاده آبي ميزن — زان پيشس كـه در خـاك روى بـاد بـدست

☆ ☆ ☆

ليست لـك الـدنيـا مقـامـا أو قرار — خير بهـــا لعــاقــل صرع السكر
فـاسكب على نـار الغمـوم مـا الطـلا — من قبـل أن تصير فـارغـايـدا

☆ ☆ ☆

دنيـا بمراد رانـــده كَير آخرچـــه — وين نـامـهٔ عمر خـوانـده كَير آخرچـه
كَيرم كـه بكام دل بمـا نـدى صـد سـال — صـد سـال دكَر بمـا نـده كَير آخرچـه

☆ ☆ ☆

دنيـا تنيلنـا مرادا، مـا هي ؟ — رسـالـة لعمر قـار، مـا هي ؟
فلـو بقيت نـاعمـا مـائـة عـام — ثم بقيت مثـل تلـك مـا هي ؟

☆ ☆ ☆

سيم أرچـه نـه مـايـهٔ خردمنـدانست — بي سيمان رابـاغ جهـان زنـدانست
أزد هت تهي بنفشـــه سر بر زانـوست — دركيســه زردهـان كَـل خنـدانست

☆ ☆ ☆

ذوو العقـل إن كانـوا لا يكنزون — فروض الـدنـا للفقير سجـون
فهـذا البنفسـج من عـدمـه — يطـاطيء، والـورد في بسمـه

☆ ☆ ☆

درچشم محققـان چـه زيبـا وچـه زشت — منزلكَه عـاشقـان چـه دوزخ چـه بهشت
پوشيـدن بيـدلان چـه أطلس چـه پلاس — زير سر عـاشقـان چـه يـالين وچـه خشت

☆ ☆ ☆

مـا الحسن والقبـح لـدى المحققين ؟ — مـا النـار مـا الجنـة عنـد العـاشقين
ومـا الحرير والسـدى للـواهين — والريش والحجر تحت المـدنفين

☆ ☆ ☆

جـزراه قلنـدران ميخـانـه مپـو — جـز بـاده وجـز سماع وجـز يـار مجـو
بركف قـدح بـاده وبردوش سبـوي — مي نـوش كن أي نكَـار وبيهـوده مكَـو

☆ ☆ ☆

لا تسلكن غير سبيـل الحـانـه — وغير راح وسماع الغـانـه
لكفـك الكأس ومتنـك الـدنـان — فـاشرب جيلي لا تقـل مـا لا يصـان

☆ ☆ ☆

دشمن بغلـــط گفت كـــه من فلسفيم | إيـزد دانـــد كـــه آنچـــه أو گفت نيم
ليكن چـودراين غم آشيـــان آمـــده ام | آخرگم از آنكـــه من بـــدانم كـــه كيم

☆ ☆ ☆

قـــــد زعم العـــــدو أني فلسفي | واللـــــه يعلم مقـــــالا ليس في
لكني إذ جئت إلى دار الغمـــــوم | فـــإن دركى «من أنـــا» لي لـــزوم

☆ ☆ ☆

چون ميگـذرد عمر چه شيرين وچـه تلـخ | پيمانـه چـو پر شـود چه بغـداد چه بلـخ
مي نـوش كـه بعـد از من وتـو مـاه بسي | أز سلـــخ بغره ايـــــد أز غره بسلـــخ

☆ ☆ ☆

إذ ينقضي العمر فحلـــــوه سيــــــان | وامتـــلأ الكأس بلـــخ كبغــــــدان
فـــاحس المـــدام بعـــدنـــا الأقـــار | من سلخهـــــــا لغرّة تـــــدار

☆ ☆ ☆

إين چرخ چـو طـاسيست نگـون افتـاده | دروي همـــه زيركـــان زبـون افتـــاده
بر دوستيء شيشـــه وســـاغر نگريـــد | لب برلب ودر ميـــانـــه خـون افتـــاده

☆ ☆ ☆

فلكتـــا كشـــل طـــاس قلبـــا | داخلــــــه كل ذكي نكبـــــا
ألا ترى حب بريـــــق للقـــــداح | بين الشفـــاه دائمـــا دم سفـــاح

☆ ☆ ☆

تـاچنـد اسير رنـگ وبـو خـواهي شـد | چنـد ازپي هر زشت ونكـو خـواهي شـد
گرچشمـــهٔ زمـزمي وگر آب حيـــات | آخر بـــدل خـــاك فرو خـواهي شـــد

☆ ☆ ☆

إلى متى للــــــون والانســــــام | تسعـى وللطيـب فـي اهتمـــــام !
فلـو شربت زمـزمـــا ومـــا الحيـــاه | ســوف تغـور في بطـون ذى الرفـــاه

☆ ☆ ☆

گر باده خوري تـوبـا خردمنـدان خـور | يـا بـاصنمي لا لـه رخ وخنـدان خـور
بسيـــار مخـور فـــاش مكن وزد مســاز | انـدك خور وگـه گـاه خور وپنهان خـور

☆ ☆ ☆

إذا شربت فـــاشربن منـــادمـــا | عـــاقـلا أو وردي خـــد نـــاعمـــا
لا تكثـر الشـرب ولا تفـش ولا | تصخب، وأقلـــل واجرعن مختفيـــا

☆ ☆ ☆

كَرمي نـوشـد كَـدا بـه ميرى برسـد ور روبهكَي خـورد بـه شيرى برسـد
وربير خـورد جـواني أز سر كَيرد ور زآنكـه جوان خورد بـه پيرى برسـد

☆ ☆ ☆

لـو شرب الخمر فقير أمرا أو ثعلب شربهـا تقسـورا
أو الشيـخ الهرم جـاء يـافعـا أو الفتى عمر شيخـا قـابعـا

☆ ☆ ☆

سر دفتر عـالم معـاني عشـق است سر بيت قصيـدة جـواني عشـق است
إي آنكـه خبر نـداري أز عـالم عشـق إين نكتـه بـدان كه زنـدكَاني عشق است

☆ ☆ ☆

العشـق سر دفتر المعـاني بيت قصيـدة الشبـاب الـداني
أيـامن لا علم لـه من عشقنـا اعلم فـإن العشـق هـو حيـاتنـا

☆ ☆ ☆

يك نـان به دو روز كَر شود حـاصل مراد وزكـوزهٌ اشكتـه دمي آبي سرد
مـا موركسي دكَرچرا بـايـد بـود يـا خـدمت چـون خـودي چرا بـآيـد كَرد

☆ ☆ ☆

لـو كان للمرء رغيف يحصـل يـوميـه مـع جرعـة كـوز يـوصـل
فلم يرى لغيره مـأمـورا أو خـاد مـا لمثلـه مجبـورا ؟؟

☆ ☆ ☆

نـازم بـه خرابـات كـه أهلش أهلست چـون نيـك نظر كني بـدش هم سهلست
از مـدرسـه بر نخـاست يـك أهـل دلي ويران شـود إين خرابـه دار الجهلست

☆ ☆ ☆

بـأهلي أهـل للخراب أفخر طـالحهم إذا نظرت أيسر
مـا لخرجت مـدرسـة أهـل القلـوب فلتنهـدم دارا لجهـل ولغـوب

☆ ☆ ☆

رفتيم وزمـا زمـانـه آشفتـه بمـانـد بـا آنكي زصـد كهر يكي سفتـه بمـانـد
أفسـوس كـه صـد هـزار معنيء دقيـق أز بي خردي خلـق نـاكفتـه بمـانـد

☆ ☆ ☆

ذهبنـا وظـل يجيش الـزمـان ومن مـائـة جـوهرا مـا أبـانـوا
سـوى درة، أسفـا للمعـاني تضن على الجهـلا بـالتـدان

☆ ☆ ☆

مي خوركه مدام راحت روح تو أوست
آسايش جان ودل مجروح تو أوست
طوفان غم أر در آيد أز پيش وپست
در باده كَريز كشتيء نوح أوست

☆ ☆ ☆

اشرب الخمر فهي راحة روح
وأمان النفس والقلب الجريح
فإذا طوفان غم دهما
فائو للخمر فهي فلك لنوح

☆ ☆ ☆

چون حاصل آدمي درين جاي دودر
جز درد دل ودادن جان نيست دكَر
خرم دل آنكه يك نفس زنده بود
وأسوده كسيكه خود نزاد أز مادر

☆ ☆ ☆

بما لنا في الدار ذات البابين
غم فؤاد ووفاة لا مين
فإن من سر يعيش لحظة
ومن هني لم يستهل بتة

☆ ☆ ☆

إين كهنه سرا كه عالم أورا نامست
وآرامكَه أبلق صبح وشام أست
بزميست كه وامنده صد جشيدست
قصريست كه تكيه كَاه صد بهرام أست

☆ ☆ ☆

صرح عتيق قد دعي بالعالم
مقر صبح ومساء أدهم
مجلسه حوى مائات جشيد
بقصره اتكا مائات بهرام

☆ ☆ ☆

آن به كه زجام باده دل شاد كني
وزنامده وكَذشته كم ياد كني
وين عاريتي روان زنداني را
يك لحظه زبند عقل آزاد كني

☆ ☆ ☆

الخير أن تبهج قلبا بالطلا
وأن تقل ذكر آت أو مضي
وهذه عارية الحياة
تطلقها من قيد عقل عات

☆ ☆ ☆

تا يار شراب جانفزايم ندهد
صد بوسه فلك بدست وپايم ندهد
كَويند كه توبه كن كه وقتش آمد
چون توبه كنم تاكه خدايم ندهد

☆ ☆ ☆

ما لم يسقني شرابا الحبيب
ففلكي لخدمتي لا يستجيب
يقال تب توبة آن وقتها
كيف أتوب وإلهي لا يجيب

☆ ☆ ☆

تـا خـاك مرا بـه قـالب آختـه انـد بس فتنه كه زين خاك بر أنكَيختـه اند
من بهتر أزين نمي تـوانم بـودن كـزبوتـه مرا چنين برون ريختـه انـد

☆ ☆ ☆

بمـا هم قـد وضعـوني قـالبـا وأي ثـورة أثـاروا التـوربـا
فلست أستطيـع خيرا أن أكـون فهكـذا أفرغت من كـور الفتـون

☆ ☆ ☆

إين يـك دوسـه روزه نوبت عمر كَـذشت چون آب بجـويبـار وچـون بـاد بـدشت
هركَـزغم دوروزه مرايـاد نكَـنشت روزى كه نيـامدست وروزى كـه كَذشت

☆ ☆ ☆

قـد ذهبت أيـام هـذا العمر كالريـح في صحرا ومـا في النهر
لم يـك ذكرى ليـومين شجي يـوم مضى وآخر لمـا يجي

☆ ☆ ☆

تـاچنـد كنم عرضـهٔ نـاداني، خـويش بكَرفت دل من أز پريشـاني، خـويش
زنـار مغـانـه برميـان خـواهم بست داني زچـه ؟ أزننـك مسلمـاني خـويش

☆ ☆ ☆

إلى متى جهـالتي أعرضهـا نفسي حـانت من شتـات مـا بهـا
سـوف أشـد وسطي زنـارا تـدري لمـاذا ؟ كـوني «مسلم» عـارا

☆ ☆ ☆

خـورشيـد كنـد صبـح بر بـام أفكنـد كيخسرو روز بـاده درجـام أفكنـد
مي خـوركـه منـادى سحركَـه خيزان آوازهٔ «اشربـوا» درأيـام أفكنـد

☆ ☆ ☆

نصبت الشمس شبـاك الصبـح وصب خمرا ملكـه في قـدح
فـاشرب فهـذا سحر يـؤذن أن «اشربـوا» أيـامكم لتـأمنـوا

☆ ☆ ☆

بر مفرش خـاك خفتكَـان مي بينم در زير زمين نهفتكَـان مي بينم
چنـد انكـه بـه صحراى عـدم مي نكَرم نـا آمـدكَـان ورفتكَـان مي بينم

☆ ☆ ☆

أرى على فراش أرض نـائمين وتحت أطبـاق الثرى مستترين
وكلمـا لحت صحراء العـدم رأيت غير هـؤلاء أجمعين

☆ ☆ ☆

بركَير زخـود حســـاب اكَر بـــاخبرى | كاول تـوچـــه آوردى وآخر چـــه برى
كَـوبي نخـورم بـاده كـه ميبـايـد مرد | ميبـــايـــد مرد أكَر خـوري يـــا نخـوري

☆ ☆ ☆

حـــــاسب النفس بـــــا أنت خبير | مـــــا أتت أو فستـــــاتي من جرير
إن تقــل لا أحســو خمرا ســـأمــوت | فبشرب وبغير ستمـــــــــــــوت

☆ ☆ ☆

إين صـورت كـون جملـه نقش وخيـــال | عـارف نبـود هركـه نـدانـد إين حـــال
بنشين قـــدحي بـــاده بنـوش بـــاش | فـــارغ شـو أزين نقش خيـــالات محـــال

☆ ☆ ☆

صـورة هـــذا الكـــون نقش وخيـــال | ليس بعـــــارف من لا يفهم حـــــال
فـــاجلس لشرب قـــدح واسعـــد بـــه | ولا تبـــال بـــالنقـــوش والخيـــال

☆ ☆ ☆

مـــا خرقـــهٔ زهـــد برسر خم كرديم | وزخـــــاك خرابـــــات تيم كرديم
شـــايـــد بـــدر ميكـــدهـــا دريـــابيم | آن عمر كـــه در مـــدرســـه هـــاكم كرديم

☆ ☆ ☆

بخرقـــة الـزهـــد سترنـــا الـــدنـــا | ولصعيـــــد ألحـــــان قـــــد يممنـــــا
لعلنـــــا نـــــدرك عنـــــد البـــــاب | عمرا أضـــــاع معهـــــد الألبـــــاب

☆ ☆ ☆

من بي مي نـــــاب زيستن نتـــوانم | بي بـــاده كشيـــد بـــارتن نتـــوانم
من بنـــدهٔ آن دمم كـــه ســـاقي كَـويـــد | «يـــك جـــام دكَر بكَير» ومن نتـــوانم

☆ ☆ ☆

العيش دون راح لست أستطيـــــــع | بـــدونهـــا جسمي لست أستطيـــع
عبـــد أنـــا للحظـــة الســـاقي يقـول | «خـــذ كاســـا اخرى» وأنـــالا أستطيـــع

☆ ☆ ☆

بر دار پيـــالـــه وسبـــو إي دلجـــو | بر كَرد بكَرد سبزه زار ولب جـــــــو
كين چرخ بسى قـــد بتـــان مهرو | صـد بـــارپيـــالـــه كرد وصـد بـــار سبـو

☆ ☆ ☆

تنـــاول ابريقـــا وكأســـا يـــالطيف | وحـــول روض خضر بـــالشـــط طف
فـــالفلـــك من قـــد الحســـان قـــد صنـع | مـــائـــة كأس وأبـــاريـــق وضـــع

☆ ☆ ☆

أز گَردش روزگَـــــــــار بهرى برگَير بر تخت طرب نشين بكف ســـــاغر گَير
أز طـــاعت ومعصيت خـــدا مستغنيست بـــارى تـــو مراد خـــود زعـــالم برگَير

☆ ☆ ☆

اغتنم حظـــــك من تلـــو الليــــال واطربن بحتسيــــــا بنت الـــدوال
فـــالهي في غنى عن طـــاعـــــة وعصـــــاة فـــانعمن في كل حـــال

☆ ☆ ☆

سر مست به ميخـانـــه گَـذركردم دوش پيرى ديـــــدم مست وسبـــوبي بردوش
گَفتم زخــــدا شرم نـــدارى، إي پير گَفتـا كرم أز خـداست، مي نـوش وخموش

☆ ☆ ☆

جـــزت بحـــان ثمـــلا ليـــلا أجن إذا بشيـــــخ سكر ومعــــــــه دن
قلت أمـــا تستحي من ربـــك يـــا ! قـــال كريم ربنـــا فـــاشرب أيـــا !

☆ ☆ ☆

هين صبح دميد ودامن شب شد چـاك برخيز وصبـــوح كن چراي غمنــــــاك
مي نـوش دلا كـه صبح بسيـار دمـد أو روى بـه مـا كرده ومـا روى بخـاك

☆ ☆ ☆

طلـــع الصبـــح وذيـــل الليـــل زال فـــانهض بـــاكر ودع غمـــا وبـــال
واشربن يـــا قلبي فـــالصبـح يـؤوب نحـونـــا لكننـــا لسنـــا نـــؤوب

☆ ☆ ☆

گَوينـد كـه مـاه روزه نـزديـك رسيـد من بعـــد بگَرد بـاده نتـوان گَرديـــد
در آخر شعبـــان بخـورم چنــدان مي كانــدر رمضـــان مست بيفتم تـــاعيــد

☆ ☆ ☆

يقـولـــون شهر الصـوم آن أوانــــه فمن بعـــد لن يرتـــاد للشرب حـــانــه
ســـأكرع في شعبـــان خمرا تنـــوبني مـــدى الشهر حتى العيـــد ثم تعـــودني

☆ ☆ ☆

مــــالعبت كانيم وفلـــك لعبتبــــاز أز روى حقيقتي نـــــه أز روى مجــــاز
بـازيچـه كنـان بـديم بر نطـع وجـود رفتيم بصنـــدوق عـــدم يـــك يـــك بـــاز

☆ ☆ ☆

نحن ألاعيب بنـــا الفلـــك تـــدور حقـــا ومـــاذا من مجـــاز قـــد يحـور
لقـــد لعبنـــا في بســـاط الكـــون ثم اختفينـــا واحـــدا فـــاثنين...

☆ ☆ ☆

كَر آمدنم بمن بدى نامدمي ... ور نير شدن بمن بدى كى شدمي
به زان نبدي كه اندر إين دير خراب ... نه آمدمي، نه شدمي، نه بدمي

☆ ☆ ☆

لو كان باختياري ما أتيت ... وخلقتي بيدي ما خلقت
عدمي خير من وجودي في الشقا ... فلا مجيء لا ذهاب لا بقا

☆ ☆ ☆

روزى كه دو مهلتست مي خور مي ناب ... كاين عمر دو روزه بر نكَردد درياب
داني كه جهان رو بخرابي دارد ... تونيز شب وروز همي باش خراب

☆ ☆ ☆

احْسُ الحميا كل يوم مرتين ... واعلم بأن العمر ليس مرتين
في علمنا أن المصير للخراب ... فكن كذا ليل نهار في خراب

☆ ☆ ☆

نيكي وبدى كه در نهاد بشرست ... شادى وغمي كه در قضا وقدرست
باچرخ مكن حواله كاندره عقل ... چرخ أز تو هزار بار بيچاره ترست

☆ ☆ ☆

الخير والشر لدى طبع البشر ... والغم والفرح قضاء وقدر
فلا تحل شيئا على الأفلاك ... فدون عقلك قوى الأفلاك

☆ ☆ ☆

چون حاصل آدمي درين شورستان ... جز خوردن غصه نيست يا كندن جان
خرم دل آنكه أز جهان بيرون شد ... آسوده كسى كه خود نيامد بجهان

☆ ☆ ☆

بما ليس للإنس في ذى الحياه ... سوى غصة أو عذاب يراه
فطوبي لمن حاد عن عالم ... وأطيب بمن ليس بالقادم

☆ ☆ ☆

بنكَرز صبا دامن كَل چاك شده ... بلبل زجمال كَل طربناك شده
در سايهٔ كَل نشين كه بسيار إين كَل ... أز خاك برآمده ست ودر خاك شده

☆ ☆ ☆

انظر إلى الصبا بها تمزقت ... ذيول ورد وطيور شقشقت
أطل جلوسا في ذرا الورد فقد ... نبت من ترب وصار ترب رد

☆ ☆ ☆

توبه مكن أزمي أكَرت مي بأشد   صد توبه نادمانه دربي باشد
كَل جامه دران وبلبلان نعره زنان   در وقت چنين توبه رواكي باشد

☆ ☆ ☆

إذا أحرزت خمرا لا تتوبا   فإن لذا زمانا مستجيبا
تفرى الورد إذ غنى البلابل   وإن التوب إذ ذا لن يطيبا

☆ ☆ ☆

خيام تنت بخيمهٔ ماند راست   جان سلطانيكه منزلش دار بقاست
فراش أزل زبهر ديكَر منزل   نه خيمه بيفكند چو سلطان برخاست

☆ ☆ ☆

جسمك ياخيام خيمة، وروح   سلطانه، دار البقا لها صروح
موكل الأزل حين يرحل   ينقضها لآخر فينزل

☆ ☆ ☆

أز آمدن ورفتن ما سودى كو   وزتار أميد عمر ما بودى كو
در چنبر چرخ جان چندين پاكان   ميسوزد وخاك ميشود دودي كو

☆ ☆ ☆

أين نفع للمجئ والذهاب   أين لحات سدى العمر الرغاب
في محيط الفلك أرواح الحسان   تتلظى، فرمادا، لا دخان

☆ ☆ ☆

كَر أزپى شهوت وهوا خواهي رفت   أز من خبرت كه بي نوا خواهي رفت
بنكَرچه كسي وأزكجا آمدهٔ   ميدان كه چه ميكني، كجا خواهي رفت

☆ ☆ ☆

إن كنت للشهوة والهوى تميل   فاعلم فأنت في المرام ستفيل
تدبر من أنت ومن أين المجي   وما الذي تأتي وأين تلتجي

☆ ☆ ☆

هرچند كه رنكَ وبوى زيباست مرا   چون لاله وچو سرو بالاست مرا
معلوم نشد كه در طربخانهٔ خاك   نقاش أزل بهرچه آراست مرا

☆ ☆ ☆

مهمى يكن ريحي ولوني جميل   وقامتي كالبان والسرو القويم
فليس معلوما لدى دار السرور   نقاشي لم أبدعني قبل الدهور

☆ ☆ ☆

كَـل كَفت بـه أز لقـاى من روبي نيست — چنـــدين ستم كَـلابكَر بـــارى چيست
بلبـل بـزبـــان حـــال بـــا أو ميكَفت — يك روز كه خنديد كه سالي نكريست

☆ ☆ ☆

قـــالت الــــوردة لا أنضر من — وجهي لم عـــــاصر زهر لي مهين
قـــال بلبـل بلســـان حـــالــــه — ضـاحـك يـومـه بـاكي عـامـه

☆ ☆ ☆

مهتـاب بـه نـور دامن شب بشكَـافت — مي خور كه چنين دمي دكَر نتوان يـافت
خـوش بـاش وبر أنـديش كه مهتـاب بسي — أنـدر سرخـاك يـك بيـك خـواهـد يـافت

☆ ☆ ☆

شـق هـــدب الليـــل هــــذا القمر — فـــاشربن لحظــــة عمر تنــــدر
وطب النفس وثـــــــق أن القمر — فـــوق قبرينــــا طلــوع لن يــــذر

☆ ☆ ☆

آنهـــا كـــه بفكر در معنى سفتنـــــد — در ذات خـــداونـــد، سخنهـــا كَفتنـــد
سر رشتــــهٔ أسرار نــــدانست كسي — أو زنخي زدنـــــد، وآخر خفتنـــــد

☆ ☆ ☆

أولئـــــــك الألى بفكر نظمـــــوا — در معـــاني «الـــذات» حقـــا وهـــوا
لا أحـــــد يــــدرك سر الأحــــد — قـــد حـــاولـوا ونـــامـوا نـوم سرمـدي

☆ ☆ ☆

آغـــاز روان كَشتن إين زرين تـــاش — وأنجـــام خراب چنين نيـــك أســـاس
دانستـــه نمي شـود بمعيـــار عقـــول — ستجيــــده نميشـود بمقيـــاس قيـــاس

☆ ☆ ☆

مبـــدأ دور طستنـــا المــــذهب — ومنتهى خراب راسي الصـــــــــل
ليس عيـــار العقـــل مـــدركا لــــه — ولا يقـــاس بقيـــاس كنهــــه

☆ ☆ ☆

أجرام ســـاكنـــان إين ايـــوانــنــد — أسبـــاب تردد خرد منـــــدانــنـــد
هـــان، تـــاسر رشتــه خرد كَم نكني — كانهـــا كــه مـدبر نــد، سر كَردانـنــد

☆ ☆ ☆

أجرام مـــا يحـويـــه ذا الإيـــوان — للعقــــل في إدراكهـــــا خسران
احـــذر تضيـع الرشــد في أغـوارهـــا — من دبروا لــــــدوارهم أعـــــوان

☆ ☆ ☆

جـز حكمي كـه حكم را شـايـد نيست | حكمي زحكم حـق فـزون آيـد نيست
هرچيز كـه هست، آنچنـان مي بـايـد | آن چيز كـه آنچنـان نمي بـايـد نيست

☆ ☆ ☆

غير الإلـه الحـق ليس بحـاكم | وبغير حكم اللـه ليس بنـاظم
كل الـوجـود تنـاسقت آيـاتـه | وبـدون ذا لا مبتغى للعـالم

☆ ☆ ☆

هنگـام سفيـده دم خروس سحرى | دانـه كـه چرا همي كنـد نـوحـه گرى
يعني، كـه نمودنـد در آيينـهٔ صبح | كـز عمر شبي گـذشت وتـو بي خبرى

☆ ☆ ☆

تعلم لم يصيـح ديـك السحر ؟ | إنـه يعني لفتهم للنظر
إلى مراة الصبـح حتى يعلمـا | أن ذهبت ليلـة عمر نـدمـا

☆ ☆ ☆

إين عقـل كـه در راه سعـادت پـويـد | روزى صـد بـار، خـودترا ميگـويـد
درياب تو اين يكـدمـه فرصت كـه نـه ئي | آن تره كـه بـدرونـد وديگر رويـد

☆ ☆ ☆

ذا العقـل يسعى قـدمـا لسعـده | يقـول دومـا ادرك لصيـده
فـأنت لسيت مثـل ذا الكراث | يحصـد ثم ينمـو بـالمحراث

☆ ☆ ☆

روزى كـه جزاى هر صفت خـواهـد بود | قـدرتـو بقـدر معرفت خـواهـد بـود
در حسن صفت كـوش كـه در روز جـزا | حشر تـو بصـورت صفت خـواهـد بـود

☆ ☆ ☆

يـوم الجـزاء فيـه كل عمـل | يجـزى بمـا يعرفـه ذو العمـل
فـاحرص على حسن الصفـات يـوم ذاك | فـأنت تحشر بمـا لـك هنـاك

☆ ☆ ☆

آن بـه كـه درين زمـانـه كم گيري دوست | بـا أهـل زمـانـه، صحبت أز دور نكـوست
آنكس كه ترا بـه جملـه كي تكيـه بر أوست | چـون چشم خرد بـازكني دشمن تـوست

☆ ☆ ☆

خير بـذا الـزمن أن تقـلا | خـلا وعن صحبـك أن تكـلا
ذاك الـذي إليـه قـد ركنتـا | لربمـا عـاداك إن نظرتـا

☆ ☆ ☆

أزجرم حضيض خـــاك تــا أوج زحـل — كَردم همـــه مشكـلات كَردون راحـل
بيرون جستم زبنـــدهر مكر وحيـل — هر بنـد كَشـاده شـد، مكَر بيـد أجـل

☆ ☆ ☆

من حضيض الترب حتى زحـل — قـد حللنـا مشكل الكـون الجلي
وكسرنـا قيـد مكر وحيـل — غير قيـد واحـد، قيـد الأجـل

☆ ☆ ☆

تـاظن نـه برى كـه أز جهـان مي ترسم — وأز مردن وزرفتن جـان مي ترسم
مردن چـوحقيقتي ست زان بـاكم نيست — چـون نيـك نـزيستم أز آن مي ترسم

☆ ☆ ☆

كي لا تظن أنني أخشى الـدنـا — أو أنني أخشى الممات والفنـا
فـالموت حـق لا أبـالي أن يـزور — إنمـا خـوفي من حيـاة لا تـر

☆ ☆ ☆

كَر من كَنـه روى زمين كرد ستم — عفـو تـو أميـدست كـه كَيرد دستم
كَفتي كـه بـه روز عجـز دستت كَيرم — عـاجـزتر أزين مخـواه كـه أكنـون هستم

☆ ☆ ☆

لـو أنني أذنبت مـلء الأرض — فـالعفـو منـك يـا إلهي فرضي
قلت، أنـا بيـد كل عـاجـز — آخـذ، لا تـذرني أوهى عـاجـز

☆ ☆ ☆

أي واقف أسرار ضمير همـه كس — درحـالت عجـز، دستكَير همـه كس
يـا رب تـو مرا تـوبـه ده وعـذر پـذير — إي تـوبـه ده وعـذر پـذير همـه كس

☆ ☆ ☆

يـا واقفـا على خفـايـا الضمير — فخـذ بيـد كل عـان أسير
وامنـح قبـول تـوبتي يـالـه — يـا قـابـل التـوب، غفـورا قـدير

☆ ☆ ☆

بس خون كسـان كـه چرخ بي بـاك بريخت — بس كَـل كـه بر آمـد زكَـل وپـاك بريخت
بر حسن وشبـاب أي جـوان غره مبـاش — بس غنچـهٔ نـاشكَفتـه برخـاك بريخت

☆ ☆ ☆

لشـد مـا الفلـك دمـا سفكا — وطـالمـا الـورد نمـا ثم اتكا
فـلا يغرنـك الجمـال يـا شبـاب — فرب أكام نثرن في التراب

☆ ☆ ☆

چندین غم مال وحسرت دنیا چیست — هرگز دیدي کسي که جاوید بزیست
این یکدو نفس درتن توعاریت ست — باعاریتي، عاریتي باید زیست

☆ ☆ ☆

إلى متى الحسرة والغم لما — دنيا، رأيت أحدا دام لها ؟
فما أقل نفسا، جسم يعار — عليك أن تعيش عيش مستعار

☆ ☆ ☆

عالم همه محنت ست وأيام غم ست — گردون، همه آفت ست وگیتي ستم ست
في الجمله، چون در كار جهان مي نگرم — آسوده كسي نيست، وگر هست كم ست

☆ ☆ ☆

عالم محنة وغم كله — وفلك والدنيا شركله
إذا نظرت فبدالي الكون — لم ألف ناعما، وإن فهون

☆ ☆ ☆

پاك أز عدم آمديم وناپاك شديم — آسوده درآمديم وغمناك شديم
بوديم زآب ديده در آتش دل — داديم بباد عمر ودر خاك شديم

☆ ☆ ☆

من عدم أتينا طاهرينا — ثم نجسنا بالغموم فينا
كنا من ماء العين في نار القلوب — ثم أضعنا العمر والترب يصوب

☆ ☆ ☆

پيش أز من وتو ليل ونهاري بودست — گرد نده فلك، زبهر كاري بودست
زنهار قدم بخاك آهسته بنه — كان مردمك چشم نگاري بودست

☆ ☆ ☆

من قبلنا كان النهار والليال — وكانت الأفلاك تسري لمجال
حاذر وخفف وطأة التراب — لابد كان مقل الأحباب

☆ ☆ ☆

خوش باش، كه عالم گذران خواهد بود — جان درد، تن، نعره زنان خواهد بود
اين كاسة سرها كه تو بيني، فردا — زير لگد كوزه گران خواهد بود

☆ ☆ ☆

طيبن نفسا دارنا ستنقضي — والروح من أجسامنا ستنتضي
وهذه جماجم أنت ترى — سوف تكون تحت أقدام المضي ؟

☆ ☆ ☆

طوري ست، كه صد هزار موسى ديدست
قصري ست كه صد هزار قيصر بكَذاست

ديري ست، كه صد هزار عيسى ديدست
طاقي ست كه صد هزار كسري ديدست

☆ ☆ ☆

طور رأي مائة ألف موسى
قصر حوى مائة ألف قيصر

دير رأي مائة ألف عيسى
صرح رأي مائة ألف كسري

☆ ☆ ☆

فردا علم نفاق طي خواهم كرد
پيمانهٔ عمر من به هفتاد رسيد

باموى سفيد قصد مي خواهم كرد
اين دم نكنم نشاط كي خواهم كرد

☆ ☆ ☆

غدا سأطوي علم النفاق
قياس عمري بلغ السبعينا

وأقصد الخمر بشيبي الباقي
فإن لم انشط الآن لن أكونا

☆ ☆ ☆

ساقي كَل وسبزه بس طربناك شده ست
مي نوش وكَلي بچين تادر نكَري

درياب كه هفتهٔ دكَر خاك شده ست
كَل خاك شده ست وسبزه خاشاك شده ست

☆ ☆ ☆

طرب الورد مع العشب ياساق
اشرب الخمر ووردا فاقطف

بعد أسبوع يرى تربا ياساق
فترابا وغثاء سيغفي

☆ ☆ ☆

چندين غم بيهوده مخور شاد بزي
چون آخر كار إين جهان نيستي ست

واندر ره بيداد، تو باداد بزي
أنكَار كه نيستي وآزاد بزي

☆ ☆ ☆

طب ولا تغتم فالعيش رهين
فأخيرا عدم هذا المعيش

كن بهذا الحيف للعدل أمين
فافترض أنك معدوم تعش

☆ ☆ ☆

أفتاده مرا بامي ومستي كاري
إي كش هر حرام مستي دادي

خلقم زچه ميكنند ملامت باري
تامن بجهان نديدمي هشياري

☆ ☆ ☆

مع الخمر والسكر شأني وقع
فليت الحرام ينيل السكَر

فلم يمطر الناس لوما مقع
لكي لا أرى صاحيا في البشر

☆ ☆ ☆

زان مي كه حيات جاوداني ست بخور   سرمايهٔ لذت جواني ست بخور
سوزنده چو آتش ست ليكن غم را   سازنده چو آب زندگاني ست بخور

☆ ☆ ☆

احسون تلك حياة الخالدين   راس مال لذة للشاربين
حرقة كالنار لكن للغموم   راحة، ماء حياة الناغبين

☆ ☆ ☆

أز درس وعلوم جمله بگريزي به   وأندر سر زلف دلبر آويزى به
زان پيش كه روزگار خونت ريزد   توخون قنينه در قدح ريزى به

☆ ☆ ☆

خير أن تنجو من علم ودرس   الزمن طرة حب لا يخاس
قبل أن يهرق دهر دمكا   أهرقن دم قناني بطاس

☆ ☆ ☆

زان پيش نشان بودنيها بوده ست   پيوسته قلم زنيك وبد ناسوده ست
در روز أزل هر آنچه بايست بداد   غم خوردن وكوشيدن ما بيهوده ست

☆ ☆ ☆

من قبل ذا سلفت لهم أكوان   وتتابع السؤوما يزدان
ما كان في أزل جرت أقلام   فالغم والسعي سدى صنوان

☆ ☆ ☆

درانده چوتركيب طبايع آراست   باز أزچه فكندش أندركم وكاست
گرنيك آمدن شكستن أز بهرچه بود   ورنيك نيامد اين صور عيب كراست

☆ ☆ ☆

حينما ركب الطباع البديع   لم ذراها في قلة فتضيع
إن أتت وفق حسنها فلما ذا   كسرها أو بغيره، ما الصنيع ؟

☆ ☆ ☆

من ظاهر نيستي وهستي دانم   من باطن هر فراز وپستي دانم
با إين همه أز دانش خود شرمم باد   گر مرتبه ئي وراى مستي دانم

☆ ☆ ☆

أعلم ظاهر الوجود والعدم   أعلم ما فوق وما تحت قدم
ومع ذا فلأستح من علمي   إن ما ورا السكر يكون علمي

☆ ☆ ☆

مي خوردن من نـه أز براى طرب ست   نـه زبهر نشـاط وترك دين وأدب ست
خـواهم كـه بيخـودي برارم نفسي   مي خـوردن ومست بـود زين سببست

☆ ☆ ☆

ليس شربي الخمر من أجـل الطرب   أنتشـيء أو تـرك ديـن وأدب
بـل لتنفيس على نفسي أغيم   فلشربـي ولسكـري ذا السبـب

☆ ☆ ☆

برجـه برجـه زجـامـه خـواب إي سـاقي   درده درده شراب نـاب إي سـاقي
زان پيش كـه أز كاسـهٔ سر كـوزه كننـد   أزكـوزه بـه كاسـه كن شراب إي سـاقي

☆ ☆ ☆

هب هب من فراش النـوم سـاق !   وأنـل ثم أنـل صهبـا يـا سـاق
قبـل صنـع الكـوز من هـامتنـا   اسكب الصهبـاء من كـوز يـاسـاق

☆ ☆ ☆

چون نيست زهر چه هست، جز باد بدست   چون نيست هرچه نيست نقصان وشكست
أنگـار كـه هرچـه هست در عـالم نيست   پنـدار كـه هرچـه نيست در عـالم هست

☆ ☆ ☆

بمـا أن ليس بيـد غير الريـح   فعـدم من كل معـدوم صحيـح
فلتفترض كل وجـود عـدمـا   وكل معـدوم بـه لا عـدمـا

☆ ☆ ☆

يـك دست بمصحفيم ويـك دست بجـام   كَـه مرد حـلاليم وكهي مرد حرام
مـائيم دراين كنبـد فيروز رخـام   نـه كافر مطلـق ونـه مسلمـان تمـام

☆ ☆ ☆

تمسكت يـد بمصحف ويـد   بـالجـام حـل تـارة وأخرى رد
فنحن في قبـة فيروز الرخـام   لا كافرون، لا ولا أهـل سـلام

☆ ☆ ☆

كَـاويست در آسمان ونـامش پروين   يـك كَـاو دكَر نهفتـه در زير زمين
چشم خردت كَشـاي كَرز أهـل يقين   زير وزبر دوكَـاو چنـدين خربين

☆ ☆ ☆

ثـور على السما اسمـه الثريـا   وآخر تحت الثرى خفيـا
فـانظر إن كنت ذا حجى بصير   كم بين ثـورين من الحمير

☆ ☆ ☆

آنان كه در آمـدنـد ودر جوش شـدنـد　　آشفتـه نـاز وطرب ونـوش شـدنـد
خـوردنـد پيـالـه ومـدهـوش شـدنـد　　در خواب عـدم جملـه هم آغـوش شـدنـد

☆ ☆ ☆

أولئـــك الألى أتـــوا تجيشـــوا　　بقصفهم وبـــالـــدلال دهشـــوا
لمـــا احتســـوا صهبـــاءهم تحيروا　　فـــاحتضنـــوا جملتهم وغبروا

☆ ☆ ☆

پيرانـه سرم عشـق تـو در دام كشيـد　　ورنـه زكجـا دست من وجـام نبيـد
آن تـوبه كه عقـل داد جـانـان بشكست　　وآن جـامه كـه صبر دوخت أيـام دريـد

☆ ☆ ☆

صـــادني عشقـــك والرأس اشتعـــل　　كيف لا والجـــام للكف وصـــل
كسر المحبـــوب عقـــل التـــوبـــة　　مـــزقت أيـــامي قمص المرة

☆ ☆ ☆

دوران جهـان بـامي وسـاقي هيـچ ست　　بـازمـزمـة نـاي عراق هيـچ ست
هرچنـــد بر أحـــوال جهـــان مينكرم　　حـاصـل همـه عشرت ست وباقي هيـچ ست

☆ ☆ ☆

لا شيء من دون المـــدام والسقـــا　　ولا بـــدون رنـــة النـــاي بقـــا
فكرت في العـــالم جـــد فكرتي　　فكان حـــاصلي البقـــا بـــالعشرة

☆ ☆ ☆

خيـــام زمـــانـــه أزكسي دار دننـــك　　كـو در غم أيـــام نشينـــد دل تنـــكَ
مي نـوش بـآبكينـه بـا نـالـهٔ چنـكَ　　زان بيش كـه آبكينـه آيـد برسنـــكَ

☆ ☆ ☆

تبرأ الـــزمـــان يـــا خيـــام　　ممن بغمـــه قضت أعـــوام
فـــاشرب بـــابريـق على رن الصنـــاج　　من قبـــل أن يصيبـــه الصـــدام

☆ ☆ ☆

أنـــدازه عمر بيش أز شست منـــه　　هرجـا كـه قـدم نهي بجـز مست منـه
زان پيش كـه كاسـهٔ سرت كـوزه كننـد　　تـوكـوزه أزدوش وكاسـه أزدست منـه

☆ ☆ ☆

لا تظن العمر ستين يـــزيـــد　　دون سكر قـــدمـــا إيـــا تحيـــد
قبـل صنـع الكـون من جمجمتـــك　　لا تضعـــه والكـــؤوس من يـــدك

☆ ☆ ☆

مي نوش كنم وليك مستي نكنم — الا به قدح دراز دستي نكنم
داني غرضم زمي پرستي چه بود — تا همچو تو خويشتن پرستي نكنم

☆ ☆ ☆

أشرب لكنني لست أسكر — إلا بقدح يده لا تقصر
فهل بدا؛ لم عبدت الخمر لكا ؟ — أني لا أعبد نفسي مثلكا

☆ ☆ ☆

أز مي طرب ونشاط ومردي خيزد — وأز طبع كتب خشكَي وسردي خيزد
كَرباده خوري توسرخ روى خواهي بود — أز خوردن سبزه روى زردي خيزد

☆ ☆ ☆

إن الشباب والنشاط والطرب — في الخمر والجمود من طبع الكتب
بحسوك الخمرة وجهك ينور — وأكلك العشب به الصفر يثور

☆ ☆ ☆

إين قافلهٔ عمر عجب ميكَذرد — درياب دمي كه باطرب ميكَذرد
سامي غم فرداي قيامت چه خوري — پيش آر پيالهٔ كه شب ميكَذرد

☆ ☆ ☆

قافلة العمر في سيرها عجب — تنبه اللحظة هذى في طرب
ياساقي لم تهتم للغد العصيب — هات الكؤوس ليلنا وشك المغيب

☆ ☆ ☆

مائيم در أوفتاده چون مرغ بدام — دلخسته روزكَار وآشفته مدام
سركَشته درين دائرهٔ بي درويام — نا آمده برومراد ونارفته به كَام

☆ ☆ ☆

وقعنا مثل طائر في الفخ — مفؤد دهر ومروع ممخ
حياري دائر بلا باب ولا — سطح، أتينا وذهبنا لا ولا

☆ ☆ ☆

تا هشيارم طرب زمن پنهانست — چون مست شوم در خردم نقصانست
حاليست ميان مستي وهشياري — من شادم أز ان كه زندكَاني آنست

☆ ☆ ☆

ما دمت صاحيا يغيب الطرب — وإن شربت فحجاي يذهب
والحال بين سكرة الطرب — بها أسر، فالحياة تخب

☆ ☆ ☆

هر دره كه درروى زميني بودست ... خورشيد رخي زهره جبيني بودست
كَرد أز رخ آستين بآرزم فشان ... كان هم رخ وزلف نازنيني بودست

☆ ☆ ☆

كل ذرات على وجه الثرى ... لحسان أوجها كانت روا
فانفض عثير ردن مهلا ... إنه وجنات حور دابرا

☆ ☆ ☆

مي نوش كه عمر جاوداني إينست ... خود خاصية دور جهاني إنيست
هنكَام كَل ومل است وياران سرمست ... خوش باش دمي كه زندكَاني إينست

☆ ☆ ☆

اشرب الخمر خلود العمر ذى ... ميزة الدنيا أخيرا هي ذى
وقتنبا ورد وخمر وندام ... لحظة اسعد، فإن العيش ذى

☆ ☆ ☆

أز كَردش روزكَار بهري بركَير ... بر تخت طرب نشين بكف صاغز كَير
أز طاعت ومعصيت خدا مستغنيست ... باري تو مراد خود زعالم بركَير

☆ ☆ ☆

خذ نصيبا لك من تلو الليال ... واقتعد عرش سرور من دوال
طاعة مثل عصاة عنها ... غني الرب وخذما نعما

☆ ☆ ☆

إي كَل تو بروى دلربا مياني ... إي مل تو بلعل جانفزا مياني
إي بخت ستيزه كار هردم بامن ... بيكَانه ترى وآشنا مياني

☆ ☆ ☆

ياورد أنت مشبه وجه الحسان ... ياقوتة ياخمر، تبهج الجنان
وأنت يا حظي العثور دائما ... عدوي، تبدو كصديق سلما

☆ ☆ ☆

اي چرخ زكَردش تو خورسند نيم ... آزادم كن كه لايق بند نيم
كَرميل توبا بيخرد ونا أهلست ... من نيز چنان أهل وخرد مند نيم

☆ ☆ ☆

يا فلكا لست رضى بدورك ... حررني لست لائقا بقيدك
إن كان ميلك لحمقى وشرار ... أيضا أنا مثلهم حمقا وشر

☆ ☆ ☆

أز حادثهٔ جهان زاينده مترس   وزهرچه رسد چونيست باينده مترس
اين يكدمه عمر غنيمت ميدان   أز رفته منديش وأز آينده مترس

☆ ☆ ☆

لا تخش من حادث دنيا زائدا   فلا يدوم ضرها إن وردا
وعد غنا لحظة من عمر   دع ماضيا ولا تخف من معتر

☆ ☆ ☆

باباده نشين كه ملك محمود اينست   وزچنك شنو كه لحن داوود اينست
أز آمده ورفته دكّر ياد مكن   حال خوش باش زانكه مقصود اينست

☆ ☆ ☆

مع الخمر فاجلس فمحمود ذا   وللصنج أصغ فداوود ذا
من الآتي والماضي لا تذكرا   وأنعم بحال، فقصدنا ذا

☆ ☆ ☆

كَرمي نخوري طعنه مزن مستانرا   كَردست دهد توبه كنم يزدانرا
تو فخر بدين كني كه من مي نخورم   صد كار كني كه مي غلامست آنرا

☆ ☆ ☆

لا تطعن السكرى إلا تحس الخمور   فلو تمكنت لتبت للغفور
إن قلت فخرا «إنني لا أشرب»   فمائة من الذنوب تركب

☆ ☆ ☆

درمر مكَذار هيج سوداي محال   مي خور همه سال ساغر ما لا مال
بادختر رزنشين وعيشي ميكن   دختر بحرام به زمادر بحلال

☆ ☆ ☆

لا تضع في الرأس حبا لمحالات   أدمن الخمر بكأس مترعات
جالسن بنتا لأعناب حرام   بنت اولى من حلال الأمهات

☆ ☆ ☆

أمروز كه نوبت جواني منست   مي نوش أز آنكه كَامراني منست
عيبش مكنيد أكَرچه تلخشت خوشست   تلخست أز آنكه زندكَاني منست

☆ ☆ ☆

اليوم عهد صبايا   فاشرب حميا منايا
ولا تعبها مريرة   فالمر من محيايا

☆ ☆ ☆

آن جسم پيالـه بين بجان آبستن | همچون سمني بارغوان آبستن
ني ني غلطم كه باده أز غايت لطف | آبيست بآتش روان آبستن

☆ ☆ ☆

انظر إلى كأسنا بالروح حاملة | أو ياسمين بأرجوان حاملة
أخطأت، لا لا، فإن الخمر ألطف من | تين فهي حملت بالنار مائعة

☆ ☆ ☆

در ميكده جز بمي وضو نتوان كرد | وين نام كه زشت شد نكو نتوان كرد
مي ده كه كنون پردهٔ مستورئ ما | بدريده چنان شد كه رفو نتوان كرد

☆ ☆ ☆

في الحان لا وضوء إلا بالرحيق | فسيئ الصيت بحسن لا يليق
عاطنيها الآن حجاب سترنا | مزق مزقا رفوه ليس يطيق

☆ ☆ ☆

تاباز شناختم من إين پاي زدستم | إين چرخ فرو مايه مرا دست ببست
أفسوس كه حساب خواهند نهاد | عمرى كه مرابي مي ومعشوقه كذست

☆ ☆ ☆

فمذ علمت الفرق ما بين يدي | ورجلي غل الفلك النذل يدي
يا أسفا حسابي سوف يحتوي | عمرا مضى بدون عشق وروى

☆ ☆ ☆

چون عهده نميشود كسي فردارا | خوش دار دمي اين دل پرسودارا
مي نوش به مهتاب إي ماه كه ماه | بسيار بتابد ونيابد مرا

☆ ☆ ☆

بما أن ليس أحد ضامن غد | فأفرح مضنى القلب لحظة تعد
ياقمرا فاشرب على ضوء القمر | سوف يضي فلا يرى لنا أثر

☆ ☆ ☆

اي چرخ فلك خرابي أزكينهٔ تست | بيداد كري عادت درينهٔ تست
اي خاك أكر سينهٔ تو بشكافند | بس كوهر قيمتي كه در سينهٔ تست

☆ ☆ ☆

يا فلك الدوار بالحقد خراب | عالمنا والظلم عادة لصاب
لو فتحوا صدرك يادنيا التراب | لوجدوا جواهرا كثرا عراب

☆ ☆ ☆

اين كوزه چو من عـاشـق زاري بـوده است — در بنــــد سر زلف نكَـــاري بــوده است
اين دستــــــه كــــــه در كَردن أو ميبيني — دستيست كــه در كَردن يــاري بـوده است

☆ ☆ ☆

كان هـــــذا الكـــوز مثلي عــــاشقـــا — وبقيــــــــد للحســـــــان علقـــــا
إن هـــــــــــــــذى عروة أنت ترى — مرفقـــــا كان حبيبـــــا احتـــوى

☆ ☆ ☆

برخيز ومخــور غم جهـــان كَــــذران — خــوش بـاش ودمي بـه شــادمــاني كَـذران
در طبــع جهـــان أكَر وفـــايي بــودى — نــوبت بتــوخــود نيــامـــدى أز دكَران

☆ ☆ ☆

انهض ولا تحـــزن على دنيــــا الفنـــا — وطيبن النفس ولا تنس المنــــــــــا
لـــو كان للــــدنيـــا وفــــاء طبـــع — لمــــا انتهت إليـــك بعـــد جمـــع

دَوْرُ الملاحة المغربيّة في البحَار طوال ألف عام

عبد العزيز ابن عبد الله

البحر الأبيض المتوسط عرف أوائل القرن الخامس الميلادي عصر هدوء طوال مائة عام تحت إشراف الجرمان الذين دشنوا ألفية العصور الوسطى عام 378م بإزاء البيزنطيين في الامبراطورية الشرقية والوندال غربي المتوسط غير أن خلفاء جنسيريك أو جيسيريك Geiseric ou Genseric المتوفى عام 477م وهو أول ملك وندالي في إفريقيا انهزموا أمام فورة البرابرة الأشاوس الذين انحدروا من الجبال فزحزحوا المغيرين إلى مدن ساحلية بجانب «افريكا» الرومانية القديمة.

وكان البحر المتوسط منذ ذلك مركز التجارة العالمية احتكرته بيزنطة طوال القرن الخامس وقبله وكانت التوابل والحرائر هي مادة هذه التجارة مع إيران والهند والصين والدينار الذهبي هو عملة التبادل خاصة في القرنين الثاني والثالث غير أن الامبراطورية الشرقية لم تهتم - رغم سيطرتها

الاقتصادية ـ بقوتها البحريـة نظرا لاعتادهـا خـاصـة على طرقهـا وحصونهـا البرية يؤكد ذلك سهولـة انفضـاض الونـدال أواخر القرن الخـامس انطلاقـا من الشمال الافريقي على جزر البليار وسردينية وكورسيكا بل نهبهم لروما عـام 455م وانـدحـار حملتين بحريتين رومـانيتين غير أن هـزيمة الرومـان الشرقيين حـدتهم إلى التفكير في إنشـاء قـوة بحريـة تبلـورت عـام 508م في أسطول عدته مائة سفينـة مسلحـة وخمسـة آلاف بحـار وكان هـذا الأسطول المتواضع قوة عارضة ما لبث نفس الامبراطور وهو انسطـاسيوس أن جـدده عام 516م بقطع قارة عززت بمواد متفجرة أشبه بما عرف بعد ذلـك بـالنـار الاغريقية.

واحتفـظ البيزنطيون بـأسطـولهم الـدائم الحركـة منـذ عصر جستنيـان الأول المتوفى عام 565م فكانت له طوال القرن السابع قواد ودور صناعـة في الاسكندرية والقسطنطينية وقرطـاج وعكا وسرقوسـة والبليـار وحتى سبتـة وكانت في طليعة القطع البحرية السفن الحربية السريعة الخفيفـة الجذافيـة المعروفة بـ (Dromons).

وظـل الأسطـول البيزنطي يجـول ويصـول في البحر المتـوسـط دون منـازع إلى الغزو الإسلامي حيث تعززت السيـادة البحريـة بمحـاولات دعم اقتصادية استهدفت ولو جزئيا استئصـال سيطرة فـارس الاقتصـاديـة بقطع أرباحها من تجارة التوابل والحرير وذلك باستجلاب دودة القز التي انتشرت بفضلها صناعة الحرائر وأقمشة الـديبـاج علاوة على مختلف فنون العمارة وفن الفسيفسـاء في عـديـد من الجـزر والموانئ والحـواضر فكانت القسطنطينيـة خـلال القرنين السـادس والسـابع الميـلاديين أعظم مـدينـة في الشرق بلغت

حضارتها الأوج وسكانها المليون نسمة[1] وغزت تجارتها حواضر العالم تليها قوة مدينة الاسكندرية التي كانت أعظم مدن البحر المتوسط وربما اخترقت مضيق جبل طارق لتصدير القصدير إلى بريطانيا.

☆ ☆ ☆

وقد استهل العرب فتوحهم في البحر الأبيض المتوسط باحتلال الاسكندرية عام 21 هـ / 641م وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ البحر الأبيض المتوسط دفع الفاتح العربي عمرا بن العاص إلى التفكير في البحر كوسيلة للدفاع إذ ما كادت تبزغ سنة 25 هـ / 645م حتى استعادت بيزنطة في حملة بحرية عارمة مدينة الاسكندرية غير أن الجيش الإسلامي تمكن من إجلاء القوات الرومانية وهدم حصون الاسكندرية درءا لكل خطر في المستقبل وكانت هذه وسيلة عابرة موقتة حدت الأمير معاوية إلى تنظيم أول أسطول بحري قام بأول حملة عربية لغزو البحر المتوسط وقد اتجهت قطع هذا الأسطول ـ التي أوصلها مؤرخون عرب إلى 1.700 سفينة ـ عام 28 هـ / 648م إلى جزيرة قبرص البيزنطية كما أغارت على إفريقية التي ثار حاكمها البطريق جريجوري ضد القسطنطينية ونصب نفسه أمبراطورا في حملتين بدأت الأولى عام 27 هـ / 657م والثانية عام 34 هـ /654م ولعل في ذلك العدد من السفن مبالغة لأن البحرية العربية كانت في منطلق نشأتها ولم تكن تتوفر على بحارين نظرا للطابع البري للجزيرة العربية حيث اضطر الخليفة الأموي في دمشق عام 43 هـ / 663م إلى استقدام نوتية فرس لملء بعض ثغور الشام انضاف إليهم عام 49 هـ / 669م

---

1) كتاب جوستينيان (ص 540) لديبهل Diehl المؤرخ الفرنسي المتوفى عام 1944 والمتخصص في تاريخ بيزنطة.

ملاحون عراقيون ومع ذلك بدأ الجانب العربي يتعزز بحريا حيث إن الوالي عمرا بن العاص ما لبث أن أعاد عام 50 هـ / 670م بناء ما حطمه قبل من حصون وقلاع ساحلية في الاسكندرية ـ كما تعزز اقتصاديا لأن عبد الملك بن مروان ضرب لأول مرة الدينار العربي ونقش عليه حروفا عربية مغفلا صورة القياصرة البيزنطيين مما أحنق جوستينيان الثاني (الذي توفى عام 711م) وانتهت انتفاضته ضد دمشق بهزيمة منكرة على حدود آسيا الصغرى وأحرز الأمويون نصرا عظيما في الشمال الإفريقي عام 74 هـ / 693م في حملة ضخمة قوامها أربعون ألف جندي بقيادة حسان بن النعمان ما لبث أن اخضعت عام 76 هـ / 695م قرطاجة التي تفلتت من أيديهم بعد تدخل الكاهنة الجراوية لتعود بعد ثلاث سنوات 79 هـ / 698م) وبموت الكاهنة عام 81 هـ / 700م انقرض الحكم البيزنطي في إفريقيا.

وقد تزايد اهتمام الخليفة الأموي عبد الملك بالأسطول البحري حيث أمر واليه على إفريقية موسى بن نصير ببناء قاعدة بحرية أي دار صناعة ساعده على إنشائها ألف قبطي من بناة السفن بمصر وكان الأسطول العربي قد استولى على جزيرة قوصرة قرب الشاطئ الإفريقي وعلى المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية وقد تبلورت الاستراتيجية البحرية العربية آنذاك في إقامة دار الصناعة بالمكان الأمين الذي قامت فيه حاضرة تونس وذلك بحفر قناة وصلت هذا المكان بالخليج القريب وهجرت قرطاجة آنذاك وقد أنشأ ابن نصير في القاعدة الجديدة مائة سفينة حربية فتعزز الأسطول الأموي عام 85 هـ / 704م بالقطع البحرية الجديدة وأصبح الشمال الإفريقي منطقة بحرية ثالثة عززت المركزين العربيين في مصر وسوريا وقد برهنت السفن الجديدة على فعاليتها حيث أغارت منذ سنتها

الأولى المذكورة على كل من صقلية وسردينية ثم قاد موسى بن نصير شخصيا عام 90 هـ / 708م أسطوله نحو جزر البليار حيث أسر حاكم ميورقة ليظفر بعد سنتين بالاستيلاء على جزيرة سردينية وبذلك استطاع ابن نصير أن يدرأ خطر الأسطول البيزنطي عن الجزر الثلاث وانضم آنذاك إلى العرب الكونت جوليان حاكم سبتة الذي مكن طارقا بن زياد أحد قواد ابن نصير من سفنه الأربع لاجتياز المضيق إلى سفح جبل في الشاطئ الشمالي حمل اسمه بعد ذلك وقد أمد ابن نصير قائده بخمسة آلاف مقاتل ولعله استطاع بناء قاعدة في الشاطئ الإفريقي تنطلق منها جيوشه الزاحفة نحو العدوة الشمالية وبذلك تمكن العرب من «الالتفاف» بين عامي 74 هـ / 693م 99 هـ / 717م حول الجناح الأيمن لقوة البيزنطيين البحرية واختراق مراكز الدفاع البيزنطي في شمال إفريقية «وبذلك يكون الإسلام قد صار كالهلال على ما يقرب من ثلثي شواطئ البحر[2] المتوسط بين نهر الرون وبلاد أرمينية وهنا يجدر أن نقارن بين الأسطول البيزنطي والأسطول العربي ونظامي القوتين إلى أوائل القرن الثامن الميلادي فقد كان أسطول بيزنطة يتألف من مجموعة مركزية وأربعة أساطيل إقليمية ترابط ثلاثة منها شرقي المتوسط وإثنان في غربه[3] والمركز الجامع هو القسطنطينية وكان للأسطول قائد أعلى للاميرالية البحرية يخضع له نائب أميرال وكان لكل منها بحارته ودور صناعته وأحواض بنائه ومعداته البحرية تصدر نفقاتها عن الأقاليم التي ترابط بها.

---

2) كتاب (القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط) - ارشيبا لدبويس - ص 103 (مكتبة النهضة المصرية 1960).

3) يرابطان في صقلية مع أسطول ثالث محتل في إفريقية إلى نهاية القرن السابع يشمل جزر البليار وسردينية وسبتة والمواقع البيزنطية في اسبانيا.

أما البحرية الأموية فمن الصعب تحديد تنظيماتها بنفس الدقة إلا أن المفروض هو وجود ثلاثة أساطيل لكل واحد منها استقلال ذاتي ويرابط في إقليم خاص به (مصر أو سورية أو شمال إفريقيا) بالإضافة إلى وحدة بحرية (في بحر القلزم أو البحر الأحمر) خاضعة للأسطول المصري وانعقد لواء كل أسطول لأمير من أمراء البحر وكان كل أسطول يواجه الأساطيل القريبة منه في آسيا الصغرى أو صقلية أو الأسطول المركزي في القسطنطينية وقد كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للأساطيل(4) الثلاثة التي اشتركت مجتمعة في الحصار الثاني للقسطنطينية إلا أن الأسطولين العربي والبيزنطي امتاز كلاهما بالاستقلال الذاتي في الغرب أمام مراكز دور الصناعة في العصر الأموي فقد كانت في الفسطاط والقلزم هي القواعد الأولية لبناء الأسطول العربي منذ الانطلاقة الأولى في عهد معاوية وكذلك في عكا التي أصبحت أعظم قاعدة في سوريا في حين أقام عبد الملك بن مروان على غرار سلفه معاوية دار صناعة لأول أسطول عربي في إفريقية بعد عام 81 هـ / 700م ومع ذلك فلم يكن للقوة البحرية العربية أثر في دعم الزحف الإسلامي في اسبانيا وجنوب فرنسا رغم تفوق هذه القوة على السفن الفرنجية ومما يدل على مدى سمة الدعوة والتدين في الحركة الإسلامية في البحر المتوسط آنذاك أن العرب لم يستغلوا فتوحاتهم لاكتساح السوق التجارية في البحر المتوسط عدا التخلص من وطأة ضريبة القموح التي كانت تدفعها مصر للقسطنطينية والتي أصبحت تكدس في الاسكندرية لتوجه بدلا من تموين بيزنطة إلى إمداد مكة والمدينة على أن الفاتح العربي بدأ يضع تشريعات بحرية جديدة مغايرة لما فرضه جستنيان في القرن السابع خاصة بصدد

---

4) Bury (Byzantine naval Policy) p. 39

الإيراد والتصدير وأصبح الشمال الإفريقي الثري خير مصدر للذهب وزيت الزيتون والحبوب والخيول والجمال ما بين 76 هـ / 695 و87 هـ / 705م بالإضافة إلى ما كان يصنع فيه آنذاك من طنافس فاخرة وهذا العهد الجديد الذي خلقه العرب في البحار أدى على الأقل إلى إيقاف التجارة الحرة التي كانت منبع شراء بيزنطة لتصبح تجارة حرة لفائدة الجميع فانطلقت بيزنطة مجهدة نفسها في تخريب الاسيسة الاقتصادية في المتوسط وتفكيك الوحدة التي رجع الفضل إليها قديما في ربط أجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض ورغم ما يدعيه بعض المغرضين من مشوهي تاريخ الفتوح العربية فإن البيزنطيين هم الذين كرسوا كل قواهم الحربية المدمرة للانتصار بين 97 هـ / 715م و135 هـ / 752م على الأمويين ولو على حساب رخاء ورغد البحر المتوسط وقد تدهور الوضع في إفريقية الشمالية من جراء ذلك وخاصة بسبب السياسة العنصرية التي نهجها بعض الأمويين في تخميس البربر مما أدى إلى ثورة ميسرة المضغرى حول طنجة عام 122 هـ / 739م وفي نفس السنة تخربت المدن الجنوبية بفرنسا نظرا لتوقف استغلال بيزنطة لتجارة سورية ومصر مما أدى إلى الكساد الاقتصادي الذي عرفته فرنسا الكارولنجية منذ عام 98 هـ / 716م.

ويظهر أن بيزنطة احتفظت بقوة بحرية فعالة في مياه البحرين المتوسط والأسود إلى أوائل القرن الثامن الميلادي لأن القوة البحرية الأندلسية التي تركزت في إمارة سرقسطة كمركز لحماية حدود الأندلس ضد هجمات الكارولنجيين لم تستعمل إلى عام 182 هـ / 798م الا للإغارة على مرسيليا عام 798م وإيطاليا عام 162 هـ / 778م وناربون عام 177 هـ / 793م مما يدل على أن الأسطول الأموي في الأندلس وجه ضرباته

لامبراطورية الفرنجة لا البيزنطيين الذين كانوا في عداء مسلح مع هؤلاء والحقيقة أن القوة النسبية التي ظهرت بها السفن البيزنطية ترجع أيضا إلى ضعف الأسطول السوري الذي لم يستطع إيقاف انفصال عبد الرحمن الأول الأموي عام 139 هـ / 756م عن الخلافة العباسية التي لم تتمكن حملات أسطولها من الوصول إلى الشواطئ الأندلسية وقد مهد ذلك لانبثاق مملكة الأدارسة المستقلة بالمغرب الأقصى عام 172 هـ / 788م ثم الأغلبية عام 185 هـ / 800م وظلت مصر وحدها خاضعة للعباسيين ورغم ما كان للبحرية العربية من قوة غربي المتوسط فإن العواصم الجديدة كفاس وتونس وقرطبة اتسمت ببعدها عن البحر أي عن خطر الأساطيل الفرنجية لأن بيزنطة بدأت تفقد قوتها البحرية منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ولذلك استطاع الأسطول الأندلسي الإغارة منذ عام 182 هـ / 798م على جزر البليار وبعض مدن الساحل الشمالي إلى أن استفحلت مغامرات السفن العربية عام 199 هـ / 814م بوصول ثوار ربض قرطبة[5] الذين استطاعوا فرض سيطرتهم على الاسكندرية مدة اثنى عشر عاما حتى طردهم العباسيون الذين تحركت نخوتهم منذ عام 191 هـ / 806 هـ - بعد عشرين سنة من خمود الأسطول السوري فأغار أسطولهم على (قبرص) ثم في العام التالي على (رودس) مع فرض جزية سنوية أصبحت القسطنطينية تدفعها لبغداد ولعل تدخل أسطول الأغالبة في إفريقية عام 190 هـ / 805م هو الذي أسهم في هزيمة البيزنطيين برا وبحرا لا سيا بعد أن فرض الأغالبة اتفاقية لعشر سنوات مع بطريق صقلية جددت عام 198 هـ / 813م دون أن

5) الأندلسيون الربضيون الذين ثاروا على الأمير الأموي الحكم فنفاهم ونزلوا بالأسكندرية ثم أقاموا في جزيرة كريت التي انتزعوها من البيزنطيين وجعلوا منها وكرا للقرصنة.

يحول ذلك بينهم وبين مهاجمة سردينية في السنة نفسها ـ رغم تعرض مائة سفينة عربية للغرق من جراء العواصف ـ ثم الإغارة على صقلية عام 209 هـ / 820م واحتلال سردينية في السنة التالية وهذا التناسق الذي كان تلقائيا أحيانا ـ بين أساطيل المسلمين في سورية والأندلس والشمال الإفريقي والذي تحدى سلطان بيزنطة هو الذي حدا شرلماني الذي كان يعاني الأمرين من ضغط لبيزنطة والأندلس معا ـ إلى إنشاء أسطول ضخم بلغ ألف سفينة بحرية في قاعدتين إحداهما على ساحل طرطوشة وبرشلونة (التين احتلها شرلماني عام 197 هـ / 812م) والأخرى على طول الساحل الإيطالي مما ساعد الأسطول الجديد على الانتصار قرب جزيرة ميورقة عام 198 هـ / 813م وفي ساحل بونة (بالجزائر) عام 213 هـ / 828م مما أتاح للبيزنطيين أن يتنفسوا الصعداء ولو لفترة قصيرة إلى أن قامت ثورة داخلية صقلية أطاحت بقوة القسطنطينية البحرية بين عامي 206 هـ / 821م و208 هـ / 823م وقد انكشف ذلك عام 212 هـ / 827م عندما أغار الربضيون النازحون عن الاسكندرية على جزيرة (كريت) ونزلوها دون مقاومة وظلوا مثارا للرعب للامبراطورية البيزنطية طوال قرن ونصف قرن.

وفي تلك الأثناء استطاع الأغالبة مهاجمة صقلية أحد مفاتح المتوسط وانتصروا على أسطولها البيزنطي بسفن انطلقت من سوسة بلغت ما بين السبعين والمائة سفينة مجهزة بعدة آلاف من الرجال وبذلك انفتح عهد جديد انهارت فيه قوة بيزنطة البحرية وازدادت السيادة الإسلامية على البحار لا سيا بعد أن تعززت قوة الأغالبة تلقائيا بأسطول الأندلس وهي الدولة الوحيدة في غرب البحر المتوسط التي لم تخضع للسيطرة التجارية

البيزنطية وقد ظل التجار البندقيون يواصلون نشاطهم الاقتصادي بفضل مسالمتهم للمسلمين ومخالفاتهم لاتجاهات السياسة البيزنطية التي حظرت على البندقية ومثيلاتها مثل نابلي الاتجار مع المواني الإسلامية في شمال إفريقيا ومصر وسورية على أن تجار الشمال الإفريقي قاموا بما قام به آنذاك الإيطاليون بالنسبة لأوربا ـ بدور الوساطة بين سورية ومصر من حيث ينقلون السلع المختلفة بحرا لتوزيعها على البلاد الإسلامية في الغرب وبذلك انتقلت ثروة التجارة البحرية إلى أيدي المغاربة وساعد على ذلك تدهور البحرية العباسية حتى في البحر الأحمر الذي كان ممرا لنقل توابل الشرق وقد انهارت هذه التجارة أوائل القرن الثامن الميلادي إذا استثنينا نشاط اليهود الذين كانوا يعبرون برزخ السويس إلى بحر القلزم وعدن ثم بلاد الصين لا سيما وأن القناة التي حفرها عمرو بن العاص بين النيل والبحر الأحمر كانت قد طمرتها الرمال ومن مظاهر ثراء المغرب آنذاك أن الدرهم الفضي ظل عملة الرواج السائدة في الشمال الإفريقي وخاصة في فاس حيث سكت عملة تحمل تاريخ 185 هـ / 801م وتوجد قطعة منها في متحف كاركوف بروسيا. هذا بينما ساد استخدام الدرهم الفضي الذي سكه الأمويون.

وقد سقطت صقلية فعلا في قبضة الأغالبة عام 831م ثم جزيرة قوصرة عام 835م بفضل أسطول إفريقي اشتمل على حراقات وهي سفن تقذف بلهب النفط ضد صمود النار الاغريقية التي كان يستخدمها البيزنطيون وهو سلاح عربي سري جديد مكنهم من المزيد من السيطرة على البحار وحيث بلغت هجماتهم حتى المراكز البيزنطية في كل من البحر الايوني (بين إيطاليا واليونان) والادرياتي وقد احتل مسلمو كريت أو شمال

إفريقية عام 224 هـ / 838م - إقليم (برنديزي) رغم تدخل أسطول بندقي من ستين سفينة كما أقام مسلمون في مدينة باري Bari (على الادرياتيك) عام 228 هـ / 841م دولة إسلامية تماثل دولة بالرم في صقلية استمر وجودها أكثر من ثلاثين عاما اعترفت بغداد لها بالاستقلال والسيادة ولم يستطع حصار لويس الطويل لمدينة باري زحزحة المسلمين عنها عام 850م / 236 هـ وبذلك أصبح بحر الادرياتيك عرضة لغارات الأساطيل العربية ولم ينج من هذه الهجمات البحرية حتى أسطول البندقية كما أنزل المسلمون عام 232 هـ / 846م قوات على سواحل الأراضي البابوية إلى ضواحي روما ذاتها مما حرك القسطنطينية لإرسال أسطول إلى (سرقوسة) عدته ثلاثمائة سفينة فأحرز الأسطول الإسلامي نصرا عظيما في معركة بحرية فقد البيزنطيون فيها مائة سفينة وهي أخطر هزيمة مني بها الأسطول البيزنطي منذ عام 226 هـ / 840م وقد واصل الأسطول الإسلامي فتوحاته فاستولى على جزيرة مالطة عام 257 هـ / 870م وتعزز بذلك نفوذ الأغالبة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية ومع ذلك لم تند حر قوة بيزنطة البحرية بصورة تامة لأنها جددت أسطولها عام 272 هـ / 885م ولم يمنع ذلك السفن الإسلامية من غزو قلورية عام 275 هـ / 888م والحاق هزيمة شنعاء بالبيزنطيين وتحطيم سفنهم عام 282 هـ / 895م فانصاعوا لصلح فقدت القسطنطينية فيه سيادتها الموقوتة على مياه صقلية وغرب إيطاليا حيث أنزل الأغالبة بعد سبع سنوات الضربة القاضية في حملة بحرية عام 290 هـ / 902م سقط مجموع الجزيرة الصقلية في قبضتهم غير أن الصراع بين الأقاليم الإسلامية كان يوقف انتفاضات الأسطول العربي ولو إلى حين فقد استولى الفاطميون على تونس عام 297 هـ / 909م

وأصبحوا سادة القيروان وما لبث مسلمو صقلية أن هبوا ضدهم عـام 301 هـ / 913م فحطموا فرقة بحرية إفريقية قرب المهدية واستمر الحرب سجـالا إلى عـام 305 هـ / 917م حيث سيطر الفـاطميون على الجزيرة بعـد أن قضـوا المدة السـالفة في غارات هوجاء ضموا إثرها مصر إلى نفوذهم ولكن قوة بحرية جديـدة مشتركـة بين بيزنطـة وإيطـاليـا (بزعـامـة نيقولا الصقلي Nicolas (Pincingly) وكذلك قوات من الأملاك البابوية أغـارت على مواقع المسلمين وحررت البلاد الإيطالية بعد نصف قرن من مضايقات السفن الإسلامية لها إلا أن محـاولات هـذا الأسطـول الجـديـد فشلت أمــام سفن أصغر جـزيرة إسـلاميـة في المتـوسـط التي احبطت غـارتين بيزنطيتين قـد جهـزت آخرتها بسبعين سفينـة حربيـة شـاركت فيهـا اليونـان فـأحرز مسلمـو كريت عـام 225 هـ / 839م نصرا باهرا دمروا فيه الأسطول البيزنطي الـذي تجهز بعـد أربع سنـوات في القسطنطينـة 229 هـ / 843م. لإعـادة الكرة من جـديـد فعجز حتى عن الاقلاع من موانيـه طـوال عشر سنـوات إلى عـام 239 هـ / 853م بفضل قوة تجهيزات (كريت) وحنكتها البحرية وظلت القسطنطينية تستعد طوال ربع قرن إلى عام 266 هـ / 829م للاجهاز على هـذه الجزيرة التي أقضت مضـاجعهـا فتحطم هــذه المرة جـزء من الأسطـول الكريتي في خليج (كورنث) Corinthe فتوقف الصراع ربـع قرن آخر إلى عـام 292 هـ / 904م حيث وجهت كريت أقسى ضربــاتهــا على ثــاني حــــاضرة في الامبراطورية البيزنطية هي (سالونيـك) التي استسلمت تحت نيران قـاذفـات اللهب الكريتيـة واقتيـد إثنــان وعشرون ألف أسير من سكانهــا إلى مختلف الأقطـار الإسلاميـة[6] دون أن يثني ذلـك نخوة بيزنطـة التي تحطم أسطولهـا

---

6) القوى البحرية... ارشيبالد ص 224.

مرة أخرى عـام 298 هـ / 910م وظـل التهـديـد الكريتي منصبـا على بحر إيجي والأسطول البيزنطي إلى عـام 311 هـ / 923م وقـد جرؤ قبـل ذلـك على مهـاجمـة إنطـاكيـة سنتي 213 هـ / 828م و227 هـ / 841م فهب العباسيون بأمر المعتصم لتعزيز أسطول كريت والشمال الإفريقي فبنوا عـام 228 هـ / 842م أسطـولا من أربعمائـة قطعـة تحركت إلى بحر إيجي ولكن العواصف الهوجاء تلقفته قرب سواحل آسيا الصغرى فلم تبق منه سوى أربع سفن غير أن الغارات البيزنطية توالت إلى عـام 266 هـ / 879م بـالانتصـار على أهل كريت ثم ما بين 267 هـ / 880 و273 هـ / 886م بهزيمة الأغالبة وأهل صقلية نظرا للصراعات الداخليـة التي صرفت أهل طرسوس (بتركيـة) وسوريـة ومصر بسبب امتـداد النفـوذ الطـولـوني ـ عن أعـدائهم البيزنطيين فكان لاستعادة العبـاسيين سلطتهم بمصر عـام 292 هـ / 904م أكبر الأثر في ظهور قوة بحريـة إسـلاميـة جـديـدة ظلت مـع الأسف إلى عـام 308 هـ / 920م تواجه خطرا إسلاميـا هـذه المرة هو خطر الأسطول الفـاطمي الـذي انهزمت مع ذلك قطعه السبعون وبذلك تـدعمت جزيرة (كريت) إلى أوائل القرن العاشر الميلادي بأسطول مسلمي طرسوس وسوريـة ومصر زاده فعاليـة ظهور عدو جديد لبيزنطة هو الروس أصحاب (كييف) وجنوب روسيـا وهم أسكند ناويون وسويديون قاموا منـذ سنـة 246 هـ / 860م بغـارة واسعـة على القسطنطينيـة استغلـوا هـزيمتهـا النكراء عـام 245 هـ / 859م قرب صقلية على يد أسطول الأغالبـة وأغـاروا ثـانيـة عليهـا بعـد نحو نصف قرن (عام 295 هـ / 907م).

وفي هذه الأثناء بقي الأسطول الأموي قابعا في الأندلس نظرا لعدائـه للعباسيين ومجاملته للبيزنطيين غير أن التقـاعس لم يصل إلى حـد مسـاعـدة

الفرنجة ضد المسلمين لأن الامبراطور (تيوفيل) طلب من عبد الرحمن الثاني منذ 225 هـ / 839م العون ضد مسلمي صقلية وإفريقية فلم يستجب إلا بالمجاملة السلبية.

والواقع أن الأسطول الأندلسي كان متجها إلى عدو آخر ناصب الإسلام العداء غربي أوربا فتركزت قطعه منذ أوائل القرن التاسع الميلادي على طول الساحل الشرقي بين طرطوشة وبلنسية وباقي السواحل الكارولنجية وبدأت غاراتها عام 224 هـ / 838م على مرسيليا إنطلاقا من جزر البليار واتخذت قواعد لها عند مصب الرون في جزيرة كامرج Camargue مما اضطر شارل الأصلع Charles II le Chauve ملك فرنسا وامبراطور الغرب (840م - 877م) - إلى الانصياع بتوقيع صلح مهين عام 250 هـ / 864م فاستكانت هذه المنطقة لبعض الراحة من غارات الأسطول الأموي الذي واصل تجهيزاته بإقامة قواعد عام 275 هـ / 888م على سواحل (بروفانس) وحوض الرون الأدني وهي مناطق قاست المرائر من الغزو الإسلامي طوال 84 سنة مما أدى إلى انتشار النفوذ الإسلامي في جبال الالب والممرات بين فرنسا وإيطاليا إلى البحر المتوسط ومع ذلك فإن الأسطول الأموي ظل ضعيفا لعجزه عن الصمود في وجه غارات الشماليين عام 230 هـ / 844م عندما هاجم أسطول القراصنة الاسكندناويين لشبونة بثمانين سفينة تجاوزت في نهبها وسلبها مدينة اشبيلية الأندلسية إلى حاضرة نكور بالمغرب الأقصى غير أن هؤلاء الشماليين لم يجرؤا على مراسي بني الأغلب القوية ولا حتى بعض المرافئ الأندلسية التي كانت لها أساطيل بحرية بين دانية وطرطوشة ويظهر أن قرطبة الأموية لم تستطع إنشاء أسطول لها إلا في عهد عبد الرحمن الثالث لأن القطع التي استهدفت بها

الاغـارة على جليقيـة المسيحيـة عـام 266 هـ / 879م غرقت بمجرد بلـوغهـا مياه المحيط نظرا لرداءة تجهيزاتها وضعف ملاحيها.

وهكـذا يمكن القـول بـأن البحر المتـوسـط كان أوائـل القرن العـاشر الميلادي موزعا بين مسلمي جزر البليـار غربـا وصقليـة في الوسـط وكريت شرقـا قبـل ظهـور الأسطـول الأمـوي الجـدد وبـالرغم عن انتعـاش أسطـول بيزنطـة الـذي بـدد عـام 941م قـوة بحريـة روسيـة تحركت لمهـاجمـة القسطنطينية بألف سفينة تحت قيادة إيجور Igor أمير كييف فإنه أخفق في حملته عام 338 هـ / 949م ضد كريت التي ظلت في قبضـة المسلمين ومنـذ استقر سلطـان الفـاطميين في صقليـة عـام 305 هـ / 917م انطلقوا يوالون غـاراتهم على قلوريـة وسلي نو ونـابلى التي لم ينجـدهـا سوى الخنوع بـدفـع الجزية للعرب لا سيا بعد أن هاجمها الفاطميون عام 317 هـ / 929م بأربع وأربعين سفينة وأرسلوا عام 324 هـ / 935م أسطولهم ضد كورسيكا وجنوة حيث حرقوا الكثير من السفن ثم حولوا نشاطهم إلى إيطاليا البيزنطيـة قبل عـام 339 هـ / 950م إذ أغـاروا من جـديـد على قلوريـة فلم يعـد السـلام للمنطقة إلا بتجديد الجزية وأصبحت المراسي الإيطاليـة تتخلص من سيـادة بيزنطـة التي عجـزت عن إنقـاذهـا من ضغـط الأسطـول الإسـلامي وكان الرستميون والأدارسة حلفاء للأمويين بالأندلس فاضطر الخليفة الأموي عبـد الرحمن الثالث خوفا من مغبة نوايـا جيرانـه الفـاطميين إلى تشييـد أسطول ضخم استولى عام 319 هـ / 931م على سبتـة وأحرق عـام 333 هـ / 944م معظم سفن قراصنة الشمال في اشبيلية وبالفعل أغار الأسطول الفاطمي عام 343 هـ / 954م انطلاقـا من صقليـة على الأنـدلس فهـاجم المريـة قـاعـدة

الأسطول الأموي الرئيسة فانتقم الأمويون بإرسال سبعين سفينة ضد الشواطئ الإفريقية وبالرغم عن جولات جوهر الصقلي أقدر قواد الفاطميين ضد الجزائر والمغرب الأقصى فإن قوة عبد الرحمن الثالث ظلت مسيطرة على جزر البليار والقواعد الأمامية على طول ساحل فرنسا الجنوبي مهددة قوة الفاطميين في صقلية وشمال إفريقية.

والواقع أن روح القرصنة كانت سائدة آنذاك سواء عند المسلمين أو المسيحيين وكانت أوكارهم في جزر المتوسط وموانيه مستقلة داخليا بتشجيع من السلطات الرسمية التي كانت تشاركهم التمتع بقسط من أسلاب القرصنة مما سيكون له مثيل في بحبوحة القرن السادس عشر الميلادي حيث نهجت (اليزابيث) ملكة انجلترا نفس السياسة وهذا لم يمنع من وجود أساطيل نظامية لدى الأغالبة والفاطميين والأمويين الذي تساوقت تنظيماتهم فكان أمير البحر لدى الأمويين هو المشرف على مائتي سفينة في المرية وبجاية وأحد القادة الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة كما كان قسيم الخليفة في السلطان هذا يحكم البر وذلك يسيطر على البحر وقد كان لكل سفينة قبطان مسؤول عن الأسلحة والمحاربين وكبير للبحارة أو رئيس يتولى إدارة الشرع والمجاذيف وللحملة البحرية قائد من الأمراء أو أصحاب المناصب العليا إذا لم يتول القيادة كبير أمراء البحر بنفسه ويظهر أن نظام الأسطول الإسلامي في الشرق كان شبيها بالنظام البحري غربا فكان كلاهما مجهزا بمركب نفطي مشابه للنار الاغريقية في شكل حراقات قاذفات للهب ترمي سفن الأعداء بمادة سريعة الاشتعال كما وقع عندما أحرق الفاطميون أسطول البحر التيراتي عام 324 هـ / 935م.

ويظهر أن سفن الامبراطورية البيزانطية كانت أكثر ضخامة رغم اضطرارها إلى ملازمة الدفاع دون الهجوم إذ اتضح أن أساطيل بيزنطة كانت تدرب على تجنب ملاقاة العدو إلا في حلات الضرورة القصوى حيث كانت تعتبر سندا فقط للقوات البرية ومع ذلك فقد ظلت القوة البرية لدى المسلمين موازية للقوة البحرية حيث ظلت الحدود بين الطرفين بالأندلس من عام 212 هـ / 827م إلى عام 349 هـ / 960م[8] هي هي دون كبير تغيير إلا أن القوات البحرية الأموية تدخلت عندما حاول القشتاليون توسيع حدودهم صوب الجنوب وحتى بالنسبة لبيزنطة كان الخطر البري يأتي من جهة البلغار والقبائل الأسيوية الرحالة.

وفي هذا العام (960م) كان الأسطول البيزنطي الذي هاجم جزيرة كريت يضم ألفي سفينة حربية (1360 للسفن والامداد) ومنها ما كان به 250 مجدفا في أربعة صفوف من المجاديف ومنها سفن كانت صالحة لانزال الجنود مع القدرة على الرسو بالشاطئ بفضل زلاقات تعبر من فوقها إلىالبر وقد حدا هذا الخليفة العزيز الفاطمي إلى بناء أسطول حربي من ستمائة قطعة في مثل هذه الضخامة بدار صناعة جديدة بالمقس عام 995م وقد وصف لنا ناصرى خسرو الرحالة الفارسي في القرن الحادي عشر إحدى هذه السفن بأنها تبلغ 275 قدما طولا و110 أقدام عرضا إلا أن مؤامرات بيزنطية خربت دار صناعة المقس عام 995م بواسطة عملاء من التجار اليونانيين الذين ألقي عليهم القبض آنذاك وأعدموا واستمر بناء الأسطول

---

8) راجع كتاب الخطط الحربية Tactita (ليو ص 989).

بعد ذلك إلا أن الظاهرة المزعجة في خصوص تطور الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط ـ رغم توفره على العدة الكافية من الأخشاب والحديد لبناء السفن ـ هي انعدام وحدة بحرية شاملة تضم أشتات أساطيل الدول الإسلامية المحيطة بالبحر فكان للوسط أسطوله في صقلية وللغرب قوته في الأندلس ولشرقه أسطول أضخم في كريت وسورية ومصر توحدت قطعه في عهد الطولونيين والاخشيديين إلا أن الاصطدام بين هذه القوات البحرية الثلاث لم يقع إلا أوائل القرن العاشر بظهور الفاطميين الذين وجهوا ضرباتهم للمصريين والأندلسيين معا من عام 302 هـ / 914م إلى 339 هـ / 950م فكان من مظاهرها وجود ثلاث خلافات إسلامية بقرطبة والمهدية وبغداد[9] ومع ذلك فإن سيادة الأسطول الإسلامي كان لها كبير الأثر على إنعاش التجارة الدولية بين شقي البحر المتوسط الشرقي والغربي لا سيا بعدما تم تصنيع الأندلس وإفريقيا الشمالية بالإضافة إلى امتداد الزراعة من خلال انتشار نباتات المناطق الحارة كالليمون والبرتقال والأرز وتوت دود القز وقصب السكر ففرض الغرب الإسلامي سياسته الاقتصادية في المتوسط بتوسيع تداول الذهب مظهر رخائه وثرائه ـ في شكل الدينار الذي أصبح عام 950م نقدا دوليا بينما كان مقتصرا حوالي 184 هـ / 800م على شمال إفريقية وسورية ومصر وقد سك عبد الرحمن الثالث منذ أوائل القرن العاشر الميلادي دينارا أندلسيا على قاعدة الذهب لا الفضة واستمر ذلك بالمغربي الأقصى وحتى في صحرائه الممتدة إلى حدود السنغال من عهد المرابطين[10] إلى القرن الماضي وقد أحدث هذا التطور تغييرات جذرية في

---

9) القوى البحرية... ارشيبالد ص 252.

10) حيث بلغ 3,960 غرام من الذهب ثم ارتفع أيام الموحدين إلى قيمته في صدر الإسلام وهي ما بين 4,729 و4,25 غرام.

اقتصاديات المتوسط وازنت بين التصنيع والتنقيبات المنجمية والزراعة وهنا ظهر عنصر جديد كان له أثره في المساس بميزان القوى في المتوسط ففي الوقت الذي كان المسلمون يغيرون على إيطاليا حيث هاجموا مدينة بيزة عام 395 هـ / 1004م انطلاقا من الشواطئ الإفريقية ومن الأندلس معا - مواصلين هجماتهم على طول الشواطئ الإيطالية - ظهر النورمان لأول مرة فأحدق الخطر بصقلية الإسلامية وعاصمتها (بالرم) فاستنجدت ببني زيرى حكام المهدية[11] الذين سارعوا إلى تقديم العون وكان المعز بن باديس قد بنى أسطولا فسارع حوالي 418 هـ / 1027م إلى إرسال أربعمائة سفينة لنصرة أهل صقلية قضت على معظمها عواصف عاتية قرب جزيرة قوصرة وأنقذت صقلية أحداث أخرى مكنتها من مواصلة الصراع بجنب شمال إفريقية حتى أصبحت شواطئ اليونان عام 424 هـ / 1032م هدف البحرية الإسلامية ولكن أسطولا بيزنطيا استطاع عام 421 هـ / 1035م أن يقضي على الأسطول الإسلامي في شواطئ ليسيا Lycia (من آسيا الصغرى) فجنحت صقلية للسلم بسبب خلافاتها الداخلية بين العرب والبربر واعترف أميرها بسيادة القسطنطينية التي اكتسحتها مع ذلك عام 430 هـ / 1038م غير أن البيزنطيين مالبثوا أن انهاروا عام 434 هـ / 1042م فتدهورت قوتهم البرية والبحرية وفقد الأسطول الفاطمي في نفس الوقت الكثير من مقوماته وكان النورمان من طوائف غرب أوربا التي شاركت في غزو صقلية عام 430 هـ / 1038م كما شاركت عام 409 هـ / 1018م مع القراصنة الفرنسيين في المحاربة بجانب أمير برشلونة ضد مجاهد بن يوسف

---

11) كانت لهم دار صناعة بالمهدية مكنتهم من بناء مائتي سفينة دفعة واحدة في المرة الأولى منذ عام 407 هـ / 1016م.

العامري فتبلور في ذلك كله الاتساع الأوربي الغربي جنوبا نحو البحر المتوسط وكان العامري هذا أحد ملوك الطوائف الذين ورثوا عرش الأمويين فأعد انطلاقا من حاضرته في دانية أسطولا قويا ضم به جزر البليار إلى أملاكه عام 405 هـ / 1014م ثم هاجم عام 406 هـ / 1015م سردينية على رأس مائة وعشرين سفينة وظل هذا الأسطول يهدد شواطئ المسيحيين حيث أغار على إقليم برشلونة عام 409 هـ / 1034م وتساوق ظهور النورمان مع الانتعاش المفاجئ للقوة البحرية في كل من بيزة وجنوة وكامل ساحل إيطاليا الشمالي الغربي فطردتا العامريين من سردينية عام 407 هـ / 1016م بل تجرأتا 426 هـ / 1034م على مهاجمة (بونة) الجزائرية وقد استطاعت (بروفانس) في نطاق بحرية أوربا الغربية أن تطرد المسلمين من ربوعها ولم يستهل عام 435 هـ / 1043م حتى أصبح هؤلاء البحارة الإيطاليون أصحاب القوة الداهمة في مياه هذا البحر الذي ظهر في منتصف القرن الحادي عشر بمظهر جديد كان أقل مجاليه استيلاء بيزنطة على كريت وقبرص وشمال سوريا وانحصرت الطريق البحرية بين بلاد الغرب والشرق الإسلامي في سبل وعرة على طول الشاطئ الإفريقي بين سوسة والاسكندرية وذلك نظرا لانهيار كريت حامية شواطئ مصر وقبرص حامية السواحل السورية وهذا التقدم الذي طرأ على المجال الملاحي في القرن الحادي عشر الميلادي يرجع في الحقيقة إلى طروء تغييرات جذرية في مجتمعات أوربا الغربية في نفس الوقت الذي طرأ انحلال خطير على المسلمين شرقا وغربا خاصة بعدما تقاعست الارستقراطية العربية عن الجهاد بالأندلس تاركة الحبل على الغارب لمرتزقة مسيحيين مغامرين وقد تبلور هذا التطور الذي تدرج نحو نصف قرن إلى انتصار أساطيل غرب أوربا

الإيطالية على قوتي المسلمين والبيزنطيين البحريتين وأصبح الأوربيون عام 494 هـ / 1100م سادة كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية في فلسطين وسورية بالإضافة إلى سيطرتهم على طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب.

وزاد الطين بلة اكتساح بني هلال وبني سليم لمصر وتونس عام 444 هـ / 1052م فانهار بنو زيرى وتبعهم الحماديون في قلعتهم (قلعة بني حماد) وتجمع المهاجرون من اشتات الدولتين في منطقة التلال (منطقة القبائل الصغرى) وعقد صاحب المهدية معاهدة حلف وصداقة مع روجير عام 468 هـ / 1075م كما انتكس الشرق في سورية ومصر حيث ثارت عام 452 هـ / 1060م جيوش العبيد والمرتزقة موالي الفاطميين والغريب أن المرابطين تحركوا في نفس السنة وحاولوا توحيد الراية الإسلامية عام 479 هـ / 1086م إلى بجاية وكانت قوة بيزة قد هاجمت في العام التالي 480 هـ / 1087م بأربعمائة سفينة مدينة المهدية معقل الزيريين على ساحل تونس واستطاع ملك قشتالة أن يحتل طليطلة عام 478 هـ / 1085م وأجبر المعتمد بن عباد أمير اشبيلية على الانصياع وأسهمت المدن الإيطالية في هذا الزحف الصليبي على الأندلس كما شاركت قوة النورمان التي انطلقت تدعم عدتها الحربية منذ أن استولى على زعامتها روبرت جسكارد عام 435 هـ / 1043م فاعترف البابا بمركزه كامبر تابع للبابوية وظهر أخوه روجر في جنوب إيطاليا حيث كان يشرف على كتائب نورماندية فاستطاع بست وخمسين سفينة احتلال مدينة بلرم عاصمة المسلمين بصقلية ثم استولى عام 480 هـ / 1087م على سرقوسة وأكمل احتلال الجزيرة بعد ثلاثين سنة من الغزوات الموصولة اعقبها عام 483 هـ /

1090م بالاستيلاء على مالطة رغم معارضة السفن البندقية له فتفاعل كل ذلك لخلق ما سمي بالحرب الصليبية الأولى حيث خرجت عام 490 هـ / 1096م من غرب أوربا أشتات من البشر يقودها بطرس الناسك والتر المفلس حيث وصلت إلى القسطنطينية كقوات اقطاعية تستهدف الغنائم في مسارها وكان أسطول جنوة والبندقية هو الذي أعان الجيوش الصليبية عام 494 هـ / 1100م على الاستيلاء على (يافا) دون أن يستطيع أسطول الفاطميين الوصول إلى المياه السورية لصد الصلبيين الذين بادر الأسطول المرابطي إلى مطاردتهم شرقي البحر المتوسط إلى سواحل الشام[12] والواقع أن القطع البحرية التي أنشأها يوسف بن تاشفين قد خاضت غمار المتوسط في شقيه وانبرى الزعيم المرابطي قبل الحرب الصليبية الأولى لتحرير إمارات الطوائف فاحرز في معركة الزلاقة عام 479 هـ / 1086م ضد الفونس السادس ملك قشتالة (1065 ـ 1109م) نصرا تردد صداه في الشرق والغرب وذاع صيت القائد الظافر الذي لقب منذ ذلك بأمير المسلمين مع استمرار دعوته لدار الخلافة العباسية تركيزا للوحدة الكبرى وتكونت امبراطورية واسعة ضمت الصحراء والمغارب الأربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى) والأندلس تحت الحكم المرابطي ثلاثة أرباع قرن (إلى عام 537 هـ / 1142م وقد خلدت أغنية رولان (Roland) نشاط المرابطين في البحار.

وقد اقترن ظهور الموحدين بتزايد هجرة فلاسفة وعلماء الأندلس أمثال ابن رشد الذي يعتبر أول من تحدث عن العالم الجديد وراء بحر الظلمات على أن صلة العرب عموما والمغاربة خصوصا بالقارة الأمريكية ليست وليدة الكشف فى آخر القرن الخامس عشر الميلادي عما يسمى بالقارة

12) تحدث بذلك الفونسو السابع (راجع دوزى ـ تاريخ الإسلام).

الجديدة بل هي عريقة في التاريخ تمتد جذورها إلى ما قبل الميلاد فقد انتقل الفينيقيون الكنعانيون العرب من الشمال الإفريقي بعد هدم القائد الروماني (سيبيون) لمدينة «قرطاج» عام 146 ق.م. إلى مناطق من المحيط الاطلنطيقي أدى بهم التطواف حولها طوال ثلاث سنوات للوصول إلى أمريكا الجنوبية حيث أسسوا مراكز تجارية تشهد الحفريات بوجودها بعد هذا التاريخ بقليل، ويتجلى ذلك بصورة واضحة من الرخامة التي كشفها الدكتور البرازيلي السيد (الاديزلونيتو)[13] وهي تحمل تاريخ 125 ق.م.

13) ضمنها الجزء الأول من كتابه (الانطروبولوجية راجع أيضا مجلة «تقويم المنصور» للأستاذ توفيق المدني (عدد 1343 هـ) حيث نشر صورة للرخامة وبحثا حول كشف الفينيقيين للبرازيل، وكتابا حول وصول الفينيقيين إلى (كولومبيا) لإبراهيم هاجر صدر بالاسبانية في (بونس - إيريس) بالأرجنتين (مجلة المعرفة عدد 10 دمشق).
وذكر ابن الوردي في جغرافيته أنه يوجد وراء الجزر الخالدات جزائر عظيمة وصفها وصفا ينطبق على وصف بلاد أمريكا. وابن الوردي عاش في القرن الرابع عشر أي قبل كولمب بأكثر من مائة سنة (عبد القادر المغربي - محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ج 2 ص 33) وقد لاحظ أن ابن عربي ذكر أن وراء المحيط الاطلنطيقي امما من بني آدم وعمرانا وقد عاش قبل كولمب بثلاثة قرون (ص 233). وتحدث صاحب (مسالك الأبصار) نقلا عن شيخه الاصفهاني قبل كولمب بمائة وخمسين سنة عن احتمال وجود أرض وراء المحيط وقد توفي الاصفهاني عام 749 هـ - 1348م.

a) – American A.C. by Prof. Batty Tell (1977).
b) – The cam Befor Colombus : Africans in the New Wold by prof. Ivan Van Sertima (1977). Rutgers University prof. Tell – Harvard University
c) – Africa and the Discovery of America (3 volumes) by prof. lea Viner or Welner (1923).
d) – Cauvet, les Berbères en Amérique, Alger 1930.

وهل يرجع إسم (برازيل) إلى إسم القبيلة البربرية المسيلية بني برزل أول البرازلة الذين هاجروا من الجزائر في القرن العاشر الميلادي إلى الأندلس ومنه أيام ملوك الطوائف إلى أمريكا - وذكر توفيق المدني أول من اكتشف أمريكا (أضواء على التاريخ الإسلامي في الجزائر - محاضرة نادي المؤتمر الإسلامي - القاهرة 1959 - المدخل إلى الإسلام للدكتور محمد حميد الله ص 195 ط باريس 1963).

أي بعد احتلال الرومان لقرطاج عقب نزوح الفينيقيين عنها بنحو العشرين سنة وهي مكتوبة باللغة البونية حيث توجد عشرات «الالفاظ والتراكيب مفرغة في قالب عربي مع تحريف لا يخفى حتى على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق[13]، ومعلوم أن اللغة البونية تركزت في المنطقة في اعقاب انتشار الحضارة الفينيقية انطلاقا من مدينة «قرطاج» على طول ساحل الشمال الإفريقي غربي البحر الأبيض المتوسط[14] وقد بدأت البونية تختلف تدريجيا عن الفينيقية الكنعانية تحت تأثير اللهجات المحلية أي البربرية التي تأثرت هي الأخرى بهجرة أهل اليمن من (حمير) في فترات متوالية خاصة بين مصامدة الأطلس الكبير وصنهاجة الأطلس الأوسط وكتامة السهول[15].

وقد بدأت اللغة البونية تتوغل بعمق في ربوع المغرب الأقصى حوالي 480 ق.م. بعدما تسربت فلولها منذ عام 1101 ق.م. وهو تاريخ تأسيس

---

14) ففي الفقرة الأولى جملة حررت بالبونية هي : «هنا احنا بني كنعان فرنم حقره حمل «يمكن نقلها إلى عامية الشمال الإفريقي كما يلي : «هنا احنا بني كنعان من فرانم حملنا الحقرة» ومعناها بالفصحي : «هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار «وما زالت العامية المغربية تستعمل إلى الآن كلمة (حقرة) بمعنى احتقار وكلمة (احنا) بمعنى نحن وكذلك في أقطار عربية أخرى كالعراق.

15) أوصل صديقنا المرحوم العلامة محمد المختار السوسي الألفاظ البربرية العربية الأصل إلى أزيد من خمسة آلاف في دراسة مقارنة ما زالت مخطوطة وهي في معظمها كلمات ظاهرة المصدر العربي الجاهلي تندرج في ضروريات الحياة البدائية وتعتبر من أبرز مقومات اللغة في المجتمعات البشرية الناشئة كان البرابرة يستعملونها منذ أعرق العصور في مخاطباتهم اليومية (راجع كتابنا «تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث» ـ ط. القاهرة 1969 ص 26).

مدينة (ليكسوس الفينيقية)[16] وظلت البونية متغلغلة في البادية المغربية حسب تأكيدات الأسقف الإفريقي (سان ـ أجسطين) إلى عهد الفتح الإسلامي في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضارة اللاتينية التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلثا تمتد أضلاعه من طنجة إلى وليلي إلى شالة مع سلسلة من المدن الرومانية على طول شاطئ المحيط[17] وقد أعاد التاريخ نفسه فكان (ابن رشد) الطبيب الفيلسوف (المتوفى عام 595 هـ / 1199م) أول من تحدث عن القارة الجديدة في (بلاط الموحدين) بمراكش ومنه انطلقت فكرة وجود أرض يابسة وراء المحيط. وقد اعترف (كريسطوف كولومب) نفسه[18] بأنه لم يشعر بهذا الوجود إلا بعد قراءة

---

16) تقع قرب «العرائش» وهي التي بنيت على إنقاضها مدينة (تشمس) الإسلامية (راجع كتابنا «الفن المغربي» باللغتين العربية والفرنسية).

17) انكر ابن خلدون نقلا عن (ابن حزم) عروبة هذه القبائل رغم إجماع نسابة العرب على ذلك مستندا إلى أن مؤرخي مصر لم يشيروا إلى مرور الحميريين من (دلتا) النيل وهي دعوى واهية، لأن المرور كان من الصحراء الجنوبية عن طريق (بحر القلزم) وهو ممر أقرب إلى المغرب وكان مطروقا إلى القرن الثالث الهجري حسب (ابن خرداذبه) ثم القرن العاشر حسب (الحسن بن محمد الوزان) (المعروف بليون الافريقي) الذي رافق إحدى القوافل في هذه الطريق ومظاهر الشبه والوحدة القائمة اليوم بين اليمن والمغرب تشهد بصحة ذلك خاصة في ميدان الموسيقى والرقص والهندسة المعمارية واللهجة وقد وردت على المغرب من (عمان) فرقة فلكلورية لهجتها قريبة جدا من (تشلحيت) وقد نشر المؤرخ الألماني كتابا بعنوان : «البلاد بدون ظل»، Helfrit (Pays sans ombre).
أبرز فيه مجالي هذه الوحدة.

18) عاشت الجالية الرومانية ضمن هذه المدن في قفص مقفل بعيدة عن المجتمع البربري المحيط بها وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون غربيون دهشوا أمام هذا التجاوب العميق بين الفينيقيين والمغاربة مما مهد للفتح الإسلامي بانتشار «لغة قريبة من العربية» قبل الميلاد بقرون

كتاب (الكليات) في الطب لابن رشد «في مخطوطته اللاتينية» على أن مجلة «نيوزويك» الامريكية[19] قد أكدت أن العرب انطلقوا قبل عام 1100م (أي عام 494 هـ أي قبل (كريسطوف كولومب) بأربعة قرون من «أنفا» (أي الدار البيضاء الحالية) فرسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي.

وقد حدثنا الشريف الإدريسي في نزهته عن «الفتية المغررين» الذين غامروا انطلاقا من «مرسى آسفي» في ثبج المحيط ووصلوا إلى بعض الجزر النائية كل ذلك انسياقا مع ما أشيع آنذاك خاصة بالأندلس من احتواء غرب «المحيط الإطلنطيكي» على جزر مكثفة تستحيل في نهاية المطاف إلى أرض يابسة شاسعة.

والواقع أن الموحدين الذين انطلقوا من الأطلس الكبير بالمغرب الأقصى لتوحيد المغرب العربي هم الذين واصلوا حمل مشعل الإسلام في البحر المتوسط حيث ظل العرب وحدهم سادته[20] طوال أكثر من قرنين وقد لخص ابن خلدون هذه الظاهرة بقوله : «وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر (أي الرومي) وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام

= وذلك خلافا لما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته (ج 1 ص 53) من أنه «لا عربية في المغرب قبل الإسلام اتفاقا» فكلمة «قرطاج» مثلا أصلها (قربة حداش) (صحفت إلى قرتاش بتعطيش الجيم) ومعناها القرية الحديثة بالنسبة لأول مدينة فينيقية أسست في المنطقة وهي عتيقة Utique في نفس العام الذي أسست فيه مدينة «ليكسوس» المغربية وكذلك «حنبعل أصله حن (من الحنين) وبعل أي نعمة أي نعمة الله وكان إسم أبيه هو «هاملكار» أي حامي القرية وهو الذي حارب الرومان في صقلية.

19) أكد ذلك رونان Renan في كتابه : Averroïs et l'Averroïsme Paris, 1923

20) في (عدد أبريل 1960)..

إلى أن انقطع ولم يعتنـوا بشيء من أمره لهـذا العهـد بعـد أن كان لهم بـه في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحـد كما هو معروف في أخبـارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بـإفريقيـة والمغرب فصـارت مختصـة بها وكان الجانب العربي من هـذا البحر لهـذا العهـد موفور الأسـاطيل ثـابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قواد الأسطول بـه لعهـد لمتونـة بني ميمون[21] رؤسـاء جزيرة قـادس ومن أيـديهم أخـذهـا عبـد المومن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عـدد أسـاطيلهم إلى المـائـة من بلاد العـدوتين جميعـا، ولمـا استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسـة وملكوا العـدوتين أقـاموا خطـة هذا الأسطول على أتم مـا عرف وأعظم مـا عهـد وكان قـائـد أسطولهم أحمـد الصقلي... إلى أن قـال : «وانتهت أسـاطيـل المسلمين على عهـده في الكثرة والاستجادة إلى مالم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه...» وهنا أشار إلى أن صلاح الدين الأيوبي ملك مصر والشام تتابعت في عهده أساطيل النصـارى ضد ثغور الشام لم تقاومهم أسـاطيل الاسكـنـدريـة فـأوفـد الأيوبي ليعقوب المنصور عبد الكريم ابن منقذ (من بيت بني منقذ ملوك شيزر الخ).

نعم استطـاع عبـد المـومن بقطـع بحريـة بلغت الأربعمائـة[22] تخليص إفريقية من النورمانديين والضرب على أيدي الهلاليين والسلميين بعد أن بنى أعظم قاعدة استراتيجية في المتوسط هي قاعدة جبل طارق في سنة الأخماس (555 هـ / 1160م) وقـد رابطت منهـا في مرسى المعمـورة بحلـق البحر على

21) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـ الطبعة الفرنسية ص 284.

22) ذكر ابن خلدون في تـاريخـه (ج 6 ص 161) أحمـد بن ميمون قـائـد أسطول المرابطين عـام 416 هـ الذي غزا صقلية وكذلك محمد بن ميمون.

وادي سبو قرب سلا وحدها مائة وعشرون قطعة وقد جعل أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن من هذا الأسطول أعظم أسطول في المتوسط[23].

وقد ازدهرت حضارة جديدة في البحر المتوسط من الأندلس إلى ليبيا إلى الصحراء بزعامة يعقوب المنصور منذ ظفره على الصليبية المتكتلة في وقعة الأرك (591 هـ / 1195م) أي بعد وقعة حطين بنحو عقدين من السنين وشعر البابا اينوسان الثالث (عام 1198 ـ 1217م) بالخطر الداهم فتكاتفت البابوية مع ملك قشتالة الفونس الثامن (1158 ـ 1264م) وأسقف طليطلة رودريك جيمنيز للكر من جديد على الإسلام المتوثب في وقعة العقاب (609 هـ / 1212م) التي كانت هزيمة شنعاء ضعضعت مقومات الامبراطورية الموحدية في الغرب في نفس الوقت الذي بدأ المسيحيون يندحرون في مصر خلال الحرب الصليبية الخامسة (616 هـ / 1219م) حيث طردوا نهائيا من الأماكن المقدسة بعد معركة غزة 642 هـ / 1244م واتجه المرينيون يلمون الشمل معيدين للبلاد وحدتها في حدودها الإفريقية مع الحفاظ على جانب من الأسطول مكنهم من الجواز مرارا إلى الأندلس لإنقاذ الدولة النصرية (دولة بني الأحمر) التي ضيق عليها الخناق الفونس العاشر.

وفي عام 684 هـ / 1285م نزل السلطان يعقوب المنصور المريني في الجزيرة الخضراء بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بازائها فبرزت الأساطيل وكان عدد قطعها آنذاك ستا وثلاثين متكاملة في عدتها ـ وهو

---

23) ابن أبي زرع (القرطاس ج 2 ص 164 / الاستقصا ج 1 ص 158 وج 2 ص 128.

جالس بمشور قصره فلعبت بمرأى منه في البحر وتجاولت وتناطحت وتطاردت كفعلها مع العدو في ساحة الحرب[24].

وظلت سبتة منطلق الإنقاذ إذ عندما حدث الخلاف بين يعقوب المنصور المريني وابن الأحمر عام 678 هـ / 1279م تجمعت بمرفأ سبتة أساطيل منها خمس وأربعون قطعة لأبي حاتم العزفي واثنتا عشرة لابن الأحمر انطلقت من المنكب والمرية ومالقة وخمس عشرة قدمت من بادس وسلا وأنفا التحمت مع أربعمائة قطعة للعدو فملكتها وأسرت قائدها (الملند) الذي نقل أسيرا إلى فاس[25] وكان أبو الحسن بن كاشة قائد البحر بسبتة عام 709 هـ / 1309م أيام استيلاء بني الأحمر على المدينة وعندما عاد أبو الحسن المريني عام 750 هـ / 1349م من تونس بعد مقام طال عاما ونصف عام وبعد أن عقد لابنه أبي الفضل نزل أسطوله بمرسى بجاية بعد خمس ليال من اقلاعه من تونس ثم أبحر من جديد فتكسرت أجفانه وقذف الموج بالسلطان على حجر قرب الساحل من بلاد (زواوة) حيث تداركه جفن من بقية الأساطيل وكانت الأساطيل (حسب نفح الطيب) نحو الستمائة غرقت كلها وهلك من أعلام المغرب نحو أربعمائة عالم منهم (محمد بن سليمان السطي) شارح (الحوفي) و(محمد بن الصباغ المكناسي) وأبو العباس (الزواوي) وقد ذكر الأبي في شرح مسلم عند كلامه على أحاديث العين أن مصاب هذا الأسطول بنظرة عائن كان معروفا بتلك الديار[26] وكان ابن

---

24) اندري جوليان - تاريخ إفريقيا الشمالية ص 412.

25) (الاستقصا ج 2 ص 30).

26) (الاستقصا ج 2 ص 25).

فرحون زيد هو قائد أسطول بجاية أيام الحفصيين وقد شارك[27] بست عشرة قطعة بحرية في (وقعة طريف) عام 740 هـ / 1339م.

أما الأسطول المريني فقد ورد وصفه في رحلة أبي عنان المريني المسماة (فيض العباب) لإبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج مع ذكر أسماء بعض رؤسائه وشاراته وأعلامها وموسيقاهم، أما الأسطول السعدي فلم يكن له دور كبير في الحروب ولكنه استفاد ماديا من هجمات القراصنة على شواطئ الأندلس وكان وجوده يشكل وسيلة ضغط على إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تذكران ما قام به الأسطول في عهود المرابطين والموحدين والمرينيين وكان قد مر قرنان اثنان على انهيار الأسطول المريني في عهد أبي الحسن فكانت المحاولة الجديدة عام 956 هـ / 1549م جديرة بإثارة الانتباه وقد أصبح القراصنة يعيشون في البحار وفي مراسي المغرب فرابط القرصان من أتراك الجزائر في العرائش حيث امتدت أوكار قرصانية في موانيء أخرى كتطوان وبادس بل ان القرن الخامس عشر شهد استيلاء البرتغاليين على معظم المراسي في مصبات الأنهار المغربية الأمر الذي حال دون قيام أسطول مغربي وقد بدأ ذلك باحتلال سبتة عام 818 هـ / 1415م فلهذا حاول محمد الشيخ السعدي تكوين أسطول بحري بالإضافة إلى وحدات كانت في ملك رؤساء تطوان وبادس فقام ورش بحري في بادس بالريف قرب غابات البلوط والأرز والصنوبر وورش آخر في سلا وقد بنيت أربعة مراكب في بادس وأربعة أخرى في سلا عام 956 هـ / 1549م بالإضافة إلى مركبين مجدافيين أو شراعيين وثلاثة مراكب مجدافية وطلب محمد الشيخ من أبي

27) (الاستقصا ج 2 ص 84).

حسون الوطاسي أمير بادس التعاون معه على صنع مائة مركب ومائة أخرى مسطحة لنقل الجند ولكن أبا حسون لم يكن يثق بالسلطان السعدي ففر إلى مليلية في نفس السنة ولعل السعديين كانوا يستهدفون من أسطولهم تحرير الجيوب البرتغالية الثلاثة التي كانت تقاوم خلال الحصار نظرا لما يتوارد عليها من إمدادات من جهة البحر ولكن الحرب التي نشبت بين المغرب والجزائر عام 959 هـ / 1551م وتهديد الأتراك للمغرب حال دون استمرار السعديين في تعزيز أسطولهم فاضطروا إلى مساعدة الإسبان ضد الأتراك.

ففي عهد عبد الله الغالب بالله كان الأسطول الحربي يتوفر على نحو ثلاثين مركبا بلغت الأربعين عند بداية ثورة الأندلسيين في جبال غرناطة عام 976 هـ / 1568م ومهما يكن فإن الأسطول احتفظ بهذا العدد من القطع عام 985 هـ / 1577م في عهد المولى عبد المالك ولم يكن أسطول (دايات) الجزائر أكثر عددا ولكنه كان أجود نظرا لتقلص التقاليد البحرية بالمغرب خلال قرنين ومع ذلك فالمهم هو شعور الملوك السعديين بأن تعزيز وضعهم في إفريقيا والبحر المتوسط لا يمكن أن يتم بدون أسطول إذ بفضل هذا الأسطول اضطر البرتغاليون إلى الجلاء عام 957 هـ / 1550م عن مراكز قوية في الساحل المغربي مثل أصيلا والقصر الصغير ويظهر أن المنصور السعدي استعان عن سياسة التوسع عبر المتوسط وخلال الأندلس بالتوسع جنوبا نحو الصحراء والسودان لهذا لم يعد للأسطول وجود بالمغرب في القرن السابع عشر الميلادي إذا استثنينا أسطول. القراصنة بجمهورية سلا والرباط في الفترة المتراوحة بين 1040 هـ / 1630م و1050 هـ / 1640م

حيث بلغت وحداته الحربية نحو الثلاثين امتد نشاطها القرصني إلى «تيرنوف» وإيرلندا والجزر الخالدات[28].

ولم يكن لأحمد المنصور في سلا عدا ثمانية مراكب لمحاربة الإسبان[29] وقد أشار صاحب «تاريخ الدولة السعدية» إلى الأسطول السعدي في العرائش وسلا وحاول مولاى زيدان بعد معاهدة 1610م / 1019 هـ بين المغرب وهولندا تكوين أسطول يجلب ربابينه من هولندا وقد صنعت بالفعل قطع أولى لهذا الأسطول هي ثلاث سفن وقيل خمس[30] كما وصل إلى آسفي أربعة مراكب[31] وقد هاجم الإسبان هذا الأسطول فاغرقوا باخرتين في سلا[32] نعم في عام 1019 هـ / 1610م توجه القائد أحمد بن عبد الله إلى (روتردام) وطلب تزويد السلطان بعدة سفن حربية فوافق المجلس على ذلك وقرر إنشاء ثلاثة أو أربعة مراكب من حمولة مائتي طن مع تجهيزها بالملاحين والمدافع وعين لها قائد أعلى هو Martin Van Rysbergen مع إمكان تزويد المغرب بالربابين والسفن والعتاد وقد امضيت في 24 دجنبر 1610م 1019 هـ ضمنت عدم تصادم مراكب البلدين في البحر وعدم بيع نهب القراصنة ضد السفن الهولندية في أسواق المغرب، ويظهر أنه بعد أن طلب السلطان مولاى زيدان من هولندا أن تصنع له أربع سفن عاد فطلب منها عام 1621م / 1031 هـ بناء فرقاطتين أي

28) (الاستقصا ج 2 ص 66).

29) هسبريس - تمودة م 8 (1972).

30) دوكاستر 5 ق 1 إنجلترا م 1 ص 504).

31) (درة الحجال ج 1 ص 313).

32) دوكاستر - س. أ. هولندا م 2 عام 1612 / فرنسا م 2 عام 1611.

حراقتين[33] وقد وجهتا إلى المغرب بخفارة بارجة حربية عام 1922م ولكنهما وصلتا إلى مياه إنجلترا وعادتا لعدم استطاعتهما مواجهة أمواج عرض المحيط أما بخصوص المراكب الأخرى في المتوسط فقد نقل محمد داود في تاريخ تطوان[34] عن رحلة محمد بن علي الرافعي إلى الحجاز أن المؤلف نزل بجزيرة (رودس) التركية في مركب الرئيس محمد عروج فوجد في الجزيرة ثلاثين سفينة منها واحدة فيها خمس طبقات و75 مدفعا من النحاس وان تلك السفن صنعها السلطان محمد خان بالقسطنطينية.

وكانت الأساطيل القرصنية محط رعاية المولى الرشيد بمصب أبي رقراق لأنها كانت تشكل حاجزا دفاعيا ضد المغير الأوربي الذي بدأ يتعلل آنذاك بأبسط الأسباب للتدخل في المغرب وكان هذا الأسطول يقض مضاجع الغربيين الذين انبثوا على الساحل فالإنجليز في طنجة والبرتغاليون في البريجة (الجديدة) والإسبان في المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش بينما طفق الفرنسيون يمخرون بسفنهم الحربية على طول المراسي المغربية بين الريف ومصب الملوية عباب البحر الأبيض المتوسط حيث حصن المولى الرشيد مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة نكور وصارع الإنجليز الذين كانوا يعملون وراء الخضر غيلان.

وأول من وضع الأسس لبناء أسطول وطني قوي هو السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان للمغرب في عهده (حسب الناصري) خمسون سفينة منها ثلاثون حراقة (أو فرقاطة) بقيادة ستين رئيسا أو ضابطا يشرفون على خمسة آلاف بحار وألفين من الرماة إلا أن الرحالة (هوست)

---

33) (م 2 ص 534 ـ فرنسا).

34) (دوكاستر ـ س. أ. السعديون ج 3 ص 188) و371.

أوصل عدد هذه المراكب إلى اثني عشر فقط وقد انحدرت عام 1180 هـ / 1766م إلى عشرة حسب شيني Chénier[35] ويظهر أن الأسطول العلوي ارتفع بعد بضع سنوات أي 1185 هـ / 1771م إلى عشرين قطعة وهكذا شرع السلطان سيدي محمد بن عبد الله منذ بداية عهده في صنع مراكب في (دار الصناعة) بأبي رقراق جهز كل واحد منها ببطاريات يبلغ عدد مدافعها ما بين 26 و36 على أن بعض المراكب مثل الحراقة التي كانت تحت امرة الرايس الطرابلسي بلغ عدد مدافعها خمسة وأربعين وكانت بتطوان أيضا دور لصناعة السفن في العهد العلوي وقد وجه السلطان سيدي محمد ابن عبد الله إلى كل من (السويد) و(إنجلترا) شبانا من مدينة الرباط للتدريب على بناء السفن والمراكب[36] كما وجه ستمائة رجل من (آية عطا) بالصحراء وأربعمائة من تافلالت إلى طنجة للتمرن على المناورات البحرية[37].

والواقع أن السلطان محمد بن عبد الله ركز مقومات الحضارة وواصل تحرير الثغور وكون أسطولا قوامه خمسون سفينة معظمها حراقات حربية تحتوي على ستين قائدا «وأربعين ألف» بحار ووطد العلاقة مع الدول الإسلامية والدول الأوربية على السواء وأمضى معاهدات مع الولايات المتحدة التي كان أول من اعترف بها ومع أمم بروتستانتية كالدول الاسكندنافية تحقيقا للتوازن مع الدول اللاتينية الاستعمارية ومدافعة

---

35) ج 1 ص 392 ط تطوان 1379 (راجع حق تملك حطام السفن في العهد السعدي في (دوكاستر ـ السعديون ـ السلسلة الأولى م 1 ص 186).

36) مذكرة القنصلية الفرنسية العامة (الدار البيضاء عام 1943 ص 103).

37) ؟؟؟؟؟؟؟

للبابوية الناقمة وكانت أوربا في غمرة من الاضطرابات زادها تأججا انبثاق الاستعمار الناشئ والتسابق نحو غزو الشرق الأقصى وتعزيز الصناعة الأوربية بمواده الأولية بينما كانت الامبراطورية العثمانية تسير في طريق الأفول تحت ضربات الاحلاف الأوربية ـ وخاصة منها الحلف المقدس عام 1815 ـ التي أدت إلى تجريد ملك المغرب سليمان بن محمد بن عبد الله (1206 هـ ـ 1238 هـ) ـ (1790 ـ 1820) من أسطوله بدعوى مساندته للقراصنة وحاول نابليون آنذاك الضغط على المغرب للانضمام إلى كتلة الحصار القاري[38] وشعر العرش المغربي بالدور الذي بدأت فرنسا تقوم به لاحتلال الشمال الإفريقي.

وفي نفس الفترة كانت بعثة من الخبراء الأتراك تقوم بتكوين رماة في الجيش المغربي وفي عام 1204 هـ / 1789م أواخر أيام السلطان سيدي محمد ابن عبد الله كانت البحرية المغربية تتكون من 6 إلى 8 فركاطات تحتوي على مائتي فجوة للمدافع بالإضافة إلى 14 أو 18 مدفعا و12 غليونة وهي مراكب شراعية صغيرة وفي أول عهد مولاي سليمان عام 1208 هـ / 1793م بلغت عشر فراكيط وأربع قلعية شراعية وأربعة عشر غليونة وتسعة عشر مركبا مدفعيا مجهزة بستة آلاف بحار ممتاز وفي عام 1299 هـ / 1820م ثلاث قلعيات وأربعين مدفعا وثلاثة عشر مركبا مدفعيا[39] وكانت البحرية الملكية تتوفر عام 1793م / 1208 هـ عند اعتلاء المولى سليمان أريكة

---

38) تاريخ الرباط Caillé ص 132.

39) Bloc Continentel هي الحركة التي هدف بها الامبراطور الفرنسي عام 1806م إلى إقفال جميع الموانئ في وجه إنجلترا لتضييق الخناق عليها اقتصاديا.

العرش عشر على حراقات (أو فرقـاطـات) وأربع قلعيـات (أي سفن شراعيـة ذات قلوع) وأربعـة عشر غليونـا (مثـل التي كان الهـولنـديـون يستعملـونهـا للصيد) وتسعة عشرة من زوارق الإنقاذ المجهزة بالمدافع كل ذلـك بتعزيز من ستة آلاف بحـار من الملاحين ذوي الشهرة[40] وقـد اعترض الأسطول المغربي عـام 1217 هـ / 1803م الأسطـول الأمريكي المحـاصر لطرابلس ففـك هـذا الحصار ثم بدد أسطولنا عمارة ثانيـة[41] وكانت مـدة اجتيـاز البواخر لعرض البحر الفاصل بين فرنسا والمغرب يتطلب فترة طويلة فقد قطعت السفينـة الفرنسية التي حملت سفير فرنسا لدى المولى إسماعيل سانت ـ أولون في مايـه 1693 ثمـانيـة وعشرين يـومـا بين فرنسـا وفرضـة تطـوان[42] وكانت السفن تدعى أحيانا باسم خاص مثل (غراب دار الصنعة) الذي تحدث عنـه خـالـد البلوي في رحلتـه (تـاج المفرق) حيث ركب فيـه من المريـة إلى الحج عـام 735 هـ / 1334م فنقلـه من المريــة إلى هنين[43] وقــد تطــور على نفس النسـق الأسطـول الرحمـاني (1243 هـ / 1827م) بين المـد والجـزر إلى عـام 1322 هـ / 1904 أي قبيل الحمايـة حيث كانت للمغرب سفن حربيـة منهـا «الحسنى» و«سيــدي التركي» و«التريكي» و«البشير»[44] ويتعــزز اليــوم هـــذا الأسطول الملكي بصورة سيصبـح معهـا قـديرا على مـواجهـة مختلف تيـارات التجارة البحـرية وذلك بسفن ضخمـة تمخر عبـاب البحـار والمحيطـات لنقل

---

40) (وصف وتاريخ المغرب ـ كودارج 1 ص 156).

41) نفس المصدر ص 156.

42) (محمد بن علي الدكالي ـ جريدة المغرب رقم 346).

43) وثائق دوكاستر ـ س. 2. الفلاليون ـ فرنسـا م 4 ص 1 (1693 ـ 1698).

44) مرسى هنين مركز في ساحل تلمسان توجد فيه بلده (تاجرة) التي ينتمي إليها عبد المومن بن علي (معجم البلدان ج 8 ص 484) أنشأ جامعها أبو الحسن المريني.

البضائع المغربية إلى جميع أنحاء العالم لا سيا وأن 98 ٪ من المبادلات الخارجية تتم بالطرق البحرية.

المغاربة ومهنة الملاحة :

إن المغاربة لم يكونوا «بحريين» فهم لم يكونوا يهتمون كثيرا قبل اليوم بفن (الملاحة البحرية) حتى في المراسي نفسها ومعظم القراصنة - حتى الذين يوصفون بأنهم سلاويون إنما هم أعلاج أجانب أما سكان العدوتين فالقليل منهم هم الذين تعاطوا هذه المهنة التي اتسع نطاقها نوعا ما بعد توارد الأندلسيين خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين على مصب أبي رقراق وكان لهذه الملاحة نظامها وقوانينها التي كانت تحاول أن تكفل حرية البحار ذلك أن حماية الأشخاص وأمتعة التجار مهما تكن جنسياتهم كانت في نظر المغاربة شيئا طبيعيا وضروريا للتجارة إلى حد أنها كانت تخول لجميع الأجانب «حتى ولو كانت المعاهدات تسمح للحكومة العربية بإنكارها» ذلك ما أكده (لاطرى) الذي أبرز أن روح العطف والحسنى والنزاهة التي أذكت الحكومة العربية إزاء التجار الأجانب قد تجلت في التشريعات المتعلقة بالتهريب وكذلك في التدابير المنصوص عليها في المعاهدات فحتى لو لوحظ انتهاك القانون فإن الجمارك تتقاضى رسومها كما لو أن السلع قدمت بصورة عادية إلى الديوانة ولكن العقوبة تكون آنذاك أدبية[45] معناها أن التاجر الذي يدخل سلعة خفية ويكشف عمله «يفقد سمعته وشرفه فلا يحظى بعد ذلك بثقة العرب» ولم تكن هنالك مدرسة لتخريج الربابين بمعنى الكلمة

45) الاستقصا ج 4 ص 183).

اللهم إلا المدارس التطبيقية وهي (دور الصناعة) التي أسست منذ عهد المرينيين أهمها (دار الصناعة) بباب المريسة بسلا ودار الصناعة بتطوان والورش الذي أسسه العلويون قبالة جامع حسان بالرباط ولعل أول مدرسة حملت هذا الاسم هي (متحف الاودايا) الذي كان يتخرج فيه ربابنة البحر وقد عرفت هذه المدرسة منذ عام 1309 هـ / 1891م[46] وكان لكل مركب أو سفينة ربانها أو رئيسها (ويسمى الريس أو الرايس) وكان لبعض الموانى قائد يشرف على البحرية في نطاق عمالته كما كان الحال بتطوان حيث أشرف على البحرية بها القائد أحمد لوقاش المعروف عند الإسبان[47] وقد ولى الخليفة الناصر الموحدي السيد عبد الله بن طاع الله على قيادة البحر بعد أن كان قد عينه قبل واليا على جزيرة ميورقة ومن هؤلاء الرؤساء والربابين : العربي حكم الرباطي رئيس البحر أيام سيدي محمد بن عبد الله[48] وكذلك العربي المستاري والرايس عواد السلوي وقنديل (ص 177) وهو غير قنديل محمد السلوي رئيس المركب الذي كان في ملك المولى إسماعيل وقد أسر في فرنسا وافتدي عام 1688م / 1100 هـ[49] والكوار الرباطي رئيس البحر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله[50].

---

46) كما لاحظ (بيركولوطي) (الفصل 27 ص 123).

47) Routh. Tangier p. 221

(مجلة هسبريس ـ تمودة م 9 ص 344 (1968)).

48) (تاريخ الضعيف ص 177 خ).

49) (دوكاستر ق 2 العلويون (م 4 ص 340 ـ 344) (وق 2 ـ فرنسا م 3 ص 172)).

50) (تاريخ الضعيف ص 177).

الأسطول الفاطمي المغربي :

قسم المقريزي السفن المصرية إلى حربية وهي سفن الأسطول للغزو والنيلية وهي سفن تجارية لحمل الغلال والأحطاب وغيرها في النيل إلى أعلى الصعيد أو أسفل الأرض وذلك بالإضافة إلى نوع ثالث للملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي للتجارة أو نقل الحجاج إلى جدة :

وأهم القطع :

1 - **الشواني الحربية** (جمع شيني أو شينية أو شونة) تعرف بالاغربة أو الغربان تطلى بالقار مع قلوع بيضاء.

وهي مركب طويل له مائة وأربعون مجذافا مزود بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم وقد وصفها ابن حمديس الصقلي مخاطبا الحسن بن علي من أمراء بني زيري في المغرب الأدنى :

أنشأت شواني طائرة   وبنيت على ماء مدنا

ببروج قتال تحسبها   في شم شواهقها قننا

2 - **الحراريق** (جمع حراقة) : لاحراق سفن العدو بالنفط تلى الشواني في الأهمية وأصلها للأغالبة لها نحو مائة مجذاف.

3 - **الحرابي أو الحربيات** (جمع حربية) : نوع من الشواني أصغر حجما منها وكانت من أهم قطع الأسطول الأندلسي الأموي : يقول فيها ابن حمديس.

وحربية ترمى بمحرق نفطها   فيغشى سعوط الموت فيها المعاطسا

4 ـ **الطرائد** (جمع طريدة : سفن مخصصة لحمل الخيل تسع أربعين فرسا تفتح عادة من الخلف وكذلك لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح وانتقال الناس.

5 ـ **الشلنديات** (جمع شلندي خففت إلى صندل) : سفن كبيرة الحجم لنقل المؤن والسلع وهي مسطحة من أعلى لتمكين الغزاة من مقاتلة أعدائهم من ظهرها بينما يجذف الجذافون تحتهم وهي تشبه المسطحات ولعلها كانت تسمى في الأندلس بالأجفان الغزوية أو الغزوانية (ابن عذاري ج 4 ص 383 / الحلل الموشية ـ طبعة تونس 1329 هـ ص 99) ويقترن اسم الصنادل مع الشواني والمسطحات في مصر الفاطمية.

6 ـ **المسطحات** : تحمل أسلحة الأسطول وهي المراكب الحمالة بالأندلس (نزهة المشتاق للادريسي ص 179).

7 ـ **البطس** (جمع بطسة) مراكب كبيرة ذات عدة طوابق لها أحيانا أربعون قلعا تستخدم لنقل الأزواد والميرة وجموع كبيرة من المحاربين قد يصلون إلى سبعمائة (النوادر السلطانية لابن شداد ـ القاهرة 1964 ص 49).

8 ـ **المركب الغيطاني والمركب العجزي** : يحملان عددا كبيرا من الركاب وأموال طائلة (نظم الجمان لابن القطان ـ تحقيق د. محمود مكي ص 233).

9 ـ **الأعزاري** : مركب صغير أيوبي وفاطمي لحمل الأزواد.

10 ـ **المركوش** : مركب صغير لنقل مياه الشرب (سعته مائة أردب).

أما المراكب التجارية فمنها الشواني (لحمل الغلال وفيها أهراء ومخازن وصهاريج لمياه الشرب) والمراكب السفرية لنقل الركاب من بلد إلى بلد والسفن النيلية أهمها العشاريات كانت تعرف في العصر المملوكي بالحراقات لنقل الغلال السلطانية أو لنزه الخلفاء وكبار القوم وكان عددها خمسين وفيها أنواع لطاف يقال لها السماويات لأنها مكشوفة للسماء أما النوع الثالث من السفن فهي المتنقلة في البحر كانت تسمى الجلاب أو الجلبات (جمع جلبة) لم يكن يستعمل فيها مسمار - حسب ابن جبير - لأنها مخيطة بأمراس القنبار وهو قشر جوز النارجيل وكثيرا ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنون لخدمة الغزاة في البحر.

ملاحة الخليج وأسطوله :

كانت السفن تدخل الخليج العربي قبل فتح قناة السويس محملة بالبضائع من الشرق الأقصى خاصة للتوابل لتنقل براعن طريق العراق فسورية فموانئ البحر المتوسط إلى أسواق أوربا وازدادت أهمية الخليج العربي البحرية والتجارية في مطلع الحركة الاستعمارية التي استهدفت التوسع شرقا لتأمين الاتصال البحري مع الهند ويمتاز الخليج بأقل نسبة من الأخطار الطبيعية التي تجابه الراكب في البحار الأخرى نظرا لقلة الأمواج العالية (لا يتجاوز عمق المياه على أكبر تقدير الأربعين مترا) وقصر الشتاء وقلة الرياح الموسمية واعتدال الرياح العادية مما أدى إلى قيام مرافئ عديدة على شطان الخليج[51] تساعدها البوصلة في حالة اشتداد الرياح.

---

51) الملاحة في الخليج العربي لعيسى أحمد النشمي الكويت.

أما السفن والمراكب فكانت تتجه من الكويت إلى اليابان وتخوم افريقيا غربا إلا أن دور الصناعة بالخليج كانت تستعمل الخشب وحده دون حديد ثم ضخم حجم هذه المراكب مع الأيام وهذه السفن أنواع :

1 ـ البوم : للشحن والأسفار البعيدة طوله يصل إلى 150 قدما وعرضه 30 قدما وحمولته ما بين 300 و750 طنا ويستعمل في مجموع الخليج.

2 ـ البغلة : يستعمل لنفس الغرض ويفضله أهل صور جنوبي مسقط وحمولته أقل إذ لا يتعدى 400 طن.

3 ـ الشوعى : مركب للغوص حمولته ما بين 50 و75 طنا وطوله يصل إلى 75 قدما وعرضه 20 قدما.

4 ـ السنبوك : نوعان يماني للشحن والأسفار البعيدة وآخر صغير للغوص وهو أصغر وحمولة الأول تصل إلى 200 طن وطوله 150 قدما.

5 ـ الجالبوت : للشحن والأسفار المتوسطة المدى وهو مفضل للساحل الإفريقي الشرقي حمولته تصل إلى 70 طنا وطوله إلى مائة قدم.

6 ـ الكوتية : نسبه البوم والبغلة يفضله أهل الهند تصل حمولته إلى 400 طن وطوله إلى 150 ق.

7 ـ البتيل : مركب قليل الاستعمال خاصة للغوص في بعض مناطق الخليج قريب الشبه من الشوعى.

الأسلحة البحرية :

اللتوت والدبابيس والمستوفيات : هي عمد من حديد مستطيلة مضرسة في حين أن الدبابيس مدورة والمستوفيات مربعة يبلغ عمودها ذراعين مع مقبض مستدير.

السيوف والرماح والفووس : وهذه الأخيرة لها رأس نصف مستدير حاد النصل وتسمى الفأس أحيانا بلطة أو طبر.

الأقواس والنشاب : منها قسي لرمي قوارير النفط الكلاليب والباسليقات : خطاطيف حديدية للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلاليم من الجبال لمقاتلة ملاحيها أما الباسليقات فهي سلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من حديد تستخدم في القتال على سطح السفن.

التوابيت : صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصواري يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها في مخلاة تعلق إلى جانب التابوت ويرمون بها الأعداء ثم يحتمون في التوابيت وقد يرمون قوارير النفط أو جرار النورة فتعمى الرجال بغبارها.

والنفط البحري كان يجهز من قطران وكبريت ومواد شديدة الالتهاب ولا تنطفئ نيرانها بملامسة الماء ويطلق النفط من آلة نحاسية أو حديدية تسمى النفاطة ويستعمل المنجنيق أحيانا للرمي.

المجانيق والعرادات : آلاف لقذف أحجار ضخمة مضرية تقذف بواسطة الشد على لوالب وقد يرمى بها للنفط أو اجرار الزيت المغلى.

والعرادة آلة تشبه المنجنيق وهي دونه في الحجم تستخدم لنفس الغرض.

وقد ذكر النويري[52] أن مجاهدا مغربيا عرض على الأمير سيف الدين الاكز (767 ـ 768 هـ) بمصر سلاحا جديدا عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفام مملوءة جيرا ناعما مطفيا بالبول في مسدودة الفم الضيق بمشاقة كالقنابل اليدوية اليوم تعمى الأبصار.

أما دور الصناعة فقد أسس المعز الفاطمي وابنه العزيز دار صناعة بالمقس وكان بها عام 386 هـ ستمائة مركب وكان بمصر أربع دور أخرى إحداها بالاسكندرية أقيمت منذ الفتح الإسلامي وكان على رأسها إبراهيم التازي المغربي والثانية بدمياط والثالثة بجزيرة مصر المعروفة بالروضة وهي أول دار صناعة أسست بفسطاط مصر عام 54 هـ والرابعة دار صناعة مصر أقامها محمد الاخشيد عام 325 هـ وكان الخشب الضروري لبناء السفن يجمع في (حواصل البضاعة) في القاهرة تشتمل على الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من القنب والكتان والمنجنيقات (صبح الأعشى ج 3 ص 475).

وقد أسس الفاطميون ديوان الجهاد أو العمائر لتيسير الاتصال البحري بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة ثانية وكان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر[53] ويختص بإنشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها.

---

52) في كتاب الالمام نقل صاحب (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام) أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم ـ 1972 ص 323.

53) صبح الأعشى ج 3 ص 492.

مصادر في البحر والبحرية في المغرب :

كناش في أمور البحر وهو تقييد ما دخل في يد عبد الهادي العسري من حبة الفشينية ابتداء من عام 1183 هـ / 1769م يشتمل على قائمة بحارة الرباط وسلا وأجورهم وموارد مراسي المغرب المودعة في بيت المال بباب القصبة بالرباط من عام 1183 إلى 1227 هـ (160 ورقة) خع = 1409 د (الأصل بالمكتبة الناصرية بسلا).

- (لواقح الأسرار في حديث البحر والأسفار في توضيح الرسالة الفتحية في صنعة الرياس) لعبد الله ميكاني الرباطي (عاش في عهد السلطان مولاي سليمان (مخطوط في مكتبة الأستاذ عبد الله الجراري).

- «زينة النحر بعلوم البحر» لإبراهيم التادلي الرباطي تحدث فيها عن سير سفن الشراع والبواخر (خع 1747 د).

- البحرية والطبجية في الرباط (تاريخ الضعيف) (ص 470 - 475).

- عجائب البحر لابن عفيون محمد بن أبي بكر الغافقي الشاطبي (584 هـ / 1189م).

- تأليف في الملاحة البحرية (خم 7817).

- (تاريخ الأسطول) العربي محمد ياسين الحموي دمشق - مطبعة الترقي 1945 (147 ص).

- تاريخ تطوان لمحمد داود ج 4 ص 226 / مقدمة ابن خلدون ج 1 ص 416.

- مظاهر يقظة المغرب الحديث (محمد المنوني ج 1 ص 63).

- أسطـول الأنـدلس (إسبـانيـا المسلمـة ـ ليفي بروفنصـال ص 153 و248.

- مجلة تطوان 1957 عدد 2.

- ارشيـا لـدلـويس (القوى البحريـة والتجـاريـة في حـوض البحر المتوسط).

تعريب أحمد محمد عيسى ـ القاهرة 1960.

- (البحر في التقاليد والصناعة الوطنية) في الرباط وسلا.

- ملاحظات قاموسية عن قاموس الرباط ـ سلا البحري.

- المغرب وخطوط الملاحة البخارية الأولى.

- القوانين البحرية في المغرب 1900.

كشف عن أمراء وقواد البحر في الأساطيل العربية :

نواتيـة الأسطـول كانـوا يعرفـون في مصر بـالبحريين أو الأسطـوليـة موضع احترام الناس يقال لهم المجاهدون في سبيل الله وكان معظمهم مغاربة لما عرف به المغاربة من مهارة في قيادة السفن والملاحـة في البحر منـذ عصر مبكر واستمر ذلـك في العصر الأيـوبي حيث اشتركـوا في مهـاجمـة مراكب الصليبيين عند عيذاب وكان المماليك يعتبرونهم فرسـان البحر وقـد رأس دار الصنـاعـة بـالاسكنـدريـة إبراهيم التـازي الـذي عرف ببطولتـه في محـاربـة الصليبيين وذكر النويري معلقـا على بطولتـه بـأن الفرنجـة لا يقهرهم سوى المغـاربـة لمخـالطتهم لهم بجـزيرة الأنـدلس وقـد ذكر ابن سعيـد المغربي أن الأساطيل كانت وقفا على المغاربـة لمعرفتهم بمعـانـاة الحرب والبحر (المقرى ـ نفح الطيب ج 3 ص 111) وكان البحريـون منـذ العصر الفـاطمي بمصر يشتغلـون بـالتجـديف أو نشر القلـوع أو تـوجيـه الـدفـة أو مراقبـة البحر.

بالإضافة إلى مقاتلة بالانفاط (وهم قاذفو اللهب أو زراقوا النار) وبالعرادات والمجانيق ورمي السهام والكلم بالكلاليب والرجم بالرجام والسلب بالأساليب، (العماد صفهاني ص 160).

وقد كان للأسطول في مصر مقدم ونائبان كانا يتوليان خدمة ما يجرى في الأساطيل.

وقد كان للأسطول الفاطمي خمسة آلاف بحار أو نوتي يتقدمهم عشرة أعيان يقال لهم قواد يختار من بينهم قائد يسمى رئيس الأسطول يقلع بالغزاة وبصحبته مقدم الأسطول وفانوس تهتدي به المراكب الأخرى وكان مقدم الأسطول أو زمام الأسطول يختار من بين أعيان أمراء الدولة وكان عشرون نقيبا يقومون باستدعاء الغزاة من دورهم.

وفي المغرب والأندلس كان على رأس الأسطول قواد أو أمراء البحر (أميرالات) وعلى كل سفينة قائد ورئيس يهتم الأول بتجهيز السفينة وجندها والثاني يشرف على حركة سيرها ونذكر فيما يلي جملة من هؤلاء القواد :

ابن جامع أمره علي بن خلاص صاحب سبتة على أسطوله خلفا لغانم ابن محمد بن مردنيش (ابن عذاري ج 3 ص 117 / المن بالامامة ص 516 / الاستقصا ج 2 ص 137.

- ابن كاشة أبو الحسن قائد البحر في سبتة عام 709 هـ / 1309م أيام استيلاء بني الأحمر على المدينة.
- ابن ماجد أسد البحر الهائج ربان ماهر من رأس الخيمة بالخليج العربي كان للدراسات الميدانية التي قام بها أثر فعال في توجيه الرحلات البحرية التي قام به أوربيون عبر المحيطات ومنهم ماجلان البرتغالي فاسكو دوكاما الذي اكتشف طريق الهند عام 1497م تلاه ماجلان.

الذي يقال عنه إنه (اكتشف عـام 1520م) 927 هـ مضيق مـاجـالان بين جنوب أمريكا وأرض النار.

- أبو إسحاق البطروجي نور الدين الاشبيلي تلميذ ابن طفيل.
(الاستقصا ج 2 ص 124).

- أبو العباس الرنداحي قائد أسطول سبتة أعان أبا القاسم العزفي على تملك هذه المدينة عام 647 هـ / 1249م.
(البيان لابن عذاري ج 3 ص 400 طبعة الرباط).

- أبو عبد الله ابن عبد السلام الكومي قائد أسطول سبتة.
(البيان لابن عذاري ج 4 ص 203).

- أبو العلاء الكبير قائد (أساطيل البرين) في عهد النـاصر الموحـدي وكانت تحتوي على أجفان العدوة والأندلس (البيـان لابن عـذاري ج 3 ص 234 طبعة الرباط).

- أبو القاسم بن عبيد الله المهـدي الفـاطمي قـائـد أسطول من خمس عشرة سفينة حربية وجهت (عام 300 هـ / 912م) إلى طرابلس فاحرقت سفنه من طرف مراكب أهل المدينة التي أخضعها أبو القاسم.

- أحمد بن عمر المعروف برقم الأوزولي جملـة من الأسطول المرابطي في عهـد علي بن يوسف بن تاشفين (الإدريسي في النزهة).
أحمد بلقاسم (راجع الرايس).

- أحمـد بن ميمون قـائـد أسطـول يـوسف بن تـاشفين في جـوازه الأول إلى الأندلس عام 1086م (الإعلام للمراكشي ج 3 ص 236).

- أحمد بن يعلى قائد أسطول الخليفـة الأنـدلسي أرسلـه عـام 347 هـ لغزو سواحل إفريقية (ابن عذاري ـ البيان ج 2 ص 332 ط. بيروت).

- أحمد الصقلي : أسرة النصارى واستخلصه صاحب صقلية ثم لحق بتونس وأجاز إلى مراكش فاجزل الخليفة يوسف بن عبد المومن صلته وقلده أمر أساطيله.
(ابن خلدون ـ التاريخ ـ م 1 ق 2 ص 457).
وكان أبو العباس الصقلي أيضا رئيس أسطول اشبيلية (ابن عذاري ج 3 ص 117).

- أحمد لوقاش (Loukach) قائد البحرية بتطوان مع اشرافه على عمالتها في آن واحد وكان ذلك جاريا به العمل في عدة موانئ منذ العهد الموحدي.
(هسبريس ـ تمودة) م 9 ص 344 (عام 1968).

- أسد بن الفرات قائد البحر في عهد الأمير زيادة الله بن الأغلب فتح عام 212 هـ ميناء مازر من جزيرة صقلية.

- بسر بن أبي ارطأة قائد الحملة البحرية الاستطلاعية على القسطنطينية عام 43 هـ و44 هـ.

- جنادة بن أبي أمية قائد الأسطول الإسلامي عام 54 هـ معززا القوة البحرية المرابطة في مياه القسطنطينية وقد استولى على جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية (الطبري ج 6 ص 164 / ابن الأثير ج 3 ص 497).

- حسين بن يعقوب الكتامي متولي البحر في المهدية وهو أبو علي منصور العزيزي الجوذري (سيرة الأستاذ جؤذر ـ تحقيق د. محمد كامل حسين ود. محمد عبد الهادي شعيرة ـ القاهرة عام 1954 ص 87).

وكان هنالك أيضا في العهد الفاطمي متول بخزائن البحر يسهر على توفير مواد صناعة السفن كالأخشاب لصنع الصواري وألواح السفن

والمجاذيف والسلالم والمسامير والروابط والمراسي والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والسلاسل والألياف (لصنع الحبال) والقطران للقلفطة والنفط لقاذفات اللهب.

- حميد بن معيوف ولاه هارون الرشيد العباسي سواحل بحر الشام ومصر عام 190 هـ فغزا كلا من جزيرة قبرص وجزيرة اقريطش.
- داود بن عائشة قائد أسطول يوسف بن تاشفين في جوازه الأول إلى الأندلس عام 1086م (البيان لابن عذاري ج 2 ص 237).
- دميانة البحري أمير البحر وقائد سفن عباسية كانت راسية بثغر طرسوس في العهد الطولوني عددها 18 مركبا حربيا مشحونة بالرجال والعتاد. (النجوم الزاهرة ج 3 ص 109 / 136).
- الرايس إبراهيم التازي رئيس دار الصناعة بالاسكندرية كان قائدا بحريا لدى السلطان شعبان المملوكي الذي كلفه بالاغارة على جزر العدو فقام في 29 رجب 769 هـ (مارس 1368م) من ثغر الاسكندرية في مركبين حربيين بهما خمسمائة مقاتل ـ متجها إلى جزيرة قبرص وما جاورها من جزر فعاد محملا بالغنائم فارتجت الاسكندرية لقدومه وقد حاول الأسطول الفيومي غزو الأسكندرية من جديد عام 770 هـ فتصدت له المراكب بقيادة الرايس إبراهيم التازي ووسائل الدفاع الساحلي واستعرت معركة بحرية فقد فيها بعض سفنه ففر هاربا.
- الرايس إبراهيم الشط قائد الأسطول السعدي في رباط سلا أيام المنصور الذهبي وكانت هذه الرياسة تعتبر في المغرب خطة للاشراف على القطع والشواني أو العمارة[54].

---

54) مناهل الصفا ـ مختصر الجزء الثاني ص 244.

- الرايس أحمد بلقاسم سفير المنصور السعدي إلى انطونيو البرتغالي وإلى إنجلترا (الوثائق الغميسة ـ دوكاستر ج 2 ق 1 1 ص 159 ـ فرنسا).
- الرايس حماني : رايس بحري جزائري وجه للسلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام العلوي إلى عامله بتطوان الحاج عبد القادر أشعاش أمرا بإعانته (رسالة مؤرخة ب 21 رجب 1261 هـ / 26 يوليوز 1845م).
- الرايس سالم رئيس البحر في عهد سيدي محمد بن عبد الله وقائد السفينة التي بنيت من طابقين عام 1174 هـ / 1761م (تاريخ الضعيف ص 177).
- الرايس شعبان قبطان الأسطول الأمامي الجهادي ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية في عهد المنصور السعدي.
(مناهل الصفا ـ مختصر الجزء الثاني ص 245).
- الرايس صالح اميرال أسطول المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسله إلى تطوان عام 1181 هـ للضغط على الرايس على القرصني لإرجاع البواخر الفرنسية الثلاث التي اقتنصها في عرض البحر المتوسط.
(هسبريس م 1 عام 1960).
- الرايس الطرابلسي قائد الحراقة التي بلغ عدد مدافعها في عهد السلطان محمد بن عبد الله خمسة وأربعين مدفعا.
- الرايس على القرصني كان يسكن بسلا ويجول في جفنته الجهادية بين الجزائر وسلا وقد وصل عام 1035 هـ / 1625م إلى هولاندة مع ثلاثة من القراصنة.
(دوكاستر ـ س. أ. ـ السعديون م 3 ص 371 / هولندا م 4 ص 93 (1913).

- الرايس على عواد السلاوي رئيس البحر أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (تاريخ الضعيف ـ مخطوط الرباط ص 177 / تاريخ تطوان ـ محمد داود ج 2 ص 181).
- الرايس عمر : قائد قرصاني كان يجول المتوسط واقتنص عام 1181 هـ / 1767م باخرة فرنسية حمولتها سبعون طنا هي Thèrese وقادها إلى ساحل تطوان وباخرتين اخريين ساقهما إلى مرسى المعمورة أو المهدية فضغط عليه السلطان المولى محمد بن عبد الله برد البواخر إلى أصحابها. (هسبريس م 1 عام 1960).
- زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية أيام الحفصيين شارك في وقعة طريف عام 740 هـ / 1339م بست عشرة قطعة بحرية.
- سالم بن راشد قائد البحر الفاطمي أغار عام 317 هـ مع القائد صابر الفتى على طارنت Tarentum بالسواحل الإيطالية وكذلك سالرنو ونابل.
(ابن الأثير ص 54).
- سليمان بن معاذ الأنطاكي قائد إحدى حملات الأسطول الإسلامي على القسطنطينية عام 98 ص استطاع إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ولكن الزوابع حطمت أسطوله الذي يقال إنه كان يتركب من 1.700 سفينة واستمر الحصار مع ذلك إلى أن توفى القائد سليمان عام 99 ص فاضطربت صفوف البحريين.
- صابر الفتى الصقلي القائد الفاطمي غزا السواحل الإيطالية عام 315 هـ في 44 شينيا فأصاب كثيرا من الغنائم.
صالح رئيس البحر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

- صاعد بن كلملم قائد أسطول عباسي ساعد الاخشيدي على تولي إمارة مصر حيث أقبل إلى تنيس ودمياط واستولى على البلاد عام 323 هـ ولكن جندا من المغاربة قتلوه وعادوا بسفنه إلى الفسطاط وأحرقوا دار الصناعة بالروضة مما حدا الاخشيد عام 325 هـ إلى نقلها إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل الفسطاط.
- عبد الله بن سليمان قائد الأسطول الموحدي في عهد عبد المومن بن علي. (البيان لابن عذاري ج 3 ص 32).
- عبد الله بن سعد تولى قيادة أسطول من مائتي مركب[55] جهزه معاوية ابن أبي سفيان بعد أن خرج مع أهل مصر والشام لمحاربة البيزنطيين في أراضيهم وكان مجموع الأسطول سبعمائة قطعة[56].
- عبد الله بن طاع الله قائد البحر في عهد الناصر الموحدي ووالي جزيرة ميورقة.
- عبد الله بن طاهر أشرف عام 210 هـ على سفن عباسية كانت مرابطة في طرسوس لمحاصرة الأندلسيين الربضيين الذين كانوا قد استولوا على الاسكندرية فصالحوه على الخروج إلى اقريطش بقيادة أميرهم عمر بن شعيب في أربعين سفينة.
- عبد الله بن قيس الفزاري قائد الحملة البحرية عام 47 هـ ضد بلاد بيزنطة.

---

55) فتوح مصر والمغرب - ابن عبد الحكم ص 256.

56) الطبري ج 5 ص 69 (أحداث سنة 31 هـ) ويظهر أن الأسطول البيزنطي كان يتألف من ألف سفينة (ابن عبد الحكم ص 256).

- عبد الله بن وزير صاحب مدينة حيلة حوالي 332 هـ لم يكن في زمنه أبصر منه في البحر الرومي انقادت له المراكب الحربية (مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 129).
- العربي حكم الرباطي رئيس البحر أيام سيدي محمد بن عبد الله. (تاريخ الضعيف ـ مخطوط الرباط ص 177).
- العربي المستاري من رؤساء البحر في عهد سيد محمد بن عبد الله العلوي.
- عقبة بن عامر الجهني قائد الحملة البحرية على بيزنطة في أسطول من أهل مصر عام 48 هـ.
- علي بن بدر قائد سفن المغاربة في مصر التي انتصر عليها الاخشيدي عام 323 هـ بقيادة صاعد بن كلملم فقتل هذا الأخير وأحرق المغاربة دار الصناعة بالروضة عام 325 هـ.
- علي بن خلاص صاحب سبتة قائد الأسطول الذي أنشأه عام 643 هـ / 1245م فغرق عند خروجه من سبتة في طريقه إلى البيعة لأبي وكرياء الحفصي في تونس.
(الاستقصا ج 1 ص 203).
- علي بن عيسى قائد الأسطول المرابطي كانت قطعه تتردد بين العدوتين.
(البيان المعرب لابن عذاري ج 3 ص 21 طبعة الرباط).
- علي بن ميمون أمير البحر في عهد يوسف بن تاشفين.
- عمر بن حفصون إمام الثوار في الأندلس بين عامي 238 هـ 305 هـ (852 ـ 917م) سانده الخليفة المهدي الفاطمي ضد دولة بني أمية وقد سير إليه المهدي مراكب رست عام 301 هـ / 913م بالساحل الجنوبي من الأندلس وكان الأمير عبد الرحمن بن محمد قد شرع في هذه السنة

بمهاجمة السفن الفاطمية في الجزيرة الخضراء وتحريقها (ابن عذاري ج 2 ص 247 / تاريخ ابن خلدون ج 4 ص 33) وبعد أن أيد أبا يزيد مخلدا بن كيداد اليفرني الثائر على الفاطميين عام 335 هـ (ابن عذاري ج 2 ص 321).

- عمر بن شعيب أبو حفص قائد الأندلسيين الربضيين في الاسكندرية قاد عام 211 هـ أسطولا من أربعين سفينة لفتح جزيرة اقريطش حصنا حصنا إلى أن أكملوها عام 230 هـ.
(البلاذري ج 1 ص 279).

- عمر بن هبيرة الفزاري قائد حملة بحرية على بلاد الروم عام 97 هـ.

- غالب بن عبد الرحمن الناصري أمير البحر وقائد الأسطول الأندلسي الذي هاجم سواحل إفريقية الفاطمية عام 345 هـ في ستين سفينة وخاصة ساحل مدينة سوسة ومرسى الخرز شرقي بونة.
(ابن عذاري ـ طبعة بيروت ج 2 ص 318).

- غانم بن محمد بن مردنيش : عينه يوسف بن عبد المومن بن علي الموحدي عام 575 هـ / 1179م قائدا لأسطوله.
(الاستقصا ج 1 ص 161).

- القبطان عبد الله بن محمد العربي فنيش كان من جملة القباطنة قواد السفن البحرية في القرن الماضي من وجه السلطان عام 1278 هـ / 1862م معه للتوقيع على اتفاقية مليلية القبطان أحمد ولد المقدم.

- الكوار الرباطي رئيس البحر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله تاريخ الضعيف ص 77.

- ليو الطرابلسي قائد بحري ذكره المسعودي باسم «لاوي المكنى بـأبي الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشـام من سـاحل دمشق وكان يشرف على المراكب في البحر الرومي.

(مروج الذهب ج 1 ص 129).

وكان طرسـوس قـاعـدة سفنـه وقـد أغـار عـام 291 هـ منهـا على ثغر سالونيك وهي أهم ثغور بيزنطة بعد القسطنطينية ففتحها عنوة واستنقذ من أسرى المسلمين أربعة آلاف وظفر بستين مركبا بيزنطيا.

- مالك بن عبيد الله قائد الحملة البحرية على أرض الروم عام 46 هـ.

- مالك بن هبيرة قائد الحملة البحرية على بيزنطة عام 47 هـ.

- محمد بن شلطور قائد أسطول المنكب والمزوار بمراكش.

(الدرر الكامنة ج 4 ص 278).

- محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ آل العزفي كان قائد أسطول سبتـة عام 720 هـ / 1320م.

- محمد زرقون بن علي قـائـد أسطول المنصـور السعـدي في النيـل (النيجر) بالسودان (السنغال اليوم).

(درة الحجال ج 1 ص 313).

- محمد بن ميمون قائـد الأسطول المرابطي في المريـة سـانـد عـام 539 هـ / 1145م الخليفة تاشفين بوهران.

- محمد بن يـوسف المعروف بـالأبكم من أمراء بني الأحمر قـائـد الأسطـول المريني عام 757 هـ / 1356م.

(الاستقصا ج 2 ص 99).

- محمد الثغيري رايس السفينة في سفارة الأميرال عبد الله بن عائشة إلى فرنسا (دوكاستر ـ س. 2. الفلاليون م 5 (1698).
- محمد الرايس التاج التطواني قائد سفينة ثقفها الأسطول الفرنسي فوجه السلطان المولى إسماعيل إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر رسالة مؤرخة بتاسع شعبان 1095 هـ / 22 يوليوز 1684م يؤاخذه فيها على المماطلة في إرجاع السفينة ووجه إليه عام 1685م سفيره الحاج محمد تميم للمطالبة من جديد.

تاريخ تطوان ج 4 ص 144 / هسبريس ـ تمودة م 9 ص 447 عام 1968.
- محمد قنديل السلوي رئيس مركب كان في ملك المولى إسماعيل وقد أسر في فرنسا وافتداه السلطان عام 1100 هـ / 1688م.

دوكاستر ق 2 العلويون م 4 ص 340 / ق 2 فرنسا م 3 ص 172.
- مراد برتقيش قائد بحري تركي سكن بتطوان كانت له (فركاطة) يغير بها على سواحل الافرنج ويعود إلى تطوان بالغنائم فقتله الشيخ المامون السعدي.

(تاريخ الدولة السعدية ص 95.
- مراد الرايس : قرصان ألباني كان يقيم بالجزائر لجأ إلى العرائش بعد أن هاجم جزيرة (الانزروط) وهي إحدى الجزائر الخالدات عام 995 هـ / 1586م.

وكان يعرف بمورات الريس العلج من قرصان سلا الألبانيين الجنوبيين (دوكاستر ـ م 1 ص 290 / م 2)، 125 / م 3 ص 285.
- مريم قائد تركي علي ورش المراكب في العرائش.

(دوكاستر ق 1 ـ السعديون ـ البرتغال م 4 ص 319).

مسعود الفتي قائد أسطول فاطمي غزا عام 310 هـ إقليم قلورية في السواحل الإيطالية في عشرين شينيا فاستولى على مدينة أغاتى (Agata).
مسلمة بن عبد الملك أخو الوليد الأموي قاد حملة بحرية ضد الامبراطورية البيزنطية عام 94 هـ وقد اتخذ من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالا لتدريبات قوته ثم قام عام 98 هـ في عهد أخيه سليمان بن عبد الملك فوصل إلى مشارف القسطنطينية في جيش عدته ثمانون ألف مقاتل ونصب عليها المجانيق.
وتقول روايات بيزنطية إن الأسطول الإسلامي بلغ 1800 سفينة كبيرة ولكن النار الاغريقية احرقت الكثير منها ولم يكن العرب قد اكتشفوا آنذاك قاذفات اللهب النفطية.
يحي بن أبي زكرياء الهزرجي قائد الأسطول الموحدي عام 600 هـ 1203م وقد ذهب لقتال ابن غانية.
يحي الرنداحي أشرف على أسطول سبتة قبل عام 720 هـ (الاستقصا ج 2 ص 55).
يعقوب بن اسحق قائد البحر الذي بعثه إسماعيل المنصور على رأس الأساطيل من المهدية إلى سوسة عام 334 هـ عندما اشتد حصار أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الثائر عليها فاوقعوا به لدى وصول المؤن والاقوات الفاطمية وقد غزا جنوة وسردينية ودانية وكرسيكة حوالي 317 هـ (ابن خلدون ـ المقدمة ج 2 ص 629).
يوسف البربري استخدمه روجير الثاني ملك صقلية على سفنه وعينه أبو يعقوب يوسف الموحدي أمير الا فجعل من أسطول الخليفة أعظم أسطول في المتوسط.
(أندري جوليان ـ تاريخ إفريقيا الشمالية ص 412).

الرباط **عبد العزيز بن عبد الله**

الطفل والإعلام

محمد ابن البشير

الإعلام عنوان الحياة البشرية المشتركة، عنوان التواصل الاجتماعي والعمل الحضاري المشترك. والتقدم الحضاري والعلمي ما كان ليكون لولا الإعلام والتبليغ بالإشارات والرموز والكلمة والصوت والصورة، بكل أنواع التعبير من صوت وحرف ورسم ونغم وغيرها، بكل ما يثير النفوس ويطبعها ويترك فيها وقعا تنتج عنه ردود فعل ومواقف وأحيانا بطولات أو جرائم وجنايات.

والطفل إنسان ضعيف يلج المجتمع ضيفا عليه، في إنتظار أن يصبح عضوا كامل العضوية، له من الحقوق ما للأعضاء الآخرين فهل ستحسن ضيافته، ويعامل بما يليق من الإكرام والاعتناء، أم يعامل معاملة سيئة، مما قد يضطره إما إلى إفراز سموم الكره والحقد والفرار من مستضيفيه أو إلى الثورة عليهم ومحاولة الانتقام منهم، بحكم ما يرسب في نفسه من رسوبات وما يتركب فيها من عقد.

لم يعد يجاحد أحد في أهميـة تكوين الطفل منـذ السن المبكرة، جسما ونفسا وخلقا وفكرا، لأن أوعيته الفارغة قابلة للتعبئة منذ السنة الثالثـة بل حتى قبل ذلك، وقوة إستيعابه تكون مرتفعة منذ السن السابعة، وبقـدر مـا يسهل على المجتمع تكييف الطفـل وتصحيـح تـوجيهـه في هـذه السن المبكرة بقدر ما يصعب ذلك بعد أن يكون عود الطفل قـد نمـا معوجـا غير مستقيم أو يكون قد طبعت نفسه وجرى في عروقه ما غير صفاءها ونصاعتها.

موقف الإسلام :

وقـد يكون من المفيـد، ونحن في بلـد إسلامي أن نتعرف على مـوقف الإسلام من الطفل، فمن المعلوم أنـه، وهو ذو المصـدر الإلهي الخبير بـالنفس الإنسانية أولى للطفل وتربيته، وحمايته تشريعيـا، عنـايـة خـاصـة، فـأوصى برعاية مصالحه وحقوقه، خاصة وهو ضعيف البنية لا يستطيع بعدُ، الدفـاع عن نفسه، وهو عنصر إستمرار النوع البشري المطوق بمسؤولية الاستخلاف.

فلا عجب أن يحدد له الإسلام حقوقا ويدعو إلى إحترامها وحمايتهـا، وأن يفرض في نفس الـوقت على الـوالـدين والأقربين واجب الـولايــة على الطفل، وتربيته، مساعدة له على نمو طبيعي، وعلى شحـذ لمداركـه وتفتيح لمواهبه ومؤهلاته.

وقد ضمن الإسلام للطفل حقوقا بصفته إنسانا، يشترك فيهـا مع جميع البشر، وهي الحـق في الحيـاة والحـق في الحريـة والكرامـة والحـق في التعليم والحق في التملك.

وخص الطفل بصفة عامة بحقوق متميزة ما دام لم يبلغ سن الرشد وهي الحق في الرضاعة وفي الولاية، كما أنه جعل للطفل المحروم كاليتيم واللقيط وذي العاهة حقوقا إضافية، وحدد المسؤوليات في شأنها، كما ضبط الوسائل الكفيلة بحمايتها عن طريق التشريع والأحكام، وعن طريق الإحسان وسبل الخير.

ونقتصر، اختصارا للوقت على الاستشهاد، بالنسبة للحقوق العامة للطفل، بآيات قرآنية ثلاث تكفينا مؤونة الاسهاب والأطالة. قال تعالى : مدافعا عن الطفل في الحياة ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم**﴾ (سورة الاسراء) وقال : ﴿**وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾ (سورة التكوير) وقال أيضا : مدافعا عن حقوقه المادية : ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا**﴾ (النساء).

أراد الإسلام أن يحمي الطفل ويحصنه من كل ما يمكن أن يصيبه من أحداث وآفات وأن يجزئ المسؤوليات ويحددها. وقد ابتدأت هذه الحماية منذ الحمل فحرم الاجهاض، وبعد الولادة، فأوجب الرضاعة والحضانة والولاية على النفس وعلى المال وفرض تربية الطفل وتعليمه على والديه أو وليه وعلى الدولة وفرض على ممثل الشرع، وهو القاضي، المراقبة والتدخل عند الحاجة، أي كلما كانت مصالح الطفل في خطر.

وفي الوقت الذي جعل الحضانة للمرأة، جعل الولاية على النفس وعلى المال للرجل. والولاية على النفس تشمل صيانة الطفل، وتعليمه، والاشراف على سائر مصالحه المادية والمعنوية إلى سن الرشد أو الزواج بالنسبة للفتاة.

ويلاحظ في ولاية النفس ما يلي :

أ - للأب ثم الجد الحق الأول في القيام بولاية النفس على إبنه، ولا ينتزع القاضي منه الحق إلا إذا ثبت أنه غير أمين على مصلحة إبنه، وللقاضي في هذه الحالة أن يوكل ولاية النفس لعصبة الطفل أو أن يتركها للحاضنة.

ب - الأمانة شرط في ولاية النفس، فإذا ثبتت على الولي جريمة اغتصاب وهتك عرض، أو حكم عليه في جناية على محضونه. انتزعت منه ولاية النفس، باستثناء الأب أو الجد. وقد تبين أن إهمال الأولياء لمسؤوليتهم هذه أو عدم تنظيم المجتمع لهذه الولاية يشكلان سببا من أسباب التشرد وسوء تربية النشئ.

أما الولاية على المال فتكون على الصغار وكذا على المجانين والسفهاء وتسقط على الصغار ببلوغهم سن الرشد.

وزادت عناية الإسلام بالطفل، فخص بالوصاية والتشريع بعض الفئات نذكر منها على وجه الخصوص اليتامى واللقطاء.

فقد أوصى القرآن برعاية اليتامى وعدم إذلال نفوسهم، قال تعالى : ﴿**وأما اليتيم فلا تقهر**﴾ وحض النبي ﷺ على كفالتهم بقوله : «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» (أي متجاوران) وكأني بمنزلة كافل اليتيم تصل إلى درجة النبوة.

وفي الوقت الذي شدد فيه القرآن الوعيد لمن يأكل مال اليتيم، حث على الانفاق على اليتيم قائلا : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما

وأسيرا» وقال النبي ﷺ : «الساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله تعالى».

واللقيط في الإسلام لا يتحمل وزر أبويه، ولا يجوز أن يظل بدون كفالة من لدن المجتمع. ولذلك كان التقاطه فرض كفاية على المسلمين، وهو حر وولاؤه للمسلمين، ونفقته من ماله أي مما وقف على اللقطاء أو ما وهب لهم، أو وجد معهم، فإن لم يكن له مال، فنفقته على بيت المال، إلا أن يتبرع أحد بالانفاق عليه.

حرص الإسلام على حماية الطفل حماية كاملة، بالوقاية والتشريع وبالتأكيد على العناية بتربيته روحيا وخلقيا ونفسيا، وفتح ذرائع الخير والعمل الصالح في وجهه وسد ذرائع الشر وعمل السوء، بالنصح والقدوة والزجر إن إقتضى الحال.

وخص القرآن اليتيم، وهو الذي فقد السند الأساسي في أحد الوالدين أو فيهما معا، بآيات بينات، تعد روعة في السمو والرعاية ويكفي أن نسترشد بالآية التالية : ﴿**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا**﴾ (النساء).

وقد أدرك المجتمع الدولي أهمية الاهتمام بالطفل فأصدر إعلانا بحقوق الطفل يدعو إلى «أن يكون للطفل حق التمتع بوقاية خاصة وأن تتاح له الفرص والوسائل... لكي ينشأ من النواحي البدنية والروحية والاجتماعية على غرار طبيعي وفي ظروف تتسم بالحرية والكرامة». «وأن يكون له الحق

في التغذية الكافية والمأوى والرياضة والعناية الطبية» «وأن تضمن له الوقاية من كافة ضروب الإهمال والقسوة والاستغلال...الخ».

ومما لا ريب فيه أن قيمة هذه الإعلانات والتشريعات كامنة في تطبيقها.

والطفل مادة خام وأرض خصبة قابلة للاستثمار والتوجيه، الأمر الذي يقتضي اتباع الطرق المناسبة الصالحة، ويقتضي قبل ذلك، ضرورة التعرف على الأرضية ومحيطها البشري والاجتماعي.

إن كل بناء في حاجة إلى دراسة نوع الأرض التي سيقام عليها البناء ثم إلى وضع أساس صلب يستطيع تحمل ثقل البناء دون أن يتشقق أو يتحطم ثم إلى تحضير المواد الضرورية للبناء وأخيرا التعهد والصيانة.

فمن الضرورة بمكان، إقامة بناء قويم على أساس متين، ثابت من تلقين الطفل القيم الاخلاقية والروحية، وتمكينه من أدوات المعرفة والإدراك والسلوك، ومراقبة وتقييم البناء في كل حين وتصحيح إنحرافاته وخلله إن إقتضى الحال.

ومن أخطر ما يهدد سلامة هذا البناء الإهمال وترك التربية للصدفة مع العلم أن التحضير المنهجي والوقاية أهم من الإصلاح والعلاج، وخاصة إذا تمكن الداء واستعصى علاجه.

إن الطفل، بصفته إنسانا جبل على غرائز ونزعات إذا لم تهذب، وتحصر في حجمها المطلوب، طغت على نفسية الطفل وكونت منه قوة عمياء تندفع به نحو الهاوية، وكلما تركت وشأنها، كلما زادت قوة اندفاعها

ويصبح من الصعب جدا حصرها وتهدئتها وتقويم عناصرها. فالطفل مجبول على تحقيق الذات والحفاظ على النفس والأنانية، وفضول المعرفة والكشف والتجربة، وقصر النظر والاستعجال واللامبالاة، كما أنه مفطور على الحرية وروح المساواة والتعاون والبذل أي أنه قابل فطريا للحياة الاجتماعية وللتكيف معها، شريطة ألا يشعر بأن المجتمع يلفظه، أو يهينه.

بطبيعة الحال، سرعان ما يطغى تأثير البيئة الخاصة والعامة التي يعيش فيها الطفل فتصبح للمكتسبات الكلمة الأولى، فتغطي على الغرائز الخيرة، لتترك المجال للغرائز الخبيثة، ويظهر ذلك جليا في الفرق بين طفل الحاضرة وطفل البادية، بين الأطفال المنتمين لشرائح إجتماعية، اتسعت بينها الفوارق الاجتماعية الخ...

ضرورة وضع إستراتيجية وطنية لتربية النشئ :

يتبين مما سبق أن من واجب الدولة، والبنية الفوقية والشرعية المسؤولة عن الطفل، أن تضع استراتيجية شاملة لتربيته، تدخل في عناصرها الأسرة ومؤسسات التعليم، والهيآت الاجتماعية وجميع وسائل الإعلام على أن تتظافر جهود جميع هذه المؤسسات في تنسيق عملها وتكييفها في إنسجام، مجتنبة كل نوع من أنواع التناقض.

إن بالإمكان التأثير على الطفل مباشرة أو بالواسطة عن طريق أبويه أو معلمه أو رفاقه، وكذلك بتسخير البيئة المحيطة به، المادية والأدبية والاجتماعية، ومن أجل ذلك لا بد من تحسين البنية التحتية للبيئة

الاجتماعية، وإصلاح مواطن خللها، وتحصينها قانونيا وتطبيقيا في نطاق استراتيجية عامة.

وبالإمكان التأثير على الطفل بالمنطق الفطري السليم، بالترغيب وإثارة ما جبل عليه من فضول ورغبة في الاطلاع، بالإمكان التأثير عليه بمساعدته على الاكتشاف بنفسه بالوسائل المحببة إليه من لعب وتمثيل ومسابقة، وبكل ما يدخل السرور والبهجة في النفوس، تزكية لشعوره بأنانيته وكرامته. أو بتحذيره وتخويفه وزجره إن إقتضى الحال لأنه في حاجة إلى تعلم الانضباط والإذعان لما تقتضيه التعاليم الروحية والتعبدية أو الأعراف الاجتماعية السليمة، وبقدر ما هو في حاجة إلى التكيف مع المقتضيات الروحية والاجتماعية،التي هي الأرضية الصلبة المشتركة بين سائر أفراد المجتمع والتي تشكل عماد الذاتية المميزة للمجتمع، بقدر ما يتعين إستغلال قابلية الطفل واستعدادته لتفتيح مواهبه وطاقاته وتأهيله ليصبح عضوا صالحا في الكيان الاجتماعي شاعرا بضرور الاندماج في حظيرة المجتمع، متعاونا مع أفراده، سواء كانت ظروفه عادية أو استثنائية، كأن يكون ذا عاهة أو يتيما أو ينتمي إلى أسرة فقيرة إلخ.

إن مدارك الطفل تنشط دون أن ينتبه إليها الكهل أحيانا، ولذلك نجد الكهل يقص على غيره ما فاجأه به طفل ما، فالطفل يلاحظ ويقارن وينصت وهو يلعب، ويتساءل عن أسباب الفوارق بينه وبين غيره من الأطفال في اللباس، في الحياة المنزلية، في التغدية، في وسائل النقل إلخ، ثم يكتشف تدريجيا أن الفوارق موجودة لا مفر منها، ويكتشف أن المجتمع ينافق، ويمايز، ويظلم، فإما تنمو في نفسه روح الانتقام والرفض والخصام والعداء والعنف، وإما روح القهر والاستسلام والاستلاب.

ومن هاتين الحالتين غير العاديتين، تتركب عند الطفل العقد النفسية الضارة بتربيته التربية القويمة الصالحة وبتأهيله للاندماج في المجتمع والمساهمة فيه وفي تقوية كيانه ونمائه.

ولذلك، فسواء أخذنا بالاعتبار ضرورة خلق البيئة المحيطة الصالحة للطفل لتوجيهه التوجيه السليم أم أهملنا ذلك، فالطفل يكون نفسيته ومزاجه وآراءه بنفسه استنتاجا مما يسمعه ويراه ويحس به، فالقدوة والمثال والنماذج السلوكية لها آثار حاسمة على تربية الطفل وتكوين شخصيته، على أن هذه الآثار إما أن تكون إيجابية نافعة أو سلبية مسيئة.

ويتجلى للطفل بوضوح، إرتباك المجتمع فيما يريد أن يلقنه إياه، أو إهماله أو تناقضه أو نفاقه من خلال وسائل التبليغ والتلقين ومن خلال الواقع المعيش، فمن أسوء الآثار على الطفل أن يتلقى التوجيهات والمعلومات متناقضة بين ما تبلغه المدرسة ووسائل الإعلام كالإذاعة والتلفزة أو بين ما يسمعه من أبويه أو معلميه، أو بين ما يبلغه عن طريق هذه الوسائل كلها، وبين ما يراه في وقاع الأمر، جهرا أو خفية.

وسرعان ما يكتشف الطفل الواقع الحقيقي الملموس الذي يغلب فيه النفاق والكذب والغش والتلبس، والميز، والاستئثار فيكون رد الفعل عنده، إما الثورة والنقمة على هذا المجتمع الفاسد الكاذب فيفقد الثقة في كل ما يقال له ويلقن، بما فيه ما يصدر عن الوالدين أو أفراد الأسرة أحيانا، وإما قبول الواقع وإعتباره هو السبيل الذي ينبغي اتباعه بكل ما يتسم به من مساوئ، وأنه هو قاعدة اللعب التي يعمل بها، حتى ولو لقن عكسها، بل إن الطفل يكتشف أن خداع المجتمع يمكن أن يصل إلى درجة «اعمل غير ما تقول، وتحايل حتى لا يوجه إليك صك الاتهام».

الإيجابية والسلبية في تربية الطفل :

بناء على كل هذه المعطيات، ما يتعلق منها بالطفل، وما يتعلق بمحيطه وكل ما له علاقة مباشرة به، وما يتعلق بوسائل الاتصال به والتأثير عليه، يمكن توجيه الطفل إما وجهة الصلاح أو إما وجهة الفساد والمسألة ذات أهمية قصوى، لا تحل بالارتجال والاهمال واللامبالاة، أو إغفال عنصر من العناصر الأساسية في هذه العملية وخاصة العناصر البشرية، والحقيقة أنه ينبغي عند إحكام استراتيجية ووضعها مواضع التنفيذ، البدء بأنفسنا بصفتنا آباء ومربين أو مسؤولين في الدولة وفي المجتمع، إذ سيكون أطفالنا كما يرون وجوهنا الحقيقية، وحسب الصورة التي يستخلصونها بأنفسهم لا كما نحاول تلقينها اياهم.

ومشكلة تربية الطفل من خلال والديه ومعلميه ومحيطه الاجتماعي جعل بعض الدول تحاول معالجة المشكل حسب استراتيجية وتجارب معينة.

ويسعدنا أن نتحدث بإيجاز عن تجربة بياناما، بمساعدة منظمة الأمم المتحدة للطفولة.

أنشأت هذه الدولة مراكز لتوجيه الطفل والأسرة معا في الفترة ما قبل المدرسة الابتدائية بهدف مضاعفة حظوظ الأطفال ذوي الأوضاع المعوزة.

وقد اهتمت هذه المراكز بالبيئة، وبخلق علاقات جديدة بين الطفل والمعلمة وبين الأم والطفل وبين الأم والمعلمة، وعملت على أن تكون أغلب المعلمات من نفس المنطقة كما سعت في إشراك تكون أغلب المعلمات من نفس المنطقة كما سعت في إشراك الجماعات المحلية.

ومن النتائج التي توختها هذه المراكز واستطاعت أن تبلغها بنسبة جيدة :

إن الأطفال ينمو ذكاءهم وتشحذ مداركهم في هذه المراكز، ويشعرون باستقلال شخصيتهم، ويقل خوفهم من الناس، ويتحسن سلوكهم في بيوتهم، وترتفع جرأتهم وبذلك يصبح لهم استعداد أكبر للإندماج في المجتمع والتكيف معه، ويسير نموهم الفكري، والنفسي والاجتماعي نموا عاديا متزنا.

وقد قامت السلطات البانامية بتقويم النتيجة، بإخضاع هؤلاء الأطفال إلى اختبارات متنوعة وتبينت صلاحية هذه التجربة إذ أن الطفل المتخرج من هذه المراكز يستطيع بسهولة اتباع دراسته الابتدائية بصفة عادية ومرضية.

على أن هذه التجربة همت مجموعة عمرية معينة، وهناك مجموعات عمرية أخرى، مثلا من السن السادسة أو السابعة إلى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ومجموعة من الرابعة عشرة إلى الثامنة عشرة أو إلى العشرين وهي سن المراهقة، ولكل من هذه مجموعات مدارك تصبح ناضجة وإحساسات تصبح قوية. فالوسائل التلقينية والإخبارية والتربوية الصالحة لمجموعة ما لا تكون صالحة بالضرورة للمجموعتين الآخريين وهذا مما يضاعف تشعب المشكل ومما يحتم أحكام استراتيجية التربية والتوجية.

ومما توصي به منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة في أحد تقاريرها، بعد أن اتضح لها أن ارتفاع تكاليف النظام التعليمي المعهود والمستورد يعوق تعميمه ولا يجيب لمتطلبات التنمية الاقتصادية الذاتية :

إقامة استراتيجية شاملة تستطيع تلبية الحاجات من المعرفة واكتساب المهارة عند جميع أفراد الجماعة بالطرق الشكلية وغير الشكلية، وبهدف الاكتفاء الذاتي ومشاركة الجماعة في تحسين ظروف عيشها.

ويضيف التقرير أن الأنشطة العلمية الموازية للعمل المدرسي، تنمي ملكة الإبداع التكنولوجي، وتلعب دورا تصحيحيا أساسيا لسد بعض ثغرات التعليم المدرسي.

ألم يحن الوقت للتفكير بصفة جدية، جذرية وشاملة، في هذا المشكل الجوهري، الذي يرهن مستقبل البلاد، ويجعل كثيرا من الأخطار تحدق بها، إذا لم نبادر إلى علاجه.

بلادنا بلاد إسلامية، وبهذه الصفة تومن بالقيم والأخلاق الإسلامية، وهذه من أهم مكونات ذاتيتنا القومية والروحية، بلادنا تومن بالحرية والديمقراطية، بضرورة التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي تومن بحتمية استعمال العلم والتكنولوجية في هذه التنمية، تومن بأن استثمار الطاقات البشرية هو أهم استثمار بدون منازع، وتعلم أن لوسائل الإعلام. كما هو الشأن بالنسبة للمدرسة، وللأسرة، وللبيئة المحيطة مباشرة بالطفل، أثر عظيم في تربيته وتوجيهه، وتعلم أخيرا أن الوقاية أفضل من العلاج ولا سيما بالنسبة لتكوين الطفل، الذي تصاغ طبيعة شخصيته المزاجية والنفسية منذ صغر سنه، وقليلا ما تتغير في الفترات العمرية اللاحقة.

إن قضية الاستقلال الإعلامي اليوم كالاستقلال الاقتصادي بات ضربا من الخيال، إذ الحصول عليه أصبح أصعب من الاستقلال الثقافي، وهذا مما يزيد الطين بلا في صعوبة توجيه الطفل إعلاميا وتربويا.

إن سلطان وسائل الإعلام الجماهرية بلغ درجة من القوة والاتساع والهيمنة على النفوس، نفوس الكهول والأطفال يكاد يكون من المستحيل معارضته أو هزمه، خاصة وأنه بالنسبة للدول السائرة في طريق النمو، ليس فيه تبادل وإنما يسير في اتجاه واحد، من الدول المتقدمة، القوية نحو الدول النامية الضعيفة.

إن إرسال المعلومات والأخبار، والصور عن طريق الأقمار الاصطناعية، وإن تقدم التقنيات الإعلامية، والانتشار العظيم للوسائل السمعية البصرية للإعلام ومن بينها من استقلت عن مصادر إصدارها، قربت بين مناطق العالم ودوله وكشفت كثيرا من العورات والأسرار.

إن تعميم الإذاعة والتلفزة والسينما والآلاف من الصحف والمجلات والنشرات، وخدمات البريد والبرق والتليكس، وتداول الأشرطة المسجلة من مختلف الأنواع والأحجام، بالصوت وحده وبالصوت والصورة (الڤيديو) الخ، كل هذا خلق قوة جهنمية تسير بأقدام فولاذية لا سبيل إلى إيقافها، تداهم كل المجموعات البشرية في عقر بيوتها وتغطي عليهم جميع لحظات وقتهم وفراغهم، وتنفث في نفوسهم ما تريد أن تنفثه بدون مراقب ولا رادع ولكن ما العمل أمام هذه القوة الطاغية الزاحفة، العابثة والفتاكة أحيانا بالنفوس ؟ يظهر في أول وهلة أنها قوة لا تغلب، وأن أفضل الحلول هو في الاستسلام إليها، وكثير من المجتمعات في الدول النامية تختار الاستسلام، انهزاما، أو جهلا لحقيقة الأمر أو إهمالا، لا سيا وأن أثرها المرضي الفتاك لا يظهر اعراضه إلا تدريجيا، بعد المراس.

إن أخطر موقف يقفه إنسان أو مجتمع أمام خطر محدق، هو أن يجهله أو يتجاهله أو يحقره، وأسوء علاج يعالج به هذا الداء هو أن يغفل عنه أو يحال تسكينه بمسكنات وبصفة ارتجالية، عشوائية.

لقد سبق للاستعمار السياسي والعسكري أن هدد كيان كثير من الدول المختلفة، واستطاعت كثيرها الانعتاق منه، وخلف هذا الاستعمار الهيمنة الاقتصادية التكنولوجية ومحاولات الغزو الثقافي والفكري وتواكب الآن هذه الجحافل الجديدة قوى استيطانية نافدة إلى الأعماق، قوى وسائل الإعلام والاتصال.

فلا مفر من استقبالها عن طوع أو كراهية، ولكن بالإمكان إبطال مفعولها أو على الأقل جزء منه بأمور ثلاثة، بعد أن نعي وعيا كاملا بخطورتها وفعالية أساليبها :

أ - وضع استراتيجية إعلامية وتربوية شاملة ومنسجمة والتخطيط لتطبيقها من أجل الحد من مساوئ الإهمال والارتجال ومواجهة جحافل الغزو الثقافي والإعلامي التي تحمل في طياته عوامل مسخ حضارتنا وذاتيتنا.

ب - تقوية الأرضية الصلبة في نفوس أطفالنا وشبابنا :

1 - بملئ فراغ تكوينهم بأكثر ما يمكن من مبادئ ومعلومات عن هويتنا الخاصة، وعن قيمنا

2 - بغرز الإيمان في نفوسهم بهذه القيم والأخلاق الإسلامية الفاضلة، والسهر على أن يمارسوها في سلوكهم.

3 - بظهور الآباء والمربين والمسؤولين بمظاهر القدوة والمثل الصالح.

ج - العمل على توجيه الإعلام المستورد باختيار ما هو صالح منه ونبذ أو مقاومة ما يكتنفه ضرر تربوي أو أخلاقي أي ما من شأنه أن يعبث بتلك الأرضية المحصنة أو يخلق في نفوس الناشئة اضطرابات نفسية أو خلقية يمكن أن تنتج عنها أو خم العواقب ومن المعلوم أن هذه التدابير يكمل بعضها البعض الآخر وأن التغافل عن أحدها، وبالاحرى عن اثنين منها أو عنها كلها، يعرض مسيرة بلادنا الحضارية والثقافية، وبالتالي الاجتماعية والسياسية إلى الخراب، وهويتنا إلى المسخ أو الانمحاء.

وواضح للعيان أن بعض الأخطار قد برزت وانتشرت بوادرها : منها ضعف القوة الروحية المحصنة والسلطة المعنوية للاباء والأسرة ومنها انتشار الفساد وتناول المخدرات، ومنها العديد من الأمراض الاجتماعية، فإذا أضيف إلى هذه العوارض الفقر والعاهة أو العوق الجسمي أو الذهني، تضاعف نخر جسم المجتمع، وأصبح طعمة سهلة لكل معتد أثيم.

فليتق الله أولو الحل والعقد، في أبنائنا وفي مستقبل بلادنا، وليأخذوا قضية الإعلام والتربية بالجدية والفعالية والحزم اللازم قبل أن يفوت الأوان وتعسر الحلول. وأن العصر عصر العلم والتخطيط المحكم، وتفوق التكنولوجيا والإعلاميات.

وفي الوقت الذي يتحتم علينا مواكبة عصرنا وملاحقة الركب المتقدم يتعين علينا أيضا أن نحافظ على ذاتيتنا وشخصيتنا المميزة لنا عن غيرنا، لأنها المحصنة لنا من الذوبان في غيرنا ومن الشعور بالاستلاب لهويتنا فبها نحيا ونعتز وتتنافس ونجاهد، وهي عنوان كرامتنا واعتزازنا والسلام.

الرباط : **محمد ابن البشير**

الإسلام والغرب(*)
محاور التحدي وشروط المواجهة

د. حسن الوراكلي

تقديم :

أحب بادئ ذي بدء أن أتوجه بالشكر الجزيل لأخينا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب بوحديبة على تفضله بدعوتنا للمشاركة في هذه الندوة الفكرية الهامة التي يحقق بها مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية تحت إدارته وبفضل توجيهه إنجازا مباركا. يضاف إلى إنجازاته السابقة، في مجال الدرس الموضوعي المبرأ من الأهواء والعصبيات للإسلام بوصفه دينا وشرعة، وثقافة وحضارة.

والموضوع الذي أحببت أن أسهم به معكم، حضرات السادة الأساتذة، في هذه الندوة وهو : (الإسلام والغرب : محاور التحدي وشروط المواجهة)

(*) نص المساهمة التي قدمها الكاتب لملتقى (واقع الإسلام وتحديات العصر) المنعقد بتونس من 12 إلى 16 نوفمبر 1984 بدعوة من مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية.

موضوع على جانب كبير من الأهمية والخطورة والشأن لتعلقه بإشكالية الإسلام العقدية، والفكرية، والحضارية، حالا، ومآلا : ومن هنا فإنه على الرغم مما أدير حوله من قول، لا يزال في رأينا، بحاجة إلى مزيد من الدرس والبحث، يتسنى بهما تسليط مزيد من الأضواء لاستجلاء مكامن الداء وتشخيصه أولا، ثم استكشاف مصادر الدواء واقتراح أساليب العلاج ثانيا، وبهذا وذاك يتحدد المسار وتتضح سبل السلام التي ليس من سواها يؤدي إلى البعث والنشور الحضاريين اللذين ننشدهما لأمتنا.

☆ ☆ ☆

أ ـ الإسلام : الرؤية والفعل :

بلور الإسلام، من خلال القرآن والسنة، تعاليم، ومبادئ، ومثلا وقيما، تتحدد بها صورته على المستويين : الرؤية والفعل.

أما من حيث المستوى الأول فيمكن القول بأن أهم ما يميز هذه الرؤية أنها شاملة، كلية للكون، والحياة، والإنسان، ليس لأي دين ولاية إيديولوجية، ولأية فلسفة، مثلها سعة أفق، وعمق جوهر، وواقعية هدف. لقد قدم الرسول ﷺ هذه الرؤية، بالقرآن حينا، وبالسنة أخرى، للإنسان حيثما كان موقعه في الزمان وفي المكان، منظورا متميزا في الأخلاق والاجتماع، ومنهجا جديدا في السياسة والحكم، وأسلوبا مبتكرا في المال والاقتصاد، ينتظمها جميعا خيطان من عدل وتقوى، وأي شيء آخر كانت تنشده الإنسانية وتنشده، يومها، غير عدل، يعصم الناس من نار الفتن، ويقيهم شرورها، يتفيأون ظله، يبدعون تحته لحضارة التوحيد وينشئون ؟

وأي شيء كان يعوز البشرية، ويعوزها، يومها، غير تقوى ترد عليها عافية افتقدها وجدانها، ووعيا عدمته ذاكرتها، ورشادا تنكرت له خطاها ؟

من ثم أبانت هذه الرؤية عن حقيقة هذا الدين في كونه معرفة فاعلة مؤثرة، نقدية، واعية، بهديا يقاوم المؤمن الباطل والخبيث، ويدحض المفتريات، وبهديا يمجد الحق والطيب، ويتأبى على الشر.

ولقد كانت هذه المعرفة هي التي صاغت تلكم النماذج الإنسانية السوية من حول رسول الله ﷺ أمثال أبي بكر الصديق والفاروق عمر وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم كثير من أفراد هذا الجيل العظيم الذي تلا عليه محمد ﷺ آيات ربه، وعلمه الكتاب والحكمة، وزكاه، فوعى، وأدرك، وتمثل، ثم انطلق ينفذ إرادة الله تعالى ويجسدها تنبض بالحياة، وتختلج بالحركة في مجتمع الخير، والعدل، والخصب.

وأما على مستوى الممارسة فقد ترجم رسول الله ﷺ، ومعه الذين اتبعوه، مقاصد هذا الدين الكبرى كما تبلورها رؤيته الشاملة الكلية، إلى سلوك وفعل أكدا معا بكامل الجلاء والوضوح أن رسالة هذا الدين رسالة تغيير واستشراف. ولأنها كذلك فلم يكن هذا الدين طقوسا تأملية، ولا رهبانية استغراقية، ولا انعزالية هاربة. حقا، إنه قبل كل شيء عبادة، لكنها عبادة من نوع خاص وفريد، أهم ما يميزها، في متباين وجوهها، أنها اجتماعية المحتوى، جماعية المقصد. ومن هذا المفهوم العميق للعبادة اكتسب هذا الدين فعاليته، وحركتيه، وأخلاقيته، وبها جميعها كان يجهر بالحق، ويتصدى للباطل لينجز وعد الله في قيام مجتمع لا أنانية فيه، ولا استغلال، ولا موسع في إفحاش، ولا مضار في معاش. وإذا كانت هذه المفهومات مما

اضفى ويضفى على هذا الدين طابع الإيجابية، والتطور، والمستقبلية فإنها دالة على حرص هذا الدين على قيام ذلك المجتمع المثالي، مجتمع الأخلاق الذي يعتمد المساواة بين أفراده في الحقوق والواجبات، منطلقا لتحقيق العدل، والكرامة، والحرية، وهذه هي القيم التي دعا الإسلام الناس كافة إليها وألزمهم بها وآخذهم بالتفريط فيها، وكان من ثم دينا حضاريا، متميزا.

ولكي يقوم هذا المجتمع الواعي، الهادي، المسؤول، كان لابد من تربية الفرد وإعداده على نحو فريد في التربية والإعداد، من أجل ذلك جاءت منظومات المثل والقيم في هذا الدين لتتمحور، بالأساس، على الإنسان، ذاتا وموضوعا، بوصفه (الخليفية) الذي كرم بالعقل، ودعي باسم العقل إلى نبذ السكونية، والرهبانية، والانعزالية، والإقبال على ممارسة الحياة، وتعمير الأرض، واستغلال الكون، ومن هنا ندرك السر فيما ألحت عليه مقولات هذا الدين وأطروحاته من شحذ الطاقات الفكرية والنفسية، وتفجير المواهب العقلية والوجدانية في الإنسان ليتسنى لها أن تبذر في سويداء قلبه الرغبة التي لا تكل ولا تفتر في الحركة الهادية، والسعي الملتزم إلى اخضاع ما تحفل به الحياة، فردية وجماعية، من ارتباطات وأحداث، لمنطق الكون المتوافق، المنسجم. ومن خلال تلك الحركة الهادية، والسعي الملتزم تتحقق، وتتألق، بالآن عينه، رسالة الإسلام التغييرية، الاستشرافية...

وبالبداهة، فإن الموقع الذي يتحتم أن يحل فيه الإسلام ليحقق في حياة الناس الخاصة والعامة تلك المقاصد الكبرى هو دائما موقع قيادة، موقع القيادة في «الحكم» أو موقع القيادة في «المعارضة»، وما سواهما من «مواقع» التبعية، والهتافية، والحضور المجاني يرفض الإسلام أن يحل فيها لأنها مواقع الغارة على الوعي بالذات الفردية والجماعية، وبأي موقعي القيادة

حل الإسلام فهو حرب على الواقع الذي يجذر الطاغوت والاستغلال تحسب فيه على الإنسان أنفاسه أو يترك سدى ! [1].

تلكم هي صورة الإسلام، على مستوى الرؤية والفعل، لا ريب أنها بقدر ما شحذت وتشحذ نفوس المومنين حتى يكونوا أدلة هداة، أثارت، وتثير المخاوف في نفوس أئمة الكفر وأتباعهم، وهي المخاوف التي عبر عنها غلادستون رئيس الوزارة البريطانية عام 1882 حين وقف في مجلس العموم البريطاني وقد أمسك بيده نسخة من المصحف الشريف يقول لهم : (إنه ما دام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد، ولا أن تكون أوربا في أمان).

كما عبر عنها بن جريون حين قال : (إننا لا نخشى القوميات والاشتراكيات والديموقراطيات في المنطقة، ولكن ما نخشاه هو الإسلام، ذلك المارد الذي نام طويلا ثم أخذ يستيقظ من جديد).

ومن هنا كانت المواجهة بين الإسلام وبين القوى المضادة له تأججت منذ اليوم الذي ارتضى فيه الله سبحانه وتعالى الإسلام دينا للبشرية، يوحي بتعاليمه ومبادئه إلى أنبيائه ورسله من لدن إبراهيم عليه السلام إلى محمد بن عبد الله ﷺ، وستظل هذه المواجهة متأججة، مستعرة، إلى يوم الدين، لأنها، في الجوهر، مواجهة بين الحق والباطل، وبين الاستواء والإكباب.

---

1) انظر، د. حسن الوراكلي (الومضات - خواطر في الدين والحياة/ منشورة في صحيفة النور، ع 87 س 8.

ب ـ الغرب : الثقافة والحضارة :

لسنا نريد بالغرب، هنا، منطقة بعينها على وجه الأرض، ولا نقصد به نظاما بالذات في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع. وإنما الذي نعنيه بـ (الغرب)، بصرف النظر عن هذا وذاك، تصورا أفرزته ثقافة ذات خصائص مميزة، وبلورته حضارة ذات خصائص مميزة هي الأخرى. أما الثقافة فهي تزعم كما يتحدث المفكر رجاء غارودي، وهو الذي كان رضع ـ قبل أن يهديه الله تعالى للإسلام ـ لبنها، وسبر غورها أن الحياة مقصورة على الضرورة والمصادفة كما يقول واحد من علماء حياتها، وعلى الشهوة العابثة كما يكتب واحد من فلاسفتها، وعلى العبث، فقدان المفسر، كما يعلن واحد من روائييها، وعلى موت الإله، وموت الإنسان، وموت كل شيء كما يردد على مسامعنا الأنبياء المزيفون لهذه العدمية (عقيدة العدم)[2]. وتقوم هذه الثقافة كما يعقب غارودي نفسه، بعد ذلك، على أربعة مبادئ هي :

1 ـ الفصل بين العلم والحكمة، أي بين الوسائل والغايات.

2 ـ إخضاع كل واقعة إلى التصور والقياس، فينتفي بذلك الجمال، والحب، والإيمان، والمعنى.

3 ـ الفردية التي تجعل من الأفراد أو الجماعات مركزا ومقياسا لكل شيء، وتجعل من كل «نظام» توازنا مؤقتا (قلقا) بين الأطماع المتنافسة لهؤلاء وهؤلاء.

---

2) انظر، رجاء جارودي، الإسلام وأزمة الغرب ص 14.

4 ـ إنكار التعالي، مما لا يمكن معه التخلص من هذه الانحرافات، والقناعة بحتميات تنمية ذات طابع كمي محض، تنفي الإبداع، والحرية، والأمل[3].

هذه المبادئ الأربعة هي التي قادت الغربيين (خلال خمسة قرون في طريق مسدودة، غير نافدة، ولو ثابرنا على السير في الطريق نفسها فلا ريب أنها ستؤدي بنا إلى الانتحار الكامل)[4].

ومن المسلم به أنه أية أمة من الأمم لابد أن تكون وراء سلوكها، وممارستها وموقفها ثقافة ـ بأوسع معاني الثقافة ودلالتها ـ تجري منها مجرى الدم، وهكذا فإن ثقافة الجشع والأنانية تهب أصحابها منطق النهب والاستغلال مثلما تمنح ثقافة الحقد والكراهية عقلية العدوان والتسلط، وتصوغ ثقافة الإيمان والاستعلاء روح التضحية والاستشهاد. ومن هنا كانت مسؤولية (الثقافة) عما تفرزه من معلومات ومهارات ومنجزات تؤلف فيما بينها ما يصطلح على تسميته بـ (الحضارة) التي قد يفسر في كثير من الأحيان، مثلما هو الشأن بالنسبة لحضارة الغرب، الفصل بين المادي والمعنوي من العناصر التي تؤلف نسيجها. وحقا أنه لا سبيل إلى إنكار ما حققه الغرب بفضل تقدمه العلمي من مبتكرات ومخترعات بدت بها هذه الحضارة براقة، خلابة، تسحر أعين الناس وتستحوذ على ألبابهم، غير أننا عند التأمل في التطبيق الغربي لمبتكرات حضارته ومخترعاته سرعان ما نكتشف أنه، أي الغرب (فصل بين العلم والحكمة، أي بين الوسائل والغايات،

---

3) نفسه، ص 15 ـ 16.

4) نفسه، ص 16.

فكان المحرك الأساسي لتنمية العلوم والتقنيات في الحضارة الغربية هو إرادة القوة والربح سواء كانت هذه الإرادة إرادة الأفراد أم الجماعات أم الأمم، العلوم والتقنيات هدفها في الغرب إشباع الحاجات التي يشترك فيها الحيوان والإنسان : الغذاء، الكساد، المأوى، الدفاع، الهجوم).

ولعل هذا هو ما يعلل رواج (صناعات) جديدة في كنف هذه الحضارة ورعايتها، ففضلا عن الصناعات التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية في الغرب منذ القرن الماضي فإن ثمة، اليوم، جديدا من الصناعات لا يدخر أصحابه جهدا في النهوض به، وترقيته، والدعاوة له، وهذه الصناعات متعددة مثل صناعة الجنس، وصناعة المخدر، وصناعة الإرهاب، وشأنها شأن غيرها من صناعات الفولاذ والحديد والبترول تقوم على استغلال الإنسان واستنزاف قواه بهدف الربح والربح وحده. ومن الحق أن نقول بأنه منذ أن بدأت تلك الصناعات تغزو مجتمعات الغرب بدأت الكتابات تتوالى، نضاحة بالمرارة، حول الانهيار الأخلاقي المرعب الذي بات يتهدد الغرب في وجوده الاجتماعي، والاقتصادي، والحضاري، وقد تضادت الآراء واختلف وجهات النظر في تحديد أسباب ذلك الانهيار، وكان غير واحد من الكتاب ينتهي، بعد الدرس، والتحليل إلى وضع اليد على سبب هام ورئيس فيا أصاب ويصيب، أول النهار وآخره، صرح الأخلاق من تداع وانهيار، ولم يكن ذلك السبب سوى (الإيمان) الذي نضب معينه في الفكر، وخمدت جذوته في الوجدان، فأصاب النفس، من جراء ذلك، ترويع وتشريد، فقد معهما الإنسان في ظل حضارة الاستهلاك والربح قدرته على التميز بين الصالح والطالح، لأنه، أو بالأحرى، لأن ثقافته، وهي التي أثمرت حضارته، لم تلحم بين العلم والإيمان في إيجابية، يمتزج فيها المادي بالروحي، تضع

الكسب المعرفي في إغناء قدرات الإنسان الفاعلة في تعمير الكون وتسخيره[5].

تلكم هي صورة الغرب، من خلال ثقافته وحضارته، لا فرق فيها بين وجهها الليبرالي أو وجهها الشيوعي، وهي صورة على سلبياتها وتردياتها، لا تعدم جوانب من الفعاليات العلمية والتكنولوجية للمسلمين أن يفيدوا منها في إطار تصورهم الإيماني للعلم، وهم يتأهبون للبعث الحضاري، وهو ما سنعود إليه في موضع آخر من هذه الدراسة.

ج - الإسلام والغرب : ملابسات اللقاء وظروفه :

قبل أن يتم اللقاء في العصور المتأخرة بين الإسلام والغرب كان سبق لهذا وذاك أن تلاقيا، من قبل، في الحرب أحيانا، وفي السلم أخرى، لكن لقاء الحروب، ونعني بها وبدرجة أولى، الحروب الصليبية في المشرق وفي المغرب، والتي استمرت مدى قرون هو الذي عمق الهوة بين الإسلام والغرب، الأمر الذي ازداد به بينهما سوء التفاهم واشتدت البغضاء، على أنه، كما يقول المستشرق درمنجهم، (مما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من جهة المسيحيين)، أما تسامح المسلمين فأمر معروف ثابت بالأدلة والبراهين، وهذه شهادة بذلك يدلي بها «ريتشارد ستبر» وهو تاجر إنجليز كان في تركيا سنة 1578 مؤكدا أن الأتراك المسلمين كانوا يسمحون (للمسيحيين جميعا، للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية، وفي

---

5) انظر، الومضات، النور ع 104 س 9.

أماكن أخرى كثيرة جدا...) ولا شك أن هذا الإرث من العداء والكراهية، فضلا عن عوامل أخرى مستجدة، كان مما دفع بالغرب دفعا في العصور الحديثة إلى مهاجمة (الإسلام) في عقر دياره انطلاقا من حملات التنصير الكنسية مرورا بهجمات الاستعمار العسكرية، وانتهاء بغزوات الإيديولوجيات والتيارات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية...

فما هي الملابسات والظروف التي كانت تكتنف واقع الإسلام والغرب إبان هذا اللقاء الذي تم منذ نحو قرنين من الزمان ؟

أما بخصوص واقع الإسلام، وبالأصح : واقع أمة الإسلام، فيمكن القول بعامة، بأنه كان من التردي والانهيار والتخاذل بحيث غدت أغلب بلاد المسلمين إن لم نقل كلها مطمع أمم الغرب التي سرعان ما تداعت عليها كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، وقد تبدت حال هذا الواقع، بترديها وتناقضاتها في مجالات عدة أهمها :

1 - المجال العقدي :

أتى على المسلمين حين من الدهر، مسهم فيه قرح، واعترى معه فكرهم جدب، وأصاب إحساسهم نضوب، وكان ذلك ثمرة ما دب إلى عقيدتهم من الوهن، وحاق بها من الاهتراء، فإذا بأصحابها فريسة الخرافة والشعوذة التي تكرس الوثنية، والاستعباد والتواكلية، وغيرها من المعتقدات الفاسدة التي تمغ أصحابها في حمأة الغي والضلالة.

ج - المجال السياسي :

وأهم ما يلفت النظر فيه انقسام المسلمين وفرقتهم، وغياب الحكم الشوري، وسيطرة الاستبداد، وانشغال الأمراء والحكام بأهوائهم ومصالحهم عن المسؤولية الجسيمة المنوطة بهم في رعاية أمتهم وحماية مقدساتها، والسهر على مكتسباتها، أضف إلى هذا تقاعس (العلماء) عن النهوض برسالتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا منتهى الشر الذي تضرب به الأمة : فساد الأمراء وتخاذل العلماء، وهو ما صوره شيخ مؤرخي الإسلام بالأندلس أبو مروان ابن حيان (377 هـ - 422 هـ) حين قال : (ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء، قل ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يفسدون) وكأنما كان يعني، وهو يتحدث عن أمراء القرن الخامس وفقهائه في الأندلس، حكام العالم الإسلامي وعلماءه حين الهجمة الغربية على بلاد المسلمين في القرن الماضي : (فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له، ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة، وجريا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ بالتقية في صدقهم)[6].

3 - المجال الاقتصادي :

كان هذا المجال يعرف بدوره أزمات خانقة مردها إلى التخلف الذي كان ران، مدى عقود من السنين، على الصناعة، والزراعة، والتجارة، فشلّ

---

6) انظر، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ت 2 مج 1 ص 134.

الفاعليات، وثبط العزائم، وفي غيبة الوعي بتعاليم القرآن التي تدعو إلى العمل وتحث عليه باعتباره (المحور الأساسي لوجود الإنسان - فردا وجماعة - على الأرض وأنه الذي يتخذ مقياسا عادلا لتحديد المصير في الدنيا والآخرة) سادت المجتمع روح الدعة والإخلاد إلى الراحة ففقد بذلك المعاني السامية للعمل والكسب اللذين يحقق من خلالها المسلم فكرة الاستخلاف الحضارية، كما أن أغنياء المسلمين لم يكونوا يدركون لجهلهم بالتصور الإسلامي للمال، أن هذا المال لله وأنهم مستخلفون فيه، مؤتمنون عليه، مطالبون بالتصرف فيه على الوجه الذي يسهم في النهوض بالمستوى الاقتصادي للأمة.

4 - المجال الاجتماعي :

وفيه تنعكس المظاهر السلبية التي رصدناها في المجالات السابقة، فإذا به، أي المجال الاجتماعي، صورة لواقع مرير، مثقل بتناقضات مذهلة، تخيم بسببها على حياة الأفراد والجماعات كوابيس الجهل، والظلم، وتطوقهم قيود الخرافة، والشعوذة، يعطل فيهم هذا وذاك إرادة التغيير، ويشل لديهم حركة الاستشراف.

أما واقع الغرب فبوسع الدارس أن يستكشف صورته خلال القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي بدأ الغرب يقتحم فيها على الإسلام ديار بنيه، في بعدين إثنين :

1 - بعد مادي :

بلغ الغرب في القرن الماضي درجة باهرة في الرقي العلمي والتقدم الصناعي، وبفضل ذلك (نعم كل جيل بمزيد من الثروة والرفاهية وباتساع

الفرص الاقتصادية وبتحسين في مستويات التغذية والصحة والإنشاءات الصحية. ومع كل عقد من السنين كانت الاكتشافات التقنية الجديدة تسرع في جعل الصناعة آلية وفي قيام المدن الجديدة بآفاقها الفوضوية، وفي بلوغ المصانع والمعامل مستويات جديدة في الإنتاج). وما أن أوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء حتى كان التصنيع الآلي قد أصبح أنفذ قوة في تكوين معالم الحضارة الغربية، فقد فاقت الآلة قصد مخترعها، وهيمنت المادية الاقتصادية على مرافق العصر، وتحقق نذير (أمرسن) بأن «الأشياء المادية قد اعتلت السرج وامتطت ظهر البشرية». ومثل هذا التقدم الصناعي كان لابد أن يطرح مشكلة المادة الخام من جهة ومشكلة السوق المستوعبة من جهة أخرى، ومن ثم ارتبط تاريخ التقدم الصناعي في الغرب خلال عقود من القرن التاسع عشر ارتباطا وثيقا بحركة التوسع الاستعماري الغربي في مختلف القارات، وعرف الربع الأخير من هذا القرن بصفة خاصة (فترة استعمارية جامحة، فلقد سعت جميع الدول الكبرى وراء فتوحات جديدة، وفيما عدا حكومة النمسا والمجر، خاضت جميعها غمار حروب استعمارية بغية توسيع ممتلكاتها في القارات الأخرى)[7].

2 - بعد روحي :

وحقا أن الانتصارات والانجازات التي حققها العلم والتقنية استأثرت بالإعجاب، لكنه إعجاب لم يشمل العقل والقلب معا (وكان الجيل الذي بلغ الرشد في العقد الأخير من القرن قد تهيأ ذهنيا لخيبة الأمل وزوال الأوهام. كان قد ترعرع وبلغ النضج في عصر امتاز بالمنجزات المادية الباهرة ولكن في جو سرت فيه برداء ما أسماه دزرائيلي بحق «نظريات عصر نزاع إلى

7) انظر، براون جافري، الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر ص 113.

التعميات الباردة الجافة»[8]. وكان ذلك أول جيل أدرك تمام الإدراك أن العلم قد قذف بالإنسانية في منحدر طريق لا يعرف مداه. وسرت رعشة خلال الصفوف الممتلئة ثقة إذ أخذت الطليعة تبطئ كي تبحث عبثا عن معالم للطرق غير موجودة. وكان لصرخة ميجيل دي أونامونو (1936م) في قومه الإسبان «هلموا إلى الداخل»[9] لم شعثهم بعد هزائمهم في بلاد أمريكا أواخر القرن معنى أشمل وأوسع، بل كانت خطابا إلى الغرب جميعه بوجوب صرف العناية إلى إنقاذ الروح التي كانت جذوتها تنطفئ، يوما بعد يوم، كلما ازدادت فتوحات المادة وانتصاراتها في ميداني العلم والصناعة.

بهذا الزاد الثنائي المتضاد من (المادة) الطاغية و(الروح) المنحسرة نزل الغرب ديار المسلمين يرهب ويبهر، وكان من الطبيعي أن تكون نتيجة هذا النزول بما صاحبه من مبتكرات العلم، وأنماط الفكر، ونظم الحياة، على بلاد المسلمين بما كانت تتخبط فيه من تخلف علمي، وترد فكري، وتخلخل في نظم المجتمع، والسياسة، والاقتصاد غلبة الغرب على (الإسلام) سواء من الوجهة العسكرية والسياسية أو من الوجهة الفكرية والاجتماعية[10]. وهكذا استطاع الغرب أن يحقق بهذا النزول نوعين من الغزو لبلاد الإسلام : أولهما غزو عسكري استيطاني، وثانيهما غزو فكري اجتماعي، مارس، أي الغرب، في ظلهما، وهو الذي كان يلوك شعارات الحرية، والديموقراطية، والعدالة، في حق المسلمين ألوانا من القمع، والإرهاب، والظلم، ليس هنا موضع الحديث عنها. وإذا كان الغزو الأول قد انحسر عن جل المناطق الإسلامية

---

8) نفسه، ص 134.

9) نفسه، ص 153.

10) انظر، محمد المبارك، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص 83.

بفضل الجهاد الذي استرخص فيه المسلمون النفس والنفيس من أجل تحرير أوطانهم وديارهم من حكم أفاقي الغرب وشذاذه فإن الغزو الثاني، أي الغزو الفكري الاجتماعي، ما انفك يقيم بين ظهراني المسلمين، يصبحهم ويمسيهم، ويعلن عن تحدياته التي تتهدد وجودهم العقدي، والفكري، والحضاري، وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

د ـ محاور التحدي :

لاشك أن الغرب أدرك، منذ أمد غير قصير، فاعليات الإسلام مما صورنا جوانب منه في الفقرة الأولى من هذه الدراسة، بوصفه عقيدة، وفكرا، وحضارة، وقابلياته للحياة والتطور، لذلك وجدناه، أي الغرب، حين دخل بلاد الإسلام غازيا، مستعمرا، لا يشغل، بجانب استغلاله لمواد الأرض الخام وتحويلها إلى أسواق لمنتجات صناعته، إلا بالعمل، في دأب وجلد، على فرض مثله، وقيمه الأخلاقية، ولكي يحقق سياسته في مسخ المجتمع الإسلامي وإحباط محاولاته الإصلاح والنهوض، كان لا يفتأ يفتح على الإسلام جبهات من المكر والتحدي تشن منها حملات غزو فكرية مدججة بتصورات عقدية، ومفهومات فكرية، ومناهج اجتماعية، تستهدف اجتثاث الوجود الإسلامي.

أولا ـ عقديا :

لما كان صلاح العقيدة صلاحا للتفكير، وللشعور، وصلاحا للقول، وللفعل، وصلاحا للحال، وللمآل فقد كان مدار الأمر عليها في جميع الدعوات والرسائل التي توالت مواكب الأنبياء والرسل تحملها إلى البشرية.

ففي مكة، قبل أزيد من أربعة عشر قرنا، والوثنية، والاستعباد ليل دامس الظلام، يغشى الأرض والناس أعلن الصادق الأمين محمد بن عبد الله، صلوات الله عليه وسلاماته، عقيدة التوحيد في مواجهة عصره، وكل عصر تصبح فيه العبودية لغير الله، وتهدر فيه كرامة الناس، وبهذه العقيدة علم ﷺ صحبه حب الحق وإيثاره، وتحمل المسؤولية والتضحية من أجلها، فلما أذن لهم بالجهاد في سبيل هذه العقيدة مضوا كلمح البرق أو كالريح، لا يأبهون بمعاثر الطريق ومزالقه، يهوون على الباطل كالطيور الجارحة، ويسوون من (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ملاحم جهاد حررت المستضعفين والمأسورين ورفعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ودفعت بهم يرتادون آفاق الحق فيها يسع المومنين جميعهم : الماء والشجر.

لكل ذلك حرص الغرب على تسديد الضربات لهذه العقيدة، لأن في تدميرها وشل حركتها تدميرا للإسلام وشلا لحركته، وتوسل في تنفيذ خطته ب :

أ ـ التبشير :

وهو حركة الإرساليات الكنسية التي كرس رجالها جهودهم لتنصير المسلمين بعد إثارة الشكوك والدعاوي حول عقيدتهم، وحتى حينما كان هؤلاء المبشرون ينشلون في تحويل المسلمين عن دينهم أو هدم الروح الدينية في نفوسهم فإنهم لم يكونوا ينثنون عن مهمتهم، بل كانو يواصلون العمل لاقتناعهم بأن (نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التي تبذل

في سبيل التربية النصرانية)[11] وإلى مثل هذه القناعة يشير صموئيل زويمر بقوله (لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو أن ييأس ويقنط عندما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم. عندما تذبذب مسلما وتجعل الإسلام يخسره تعتبر ناجحا يا أيها المبشر المسيحي، يكفي أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا)[12].

ولعلنا أن نستخلص من هذا الكلام والذي تقدمه، وكلاهما أدلى به مبشر مشهود له بالكفاءة والخبرة في هذا الميدان، حقيقة هامة قد يغفل عنها الكثير، وهو أن (التبشير) لم يكن في الجوهر يهدف إلى تنصير المسلمين، وإن تظاهر بذلك، بقدر ما كان يهدف إلى تشويه العقيدة وتعطيل فاعليتها، فيصبح من أصيبت عقيدته بهذا مذبذبا، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا مناعة له ولا وجهة. ولا شك أن هذه الحقيقة تكشف عن عداء الغرب للإسلام وخوفه منه وحرصه، بسبب هذا وذاك، على نسف عقيدته في نفوس بنيها حتى يهنوا ويسلسوا له القياد. ومن هنا ندرك مغزى تنويه (بلفور) بجهود المبشرين في قوله : (إن المبشرين هم ساعد كل الحكومات في أمور هامة، ولو لا هم لتعذر عليها أن تقاوم الكثير من العقبات).

ب ـ الاستشراق :

مع أن الإنصاف يلزم الدارس لحركة الاستشراق بالاعتراف بالجهود التي قام بها بعض المستشرقين في نشر آثار من التراث العربي ولفت الأنظار

---

11) انظر، د. عبد الحليم محمود، الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ص 167.

12) نفسه، ص 166.

إلى قيمتها وأهميتها فإنه بعد إعمال النظر في طبيعة الاستشراق ونتاجه سرعان ما يكتشف سلبيات خطيرة، كانت من ثمرة وقوعه، منذ تاريخه المبكر، وبحكم ظروف نشأته في حضن الكنيسة والفكر الامبريالي، أداة طيعة في يد حركة التبشير والاستعمار، يأتمر بأمرهما في التخطيط والتنفيذ، ويضع إمكاناته العلمية في تحقيق أهدافهما. وكانت أوضاع العالم الإسلامي المتردية خير مشجع للمستشرقين، مثلما كانت بالنسبة للمبشرين، على نفث الشكوك والأباطيل حول عقائد الإسلام ويقينياته، فـ (بذلوا مجهودات في اتخاذ موقف الهجوم والتبشير، وتضايقوا من العراقيل التي وضعها أمامهم كل من الفقه الإسلامي والإداريين الاستعماريين أنفسهم، حيث خشي هؤلاء من ردود فعل مختلفة أعمال مكشوفة أكثر من اللازم. وفي نطاق الاتجاهات الإنسانية العادية وبموازاة مع الأفكار العامة للعلوم في وقتهم كانوا يربطون نجاح الدول الأوربية بدينهم المسيحي كما كانوا يربطون تقهقر العالم الإسلامي بالإسلام، وهكذا اعتبروا المسيحية مؤيدة بطبيعتها للتطور وبالتالي اعتبروا الإسلام مؤيدا للركود والتأخير الثقافي، فاتخذ الهجوم على الإسلام أعنف الصفات)[13].

وإذا كان في هذه الصورة التي رسمها ماكسيم رودنسون، وهو المستشرق الذي تمده يهوديته وماركسيته بعداء لاحد له للإسلام، للاستشراق ما يدل على ارتباطه الوثيق بعجلة التبشير وخضوعه لمخططاتها الصليبية في تدمير الإسلام بعد إفراغه من محتوياته العقدية فإن في تصور مستشرق آخر من الرهبان، هو دانكان بلاك ماكدونالد لانهيار الإسلام ودور الاستشراق

13) نفسه، ص 163.

التبشيري في ذلك ما يؤكد النزعة الصليبية لهذه الحركة. يقول ماكدونالد : (إن انهيارا دينيا مخيفا ينتظر الشعوب الإسلامية. لا يستطيع الإسلام كدين أن يواجه حملة الكفر التي تتدفق عليه من الحضارة الأوربية... ومع انتشار التعليم ورسوخه ومع فرض التاريخ لمكانته، ومع تحول الشعور الأخلاقي إلى اتجاه أكثر حذرا وإحساسا ستنهار أسطورة محمد وستظهر طبيعته على حقيقتها. وبذهاب محمد لابد أن يذهب النسيج كله)[14].

ويتفق الاستشراق مع التبشير، كما سلفت الإشارة، في أن الغاية من الجهود المبذولة في نشر المسيحية وثقافتها لم تكن بالضرورة هي تنصير المسلمين بل هي مثلما تتحقق بذلك تتحقق أيضا، بتحويلهم عن دينهم إلى أي دين سواه، ومعنى هذا بتعبير آخر، تركهم مذبذين، بلا هوية عقدية تحصن وجودهم الفكري، والاجتماعي، وترد عنه كيد الكائدين، وفيما عقب به (ماكدونالد) على كلامه المتقدم ما يفيد ذلك : (وسيأتي آنذاك دور المدارس الكاثوليكية ومبشريها للإنقاذ هذه الشعوب ليس لفائدة المسيحية فحسب وإنما لأي دين كان)[15].

وإذا كان التبشير قد أتيح له بحكم الوسائل التي اعتمدها في حركته، من مصحات، ونواد، ومدارس، أن يخاطب جمهورا كبيرا من المسلمين، هو مزيج من المتعلمين والأميين، فإن الاستشراق، وبحكم المجال الذي كان يمارس فيه نشاطه، من منابر جامعية، ومؤتمرات علمية، ومجلات متخصصة، قصر

14) انظر، د. محمد بن عبود «الاستشراق والنخبة العربية» فصلة من المجلة التاريخية المغربية ع 27 ـ 28 ص 11.

15) نفسه، ص 12.

خطابه على فئة المثقفين من الطلبة والباحثين، يشككهم في عقدياتهم الدينية من خلال (كتابات وأدبيات جمة تركز على هدف واحد هو إنكار صفة محمد كرسول ونفي القرآن كوحي. ولعل في التأثير الكبير لمستشرقي القرن التاسع عشر على طلبتهم خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ما يفسر استمرار هذه التفسيرات والاستنتاجات الموروثة إلى يومنا هذا)[16].

ويمكن القول، استنادا لما سبق عرضه، أن الاستشراق، وهو، كما رأينا، ربيب الصليبية والاستعمار، كان بتعمده تشويه حقائق الإسلام وطمسها يهدف إلى تحقيق مطلبين إثنين :

أولهما : زلزلة عقيدة التوحيد وتدميرها في نفوس معتنقيها من أبناء المسلمين عن طريق تقديم تصورات عن الإسلام ويقينياته مبنية على أوهام وافتراضات لا تقوم للبحث العلمي المجرد عن الهوى والعصبية.

وثانيهما : تعتيم صورة الإسلام في الغرب أو تقديمها، على غير حقيقتها، في إطار منفر من الأباطيل والأراجيف، يزيد من بغض الغربيين للإسلام ويصرفهم عنه.

وفي هذا المطلب وذاك يتجلى الأثر الصليبي في تشكيل عقلية الاستشراق الحاقدة على الإسلام، الحريصة على تشويه صورته وتبغيض الناس، مسلمين ومسيحيين، فيها، وفي ذلك ما يضمن قيام حجب كثيفة تحول دون رؤية الإسلام على حقيقته. وتلك كانت رسالة الصليبيين في مواجهتهم لهذه العقيدة، فـ (لقد اختلقت الحروب الصليبية صورا مبغضة

---

16) نفسه، ص 15.

لهذا الدين في الغرب، مثلما سعى رجال الدين النصارى والمستشرقين للتشهير به)[17].

ثانيا ـ فكريا :

بقدر ما أدرك الغرب في غارته على الإسلام قيمة النتائج الإيجابية التي يحصل عليها في مشروعه الاستعماري من إفساد العقيدة لدى المسلمين، أدرك، بالمثل، مدى النتائج الباهرة التي يمكنه الظفر بها من جراء (تهجين الفكر الإسلامي وحرفه عن شرعته السمحاء وإشاعة المفاهيم والقيم الصليبية والتلمودية والإلحادية تحت ستار حرية الفكر أو دعوى محاربة التخلف والانفتاح على المدنية العصرية)[18].

وهكذا فقد كانت الخطوة الثانية التي خطاها الغرب في سبيل القضاء على الإسلام بعد توهين عقيدته وتطويقها بالبلبلة والريبة تتمثل في استدراج المسلمين من حيث يشعرون أولا يشعرون، إلى أحضان الفكر الغربي في محاولة لاحتوائهم فكريا وثقافيا، (وبذلك ظهر في معجم السياسة والحضارة ما يسميه ساسة الغربيين ومفكروهم بالـ Westernization، وما يمكن أن نسميه بالتغريب، أي طبع المستعمرات الأسيوية والإفريقية بطابع الحضارة الغربية)[19].

---

17) انظر، رجاء جارودي، الإسلام وأزمة الغرب ص 23.

18) انظر، فيصل حسوية، التحديات المعاصرة للناقد الإسلامية ضمن كتاب «الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم» ص 226.

19) انظر، د. محمد محمد حسين الإسلام والحضارة الغربية ص 56.

ومهما يكن من أهداف أخرى للتغريب من مثل حراسة مصالح الاستعمار بتقريب الهوة التي تفصل بينه وبين المسلمين[20] فإن الهدف الرئيسي من غزو الفكر الإسلامي بقصد تغريبه إنما هو، في نهاية المطاف، تغريب الحياة في البلاد الإسلامية وكان أهم المجالات التي نفذ فيها الغرب خطته هذه مجالان إثنان، هما :

أ ـ المجال التعليمي :

كان هذا المجال هو أول ما صرف إليه الغرب عنايته واهتمامه إدراكا منه أن تقديم النموذج الغربي في التفكير للمسلمين إنما يتأتى، في يسر، من خلال مناهج التعليم ومواده، وبذلك يستطيع أن يحكم قبضته على ناصية الفكر في مستقبل المسلمين، وقد عبر عن هذه الفكرة أ. ل. شاتيليه فقال : «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته، ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها، لأن لهذه المشروعات أغراضا اختصاصية، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة في هيئتنا الاجتماعية التي من دأبها الاتكال على الحكومة وعدم الإقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التي يقوم بها الأفراد فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذي نحن نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنساوية نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية

20) نفسه، ص 61 ـ 62.

المبنية على قوة الإرادة. وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى خير الفعل ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية)[21].

وعلى هذه الخطة سار الاستعمار الفرنسي في المغرب فكان يشمل برعايته المدارس التي أنشأها ليتعلم فيها أبناؤه، وأبناء المسلمين من الأغنياء، فكره وثقافته ولغته، (أما الفكرة الإسلامية فغائبة تماما، وكذا الفكرة العربية والوطنية، فمواد التاريخ والجغرافية كانت تعطي تاريخ وجغرافية فرنسا عناية فائقة، ولم يكن هناك أي اهتمام بالدين الإسلامي في المناهج الدراسية)[22] كما كان يشمل بهذه الرعاية المدارس البربرية التي أرسى أسسها على كراهية الإسلام ولغة القرآن.

ومثل الفرنسيين أدرك الإنجليز في مستعمراتهم الإسلامية، ومنها مصر، أنه لا سبيل إلى امتصاص الفكر الإسلامي واحتوائه إلا عن طريق (تربية جيل من المصريين العصريين الذين ينشئون تنشئة خاصة تقربهم من الأوربيين، ومن الإنجليز، على وجه الخصوص، في طرائق السلوك والتفكير)[23]، وكان هذا هو ما دفع بـ (كرومر) إلى تأسيس كلية فكتوريا بالاسكندرية التي (قصد بها إلى تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين، وليكونوا في الوقت نفسه على مضي الوقت أدواته في التقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوربي وفي نشر الحضارة الغربية)[24].

---

21) انظر، أ. ل. الغارة على العالم الإسلامي ص 13.

22) من حوار مع الأستاذ عبد الله كنون، انظر، مجلة الأمة ع 26 س 3 ص 52.

23) انظر، الإسلام والحضارة الغربية ص 62 ـ 63.

24) نفسه، ص 63.

أما معاهد التعليم الإسلامي الكبرى من مثل جامعة القرويين بفاس فلم يذخر الاستعمار وسعا في محاربتها، فقد كانت، على ما كان بها من حاجة إلى إصلاح برامجها ومناهجها في التعليم، الصخرة التي تتحطم عليها آماله في القضاء على الفكر الإسلامي واللغة العربية، بل إن هذه الجامعة العتيدة ظلت تحارب بعد الاستقلال، من طرف فئة رباها الغرب في حضن ثقافته، وفكره، ولغته، تكيد لها وتتربص بها (مستخدمة كل الوسائل لتدمير ذلك الكيان على اعتبار أنه يمثل العقبة الكأداء التي تحول دون تحقيق تلك «الطغمة» لخططها الهادفة للقضاء على كل ما من شأنه أن يجعل الأمة تتمسك بدينها ومقوماتها الأصلية)[25].

ومثل القرويين جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بمصر، فلقد كانت جميعها حصونا لثقافة القرآن ولغته، لذلك ضيق المستعمرون وعملاؤهم عليها وعلى المتخرجين منها تضييقا لا يزال بعضه باقيا حتى الآن)[26].

على هذا النحو استطاع الغرب أن يعد جيلا من أبناء المسلمين يفكر بفكره، ويشعر بشعوره، و(يلغو) بلغته، وأفراد هذا الجيل، في مشرق من بلاد الإسلام ومغرب، هم الذين تولوا، بعد انحسار موجة الاستعمار عن أقطار الإسلام، حماية (المكتسبات) الفكرية للغرب في هذه الأقطار، بل والعمل على الاستزادة منها والتمكين لها في مجالي التعليم والثقافة تحت دعاوي (العصرنة) و(التطور) وما أشبه ذلك.

---

25) من حوار مع الأستاذ عبد الله كنون، مجلة الأمة ع 26 س 3 ص 54.

26) انظر، الغزو الفكري وأثره على المجتمع الإسلامي المعاصر ص 128.

ب ـ المجال الثقافي :

وفي هذا المجال اجتهد الغرب أن يمكن بعدة فاعليات ثقافية، أهمها :

1 ـ الإيديولوجية :

إن (الانتماء الإيديولوجي) يعني، في جملة ما يعنيه، استيعاب معطيات (فكر) مّا في بعده العقدي، والاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، فهما، وتمثلا، واستلهاما، ثم هو يعني، بعد ذلك، الوعي التام، غير المنقوص، بحتمية الانطلاق من هذه المعطيات ـ المسلمات في كل ممارسة تستهدف تغيير المضمون العقدي، والبنية الفكرية لدى مجتمع، أو لدى أمة بأسرها، وفي عبارة موجزة : إن الانتماء شهادة موثقة، تتحدد، من خلالها، شخصية المرء في بعدها العقدي والفكري، وفي تصوره للكون، والحياة، والمجتمع، والتاريخ.

ولا مراء في أن الفكر السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي الغربي هو، في جوهره، تعبير عن عقائد، وقيم، ومثل يؤمن بها الغرب أي أن وراء كل إيديولوجية (عقائد انبثقت هي عنها ومفاهيم ونظراتٌ في الحياة تتصل بها اتصال الفروع بالجذور)[27].

من ثم ندرك مقدار ما حققه الغرب من فتوحات لفكره في عالم المسلمين حين أشاع فيهم هذه الإيديولوجية أو تلك من إيدلوجياته، فعزلهم بها، من حيث يشعرون أولا يشعرون، عن عقيدتهم، ودينهم، وتراثهم.

ولنضرب أمثلة على ذلك، فالاشتراكية الماركسية ترفض الدين بوصفه (أفيون الشعوب) وتدعو إلى الالحاد، ولا إله، في زعمها، إن المادة : لأنها

---

27) انظر، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص 90.

أصل الوجود، والتاريخ ثمرة صراع الطبقات، والإنتاج محور الحياة، والديمقراطية تعتمد الفرد، فهو في تصورها، حرية مطلقة في تصرفاته الاقتصادية أو الخلقية أو الفكرية، ومثل هذا التصور يؤدي (إلى المساواة بين الإيمان والإلحاد في مجال الفكر، وبين الاباحية والتقيد في مجال السلوك الخلقي وبين الرأسمالية المترفة الطاغية والتقييد لمصلحة الجماعة)[28]. والعلمانية تفصل بين مجالين في حياة الإنسان : مجال الدنيا وزينتها ومتعها ومجال الصلة الخاصة بين الإنسان وخالقه[29]، وهذا يعني فصل الدين عن الدولة وعدم تدخل أحدهما في شؤون الآخر.

ولا نحب أن نستكثر من الأمثلة فإن فيما ذكرناه ما يكفي، بعد ترديد النظر فيه وفي عقديات الإسلام وتصوراته، للدلالة على التناقض الصارخ بين هذه المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبين الإسلام بوصفه عقيدة ومنهج حياة.

2 ـ اللغة :

وباعتبار أن اللغة وعاء للفكر فقد كان على الغرب أن يعمل من نحو على محاربة العربية بوصفها لغة الفكر الإسلامي الأولى، وأن يعمل، بذات الوقت، ومن نحو آخر، على نشر لغته والتمكين لها. وفي هذا أو ذاك ما كان يعكس، بوضوح، المرمى البعيد للغرب في إذابته المجتمعات الإسلامية ثم صبها في قوالب جديدة من ثقافته ليس فيها أثر من دينها أو لغتها. ولم يترك الغرب وسيلة إلا واستعملها في محاربة اللغة العربية، فمن إهمال لها وتهميش،

---

28) نفسه، ص 82.

29) انظر، د. محمد البهي، العلمانية وتطبيقها في الإسلام مجلة الأمة ع 1 س 1. ص 72.

من صوره تقليص حصصها في برامج التعليم، وسد الأبواب في وجوه الخريجين من المعاهد الإسلامية الذين لا يتقنون غير هذه اللغة، إلى استئجار أقلام كتاب من بني جلدتها يشنون عليها حملات الانتقاص والاتهام بالقصور والعجز، إلى العناية باللهجات العامية والتنويه بها والتشجيع على تعلمها[30]. هذا فضلا عن اهتمامه، بل حرصه البالغ على فرض لغته في التعليم، وفي الإدارة، وفي غيرهما من المجالات، وهو بذلك جميعه كان ينفذ مخططه الرهيب في القضاء على كيان الإسلام، عقيدة وتراثا، والتحكم في الفاعليات الفكرية، بل وحتى (الشعورية) لدى الجيل الذي رباه بعينه، في الحاضر والمستقبل. وهذا الجيل ما زال أفراده إلى الآن في بلاد المسلمين بعامة يعملون على تكريس الاستعمار اللغوي في الحديث والتدريس، والكتابة، يشكلون بذلك ظاهرة استلاب مشينة، طالما رفع المصلحون أصواتهم باستنكارها من مثل ما نقرأ في شعر لعلال الفاسي :[31]

قولوا لنا :

إن كنتم من قومنا، فعلام لا ترضون أن تتكلموا بلساننا ؟
وعلام في كل المجالس تنطلقون
تتحدثون وتدرسون وتكتبون
كأعاجم لا يعرفون من الكلام
سوى لغات الفاتحين ؟
وتفرنسون شبابنا وبرامج التعليم

---

30) انظر، أحمد زياد، لمحات من الحركة الفكرية بالمغرب ص 84.

31) انظر، د. حسن الوراكلي، المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي ص 73.

ومناهج التفكير والأبحاث والتدوين
وعلام لا ترضون بالعربية الفصحى
لغة الإدارة والدراسة والشؤون ؟[32]

3 ـ الأدب :

وهو منفذ آخر تسلل منه الغرب إلى فكر ووجدان الفرد المسلم ليفسدهما بمضامين المادية، والعبثية، والسادية، ويفرخ في النفوس بذلك من العقد والمركبات ما تثبط به العزائم، وتكسح الطاقات. وهل في طوق أحد من الناس أن ينكر أنه كان فيما وضع بين يدي القارئ المسلم، بلغته الأصلية أو مترجما إلى العربية، من أدب الجنس، والدعارة، والإلحاد، والغثيان، والسأم، والقلق، والضياع، واللامعقول ما زعزع المعتقدات، وميع الأخلاق، وغبش الرؤى، وشل القدرات المبدعة في الفكر، والنفس، والوجدان ؟

وفي غيبة الوعي بالهوية والذات، سرعان ما أقام له ذلك الأدب في ديار الضاد سوقا تردد عليها (الفطاحل) والشداة على حد سواء، وفي حلبتها تبارى أولئك وهؤلاء في احتذاء (الاعلام) ذراعا بذراع، وشبرا بشبر، يمعنون جميعا، حرصا على إظهار البراعة في التقليد والمحاكاة، في التنكر لمثل أمتهم وقيمها، ويتبنون أطروحات فكرية لا تتلاءم مع عقيدة أمتهم وتراثها، ومقولات خلقية غريبة عن حس مجتمعاتهم وشعورها[33].

32) انظر، المختار من شعر علال الفاسي ص 132.
33) انظر، د. حسن الوراكلي، الومضات، صحيفة النور.

ثالثا - اجتماعيا :

كان للحملات الحاسمة التي شنها الغرب على عقيدة الإسلام وفكره أهداف شتى، غير أن أهمها، ولعله يستوعبها جميعها، كان هو صياغة المجتمع الإسلامي على صورته، أي الغرب، في الأعراف، والتقاليد، والمعاملات، وألوان السلوك، والعلاقات، والتنظيمات، وأساليب التعايش، وفي سوى هذا وذاك مما يتصل بجد الحياة ولهوها.

إن عملية فصل العناصر التي تتألف منها الصياغة الغربية للمجتمع (الإسلامي) قصد درسها وتحليلها ليست سهلة لتشابك تلك العناصر وتداخلها على النحو الذي تتشابك به حيوات الناس وتتداخل في المجتمع. ومع ذلك فقد نستطيع رصدها من خلال صنفين من القيم يمارس في كنفهما المجتمع (الإسلامي) حياته اليومية، وهما :

1 - قيم مادية :

لعل أعلاها وأشدها أثرا في حياة الناس تلك التي أفرزت نظاما اقتصاديا ربويا تدور في فلكه جميع الممارسات المصرفية السائدة، مع أن الإسلام يحرم هذا النظام باعتباره صورة من أكل أموال الناس بالباطل.

أما أدناها فهي تلك التي أثمرت ذوقا متميزا في هذا العرف أو ذاك من الأعراف الاجتماعية التي حملها الغرب معه إلى بلاد الإسلام، فلم يملك المسلمون، وهم عزل من سلاح العلم والوعي، مغلوبون على أمرهم والمغلوب مولع بتقليد الغالب، إلا أن يعجبوا بها في انبهار حملهم على ترك أعرافهم ومحاكاة أعراف الغرب. ومنها على سبيل التمثيل، الزي الأوربي الذي قد

يرى الكثير في إثارة الحديث حوله ضمن تحديات العصر التي تواجه المسلمين ضربا من السخف، غير أن الحقيقة بعكس ذلك، فإن لزي ما من الدلالات العقلية والحضارية ما يلزم بقيمها ومثلها المتزيي به (فالزي الأوربي اليوم مثلا يتفق تماما مع الخصائص العقلية في أوربة، وبلبس الثياب الأوربية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوربي ثم يشوه «حياته» العقلية بشكل يتفق نهائيا مع اللباس الجديد. وبعمله هذا يكون «المسلم» قد تخلى عن الإمكانيات الثقافية لقومه وتخلى عن ذوقهم التقليدي وتقبل لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليه المدنية الأجنبية)[34].

وليس الزي إلا مثال واحد من عدة أمثلة للأعراف الاجتماعية التي غزا الغرب بها مجتمع المسلمين فاقبلوا عليها يتنافسون ظانين أن (التفرنج)، أي الأخذ بتلك الأعراف هو عين الحضارة، ولب التمدن[35]، وقد حذر الشعر الإصلاحي من مغبة (التفرنج) ورأى فيه داء تتحتم المبادرة باستئصاله قبل أن يستفحل أمره، ويستعصي علاجه :[36]

دعوا التفرنج دوما في عوائدكم ... إن التفرنج قد يدني من العطب
لكل قوم شعار يعرفون به ... فإن مضى أصبحوا في منظر شحب
إن (التفرنج) بحر فاض بينكم ... فلتقطعوه على جسر من النصب[37]

34) انظر، محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ص 82 ـ 83.
35) انظر، المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي ص 85.
36) نفسه، 86.

2 ـ قيم معنوية :

ونريد بها جملة (القوانين) التي وضعت في الغرب لسد حاجة المجتمع من الطمأنينة والسلام. وقد حملها الغرب إلى المجتمعات الإسلامية حيث أقصى أحكام الشريعة المستمدة من القرآن والسنة وأحلها محلها، وترتب على ذلك إنشاء (محاكم خاصة لتطبيق هذه القوانين. وعين لهذه المحاكم قضاة أوروبيون أو قضاة وطنيون درسوا هذه القوانين ولم يدرسوا الشريعة، وقد اعتبرت المحاكم الجديدة نفسها مختصة بكل شيء تقريبا، فترتب على ذلك تعطيل الشريعة تعطيلا عمليا)[38].

وقد استطاع الغرب أن يرسخ هذه القوانين في بيئة القضاء بالمجتمعات الإسلامية التي كان يهين عليها، فلما اضطر إلى الرحيل عنها رحل وهو مطمئن إلى بقاء قوانينه تحكم علاقات المسلمين الاجتماعية وتنظمها ما بقي فيهم طائفتان من الناس :

إحداهما تلك التي تشبعت بروحه، وأشربت حبه، فهي له تابعة، وعلى تعاليه وتقاليده ساهرة، وثانيتهما حين لم يول أفرادها (أبصارهم نحو المصادر الأصلية في الإسلام اعتبروا ضمنا أن الشريعة والفقه المتحجر في أيامنا هذه شيء واحد، وقد وجدوا أن الثاني ناقص من عدة وجوه ففقدوا بالتالي كل اهتمام عملي بالشريعة)[39].

وفي وجوه هؤلاء وأولئك يصرخ الشاعر :

---

37) انظر، ديوان علال الفاسي ج 1 ص 44.

38) انظر، عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه س 28 ـ 29.

39) انظر، الإسلام على مفترق الطرق ص 80.

قولوا لنا :
إن كنتم من ديننا فعلام لا تتحاكمون إلى شريعة ديننا
وتفضلون الأجنبي إذا تشرع أو حكم ؟[40].

وقبل أن أختم هذه الفقرة طافت بذهني ذكرى ذلك الطالب الإسباني الذي جمعتني به في قرطبة منذ سنوات، جلسات المؤتمر الأول للحوار الإسلامي ـ المسيحي. كان مشغوفا بالقراءة عن الإسلام، عقيدة، وتاريخا، وحضارة، وكان يعتزم السفر إلى العالم الإسلامي بإنجاز دراسات ميدانية عن الإسلام. وقد علمت أنه سافر بالفعل حين كتب إلي مرة رسالة كان مما ورد فيها : (... وصلت «كراتشي» منذ شهر... انتهيت إليها بعد أن طوفت طويلا في مختلف بلاد المسلمين. أقولها لك بصراحة : أية قوة أنتم... لو ترجمتم كتابكم إلى سلوك) ثم بعد شهور وشهور، وفي قاعة المكتبة الوطنية بمدريد، وعلى حين غرة، وجدتني وجها لوجه أمام «أسين» ـ وهذا اسمه ـ ... استفسرته عن رحلته في البلاد الإسلامية، وعن بحوثه الميدانية في مجتمعاتها. حدثني عن مظاهر (الغرب) في هذه المجتمعات بكثير مما أعرف وتعرفون. كان يعزز حديثه ب «إحصائيات» لما يحتضنه هذا البلد أو ذاك من بلدان (الإسلام) من علب ليل، وحانات، ومصانع «عنب المائدة»» ونوادي العري، ومؤسسات ربوية، وتنظيمات سياسية مناهضة للإسلام... كان يخيل إلي وهو يحدثني بذلك أنني ألمح في عينيه سؤالا كبيرا، كبيرا : «هل أنتم مسلمون ؟»[41].

---

40) انظر، المختار من شعر علال الفاسي ص 43.

41) انظر، الومضات، النور ع 98 س 8.

هـ ـ شروط المواجهة :

ليس بمقدور المسلمين أن يحققوا لأنفسهم، من خلال المواجهة التي تتم بينهم وبين الغرب، بعثا جديدا لفعلهم الحضاري، مالم يخضعوا هذه المواجهة لشروط، وهي إن كانت تبدو، عند استجلاء واقع المواجه ـ بكسر الجيم ـ والمواجه ـ بفتحها ـ، متعددة، ومتنوعة، غير أنه بوسع الدارس، مع ذلك، حصرها في نوعين إثنين، هما :

1 ـ شروط سلب :

والبدء بها من صميم منهجية المواجهة الحاسمة نفسها، ذلك أن التعرف على النقائص، والآفات، والانحرافات في بنية المتواجهين معا، وعلى كافة المستويات وخاصة المعرفي والمنهجي منها، قمينة بأن تضمن للمواجه، بكسر الجيم، وهو المسلمون، في هذه الحال، حظا من الترشيد النقدي الموضوعي الذي تستطيع به حسم غيرما إشكالية قد تغبش رؤيتها نحو النوع الثاني من الشروط وهي شروط الإيجاب.

ولعل أجدر شروط السلب بالاستبصار، قبل غيرها، ما يتمثله المواجه، بكسر الجيم، في ذاته نفسها، فإن هذا، في تصورنا، مما يسهم في ترشيد المواجهة واستثمارها بالنقد الذاتي المسؤول الذي ينتفي معه الخوف على موازين الموضوعية والتجرد في استبصار الشروط نفسها عند المواجه بفتح الجيم.

إنه فضلا عما يتخبط فيه المسلمون من تخلف علمي وتكنولوجي يشكل أم السلبيات التي تشل تحركهم، وتعوق تقدمهم فإن ما يطبع حياتهم

من سلبيات أخرى يكاد يكون فوق الحصر والعد، على أن التمثيل ببعضها يجزئ، ومن ذلك :

1 - سلبية ازدواج الشخصية :

إن الانتماء للإسلام معناه إعلان الولاء لعقدياته ويقينياته التي تمد المنتمي بتصورات متميزة للوجود، والمجتمع، والسياسة، والاقتصاد، والتاريخ وغير ذلك. على أن ما يلفت النظر في المجتمع الإسلامي، حاليا، وجود فئة غير قليلة تنتسب للإسلام، بحكم نشأتها في أسرة مسلمة، بل، أحيانا، لا يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما يتجاوزه إلى دائرة الدأب على ممارسة الشعائر الدينية وأدائها على وجهها المطلوب. وهنا ينتهي أمر الإسلام في حياة هذه الفئة ليفسح المجال لهذه الإيديولوجية أو تلك تمنح الأفراد تصوراتها وتملي عليهم المواقف في الفكر، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، وبهذا وذاك ينشأ هذا الازدواج في الشخصية، يربك، ويعثر في أية محاولة للنهوض والانبعاث الحضاريين، ولعل الشعور بالآثار السيئة لهذا الازدواج على تحديد صيغة فكرية للخروج بالمجتمع الإسلامي من الأزمات الخانقة التي يرتكس فيها كان وراء الدعوة إلى أسلمة الماركسية أو مركسة الإسلام، وهي دعوة لم تعمر طويلا، لأن خداعها لم ينطل على أحد، فأبعد الناس عن النظريات والأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية يدرك أن الخلاف بين الإسلام وبين الإيديولوجيات أيا كان لونها خلاف عقدي بدرجة أول، ومعطياته تنعكس على الواقع وصيرورته.

2 ـ سلبية تضخم «الماضوية» :

ونعني ب «الماضوية» النزوع إلى الماضي نزوع إعجاب بالغ يُشْدَهُ به صاحبه عما حوله من تحديات رهيبة، وإشكاليات عويصة. ولا نحب أن يفهم من هذا الدعوة إلى إسقاط (الماضي) من الحساب في النهوض والإصلاح، فإن مما ينزل، في تصورنا منزلة البدائه أن بين ماضي الشعوب وحاضرها أسبابا لا تنفصم، ووشائج لا تبلى على تطاول الآماد، ومن ثم فإن كثيرا مما يمكن أن يقترح من حلول لما تعانيه أمة ما في فجر صحوتها ونهضتها ليس يجديها إلا بمقدار تلفته نحو ماضيها لاستلهام عقدياته وطروحاته الفكرية في معركة التغيير الآنية[42]. نحن لا نجحد، إذن، الماضي ولا ننكر الفائدة من استحضاره وتمثل إيجابياته في الحاضر، غير أننا نخشى أن يتجاوز الالتفات إلى الماضي أو استحضاره حدوده المنطقية، ويتضخم حتى يتحول إلى ما يشبه أن يكون مخدرا يعزل صاحبه، ولو إلى حين، عن الشعور بالواقع المرزأ، وقد كان لبعض المستشرقين ضلع في تضخيم (الماضوية) عند المسلمين بما كتبوا عن تاريخهم العلمي والحضاري منوهين بفتوحاته، ومشيدين بمنجزاته، وهم، أي المستشرقون، وإن كانوا بهذه الكتابات ينصفون الحقيقة العلمية والحضارية في تاريخ الإسلام إلا أنهم كانوا بذلك ينقلون جمهور قرائهم من المسلمين من مجال المشكلات الحادة القائمة في حاضرهم إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب[43] حيث يشغلون بهذا عن ذاك مما يترتب عنه اتساع الخرف على الرابقع ـ كما يقولون ـ في واقع الأمة الراهن.

---

42) نفسه، النور ع 98، س 6.

43) انظر، مالك بن نبي إنتاج المستشرقين ص 43.

3 ـ سلبية الشعور بالنقص :

إن ما يطبع حياة المسلمين، نتيجة للتحديات التي واجهتهم بها الحضارة الحديثة، من ألوان التبعية والتقليد للأنموذج الغربي في النظر والسلوك يقوم شاهدا على أن المجتمعات الإسلامية عالة على الغرب تستهلك حصاد حضارته على مستوى العلم والتكنولوجيا مثلما (تستهلك) ما انبثق عن هذه الحضارة من مفهومات وأفكار في حياتها السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، واستمرار تلك التبعية وهذا الاستهلاك يعمقان الشعور بالنقص لدى مختلف الفئات بما فيها الفئة الواعية، المتنورة من أبناء الأمة مما يوهم، في الغالب بالعجز عن إنجاز تفاعلات إيجابية مع الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتكنولوجي خاصة ـ والمساهمة في إثرائها وتقويم مسارها بما يلبي أشواق الإنسانية في الحرية، والعدل، والرشد.

4 ـ سلبية «خويصة النفس» :

ونعني بها موقف الهروب المتخاذل الذي يقفه بعض أبناء المسلمين من إشكاليات التحدي والتردي التي تغرق مجتمعاتهم في دوامات تربك النفوس وتقلقها. إنه موقف التهيب من المجابهة يحمل طائفة من أصحابه على الانسحاب من الميدان واللواذ بـ (خويصة النفس) يجترون، في انعزالية كسيحة، مآسي أمتهم وأحزانها، ويحمل أفراد طائفة أخرى على اللواذ بهذه (الخويصة) نفسها، في كنف ملجأ متحضر (يتركون وراءهم شعوبا متخلفة كانت قد أعدتهم ليأخذوا بيدها في طريق التمدين. وهكذا تجد هذه الشعوب

نفسها تزداد تخلفا، فكلما أعدت صفوة من أبنائها لعمليات البناء فقدتهم، فتخسر المال وتخسر الزمان)[44].

5 ـ سلبية المغالاة :

سواء كانت المغالاة في الدين، ونريد به هذا الإسلام، أو كانت في (الحضارة) فهي مثبطة، منفرة، فالأولى تعكس الإسلام، من خلال تصورات أصحابها وتصرفاتهم، عبئا ثقيلا يشل الحركة، ويعوق التقدم، والثانية رافضة كانت أو متشيعة، تسد الطريق على الفكر لاستيعاب الصورة الحقيقية لهذه الحضارة، فيزداد تيها وتخبطا.

هذه بعض النماذج من السلبيات التي قد تختلف من حيث المصدر والمجال ولكنها تتحد في كونها جميعها تنهك طاقات المواجه ـ بسكر الجيم ـ وتستنزف قدراته، نكتفي بهذا القدر منها لنتوجه بالنظر إلى سلبيات المواجه ـ بفتح الجيم ـ.

ينبغي الاعتراف بأن أول ما يسترعى الانتباه في واقع الغرب وجهه الحضاري الذي يحفل بالحياة والحركة، وإذا كان للذين انبهروا بهذا الوجه من زائري الغرب من المسلمين، وفيهم العلماء ورجال الدولة[45]، في القرن الماضي ما يبرر انبهارهم من ظروفهم الذاتبية والموضوعية فإننا، بعد سنوات الصدام، بالغرب والاحتكاك به في عقر الدارين، ينبغي ألا يشغلنا هذا الوجه المشرق لواقع الغرب عن النظر في وجهه الآخر الذي لا إشراقة فيه ولا حيوية، ولكن أمارات الانهيار، والإفلاس، والموت.

---

44) انظر، د. حسن سيد دسوقي ثغرة في الطريق المسدود ص 67.

45) انظر، راشد الغنوشي، ما هو الغرب ص 67.

ويخيل إلي أنني مهما اجتهدت في تصوير هذا الوجه فلن يكون هذا التصوير أجدى من «شهادات» أدلى بها مفكرون في حضن الحضارة الغربية نشأوا، ومن لبانها استووا، بعضهم ممن هدي إلى صراط الإسلام، وبعضهم من حق عليه الضلالة.

ومن الطائفة الأولى ننصت إلى رجاء غارودي يحدثنا عن سلبيات الحضارة الغربية في عدة مجالات :

(... فالاقتصاد يسيطر عليه النمو الذي لا يعدو معناه الرغبة الجنونية في زيادة وسرعة الإنتاج، إنتاج أي شيء... نافع، غير نافع، ضار، مميت، لا يهم والسياسة تحكمها علاقات اجتماعية داخلية وخارجية، يسودها العنف المعبر عن صدام المصالح والنزوع إلى السيطرة بين الأفراد، والطبقات، والأمم والثقافة عارية من المعنى والغاية : فالتقنية للتقنية، والعلم للعلم، والفن للفن، والحياة للاشيء، والعقيدة خاوية من التعالي الذي يمثل البعد الإنساني للإنسان...)[46].

وهو يلخص مظاهر السلبية في حضارة الغرب بعد قرون من الهيمنة التي لم يشاركها فيها أحد، فيقول :

(في عام 1982م، مع حوالي 600 مليار دولار من الإنفاق على التسلح وضع ما يعادل أربعة أطنان من المتفجرات على رأس كل ساكن من سكان الكوكبة الأرضية، ووزعت الموارد والثروات بحيث مات في السنة نفسها 50 مليون نسمة في العالم الثالث بالمجاعة وسوء التغذية فمن الصعب أن يسمى

46) انظر، الإسلام وأزمة الغرب ص 15.

«تقدما»، بلا تردد، ذلك الشوط التاريخي الذي قطعته الحضارة الغربية التي جعلت من الممكن فنيا لأول مرة، خلال مليوني سنة أو ثلاثة ملايين سنة من الملحمة البشرية تحطيم كل أثر من آثار الحياة على الأرض)[47].

ومن شهادات هؤلاء الغربيين في سلبيات المجتمع الغربي نسوق شهادة أخرى يدلي بها الدكتور عبد السلام منصور، وهو طبيب نفسي ورئيس جماعة المسلمين الإسبان :

(إن المجتمع الكافر مجتمع (ديني)، ودينه هو دين الإله ـ الصنم ـ الرقي دين الاستهلاك، دين التصميم التكنولوجي، دين العلم.

يوجد مجتمع الكفر في حالة إفلاس... ثقافة منحلة وعلم عاجز عن العثور على هدف دي مدلول يوجه إليه ما يسمى بالرقي... وكثير من الناس داخل هذا المجتمع يتساءلون عن معنى وجودهم وعن مدلول حيوات مخططة من الميلاد إلى الوفاة، تبليها مراسم العمل ـ الاستهلاك الصارمة ـ المتسلطة)[48].

ومن المفكرين الغربيين الذين استشعروا سلبيات الحضارة التكنولوجية وآثارهم السيئة في الحياة والمجتمع (رينيه دوبو) فقد ضمن كتابه (إنسانية الإنسان) شهادات صريحة بذلك، نقتطف منها :

(كل المجتمعات المتأثرة بمدينة الغرب تتبع «توراة التنمية» كعقيدة، وتدور في دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش) وتقول هذه التوراة : «انتجوا... أكثر لكي تستهلكوا أكثر... ثم لكي تنتجوا أكثر»، ولا يحتاج

---

47) نفسه ص 14 ـ 15.

48) انظر، د. عبد السلام منصور، خطبة العيد الأضحى ص 7 (ترجمة د. حسن الوراكلي).

الإنسان لأن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه فلسفة مريضة مجنونة فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلا فضلا عن الاستمرار الدائم إلى مالا نهاية)[49].

(والمشاكل التي يثيرها الضبط الاجتماعي للتكنولوجيا هي واحدة في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي والشيوعي، وبغض النظر عن الفلسفة السياسية يجب اكتشاف صيغ جديدة للتخطيط بحيث تكون التكنولوجيا في خدمة حاجات الإنسان القيمة بدل السماح لها بالنمو لذاتها أو كأداة للتوسع الاقتصادي والقومي)[50].

تلك أمثلة من الشهادات بسلبيات الحضارة الغربية لا نستكثر منها لأنها، ونظائرها مما تعرفونه ـ حضرات السادة الأساتذة ـ تدور جميعها حول محور رئيس هو طغيان الوسائل المادية على القيم والمثل الأخلاقية.

2 ـ شروط الإيجاب :

إن شروط الإيجاب كشروط السلب من حيث الحاجة إلى الالتزام بها، وبنفس الحرص والعناية، لتحصين المواجهة وترشيدها.

وقد نستطيع حصر هذه الشروط من خلال نمطين من الوعي تتحتم إثارته بين المسلمين، وهما :

---

49) انظر، الغارة على العالم الإسلامي ص 131.

50) نفسه، ص 137.

1 - الوعي بالماضي :

إن حاضر المسلمين، بترديـاتـه وانهيـاراتـه، يكاد يكون مقطوع الصلـه مبتور الوشيجة بماضيهم، ثقافة، وتراثا، وتاريخـا. وإذا كنـا نرى، كما أسلفنـا الإشارة، أن كثيرا مما يمكن أن يقترح من حلول لما تعانيه أمة ما لا يجديها إلا بمقدار تلفته نحو ماضيها واستيعاب عقدياته ومـا انبثق عنهـا من ثقـافـة وفكر، فإن وعي المسلمين بماضيهم من خلال معرفة نقديـة، ملهمـة، تـأتي في طليعـة شروط الإيجـاب في مواجهتهم مـع الغرب، ويمكننـا أن نرصـد هـذا الوعي بالماضي في ثلاثة مستويات، هي :

أ - الوعي بثقافة الإسلام :

وهي ثقافـة حضـاريـة لأنهـا تقوم على محور رئيس هو التوحيـد، بمـا جسده في مسـار الإنسـانيـة من مثل الحريـة، والعـدل، والمسـاواة، ومن ثم لم تكن، أي ثقافة الإسلام، وما ينبغي أن تكون، ثقافة سكونية، ولأنها كذلك فقـد كان الإسـلام إمكانيـة سيـاسيـة متميزة، وفعـاليـة غـلابـة في التحـدي والمـواجهـة، والاستشراف والتغيير. ومن هـذا وجب الـوعي بهـذه الثقـافـة الحركية التي يلتحم فيها النظر بالسلوك لتوظيف مقـدراتهـا وفعـاليـاتهـا في تحقيق البعث الحضاري المنشود. وفي هذا الصدد ينبغي التذكير بأن التاريخ لتألقنا الحضاري، وتوهجنا الفكري بدأ يوم بدأنا نصـدر في جميع ممـارسـاتنـا عن هذه الثقافة، وبالمثل فإن التاريخ لفشلنا، وإخفاقنا، وذهاب ريحنا بدأ يوم بدأنا ننبذ وراء ظهورنا مضامين هذه الثقافة وتعاليمها.

ب - الوعي بتراث الإسلام :

والتراث، أيا كان لونه وغطه، ذاكرة الأمة، يرتبط تفكير أبنائها وسلوكهم، من حيث يريدون أولا يريدون (بمخزون) تلك الذاكرة، طيبا كان أو خبيثا، مخصبا كان أو مجدبا.

ومهما يكن من اختلاف الرأي في أمر التراث فإن ما يصح في المنطق السوي هو أن الأمم في معترك الصراع الحضاري مدعوة، بإلحاح، لحماية خصائصها ومميزاتها العقدية، والعقلية، والحضارية، وهي لذلك ملزمة بالعودة إلى ذاكرتها، أي إلى تراثها لتتزود منه، شريطة ألا يكون هذا التزود إلا من الأصلح والأنفع، أي من كفايات أبنائها التي رجحت بها موازينها في الماضي. ولن يكون من تراث المسلمين كذلك إلا ما يحرر الإنسان من ربقة التبعية، والخنوع، والتذلل، ويمنح النفوس الأمن والثبات، لا تغل معهما الأيدي ولا تعقل الألسنة، بل يقوى في كنفهما الإيمان بضرورة تغيير واقع المسلمين الراهن ورفع (وصاية) الغرب عنه.

ج - الوعي بتاريخ الإسلام :

ينبغي أن يبدأ هذا الوعي بطرح صيغة إسلامية لمفهوم التاريخ تبصر المسلمين بأن تاريخهم إنما ولد ثمرة صراع بين الاستواء والإكباب، وبين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وما نشك، بعد ذلك، في الفائدة من التوغل في مسارب هذا التاريخ والوقوف عند منعطفاته لإجراء الحفريات، وتحديد

المعالم، واستكناه المعاني، وربما رأى بعض الناس أن الإكباب على التاريخ إنما هو اللواذ بالماضي هروبا من مواجهة تحديات الواقع الشرسة، لكن الصواب يجانبهم في هذا الرأي طالما أن هذا الإكباب الذي نعنيه يتم من خلال منظور علمي، موضوعي، يتوخى الكشف عن الطيب والخبيث، والثابت والمتحول، فينتج، بالتأسيس على ذلك، وعي بهذا التاريخ، يكتشف في ضوئه المسلمون جوانب من ذاتيتهم الحقيقة، وهو يتهم الأصيلة، ويتخذون في ضوئه، أيضا، مواقفهم من الإنسان والعصر، وبهذا يصبح الوعي بالتاريخ، كشرط إيجابي في معركة المواجهة، معادلا للوعي بالحاضر، وهو ما سنتحدث عنه في الفقرة التالية :

2 ـ الوعي بالحاضر :

والمراد الوعي به في بعده العلمي خاصة، سواء في واقع الغرب أو في واقع المسلمين.

أ ـ أما في واقع الغرب فلا أحد ينكر ما أنجزه العلم من فتوحات باهرة في شتى الميادين. وعلى ما اقترن به التقدم العلمي في الغرب من آفات وانحرافات، كما بينا في غير هذا الموضع، فإن سمة العصر تظل هي سمة العلم بمبتكراته ومخترعاته.

ب ـ وأما في واقع المسلمين فإن (العلم) بمعناه التكنولوجي لا يكاد يكون له وجود. وبقاء وضعية (العلم) على هذه الحال في واقع المسلمين يحول بينهم وبين الخروج من دائرة الشعوب التي تستهلك الحضارة ولا تنتجها.

وليس من سبيل للتخلص من ذلك إلا بالإقبال على علم الغرب لاستيعابه وتمثله على مستوييه النظري والتطبيقي على أن يقترن ذلك بالإدراك السليم لرسالة العلم البناءة ودوره الحاسم في إسعاف الإنسان على ممارسة مهمته السامية في تعمير الكون والاستخلاف في الأرض كما أرادت له العناية الإلهية.

تطوان　　　　د. حسن الوراكَلي

المصادر والمراجع

1 - القرآن الكريم

أسد، محمد

2 - الإسلام على مفترق الطرق

ترجمة : د. عمر فروخ

دار العلم للملايين - بيروت. ط. 6 (1965م).

برون جفري

3 - الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر

ترجمة : عبلة حجاب

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت (1963م)

ابن عبود، محمد

4 - «الاستشراق والنخبة العربية»

فصلة من (المجلة التاريخية المغربية) ع 27 - 28 س

9 (ديسمبر 1982م) - تونس.

ابن نبي، مالك

5 - إنتاج المستشرقين

- بيروت

د. البهي، محمد

6 - العلمانية وتطبيقها في الإسلام

مجلة (الأمة) ع 1 س 1 ص 38 - 42 (محرم 1401 هـ - نوفمبر 1980م)

جارودي، رجاء

7 - الإسلام وأزمة الغرب

ترجمة : د. رفيق المصري

عالم المعرفة للنشر والتوزيع - جدة. ط 1 (1403 هـ - 1983م)

د. حسن، سيد دسوقي ود. سفر، محمود محمد

8 - ثغرة في الطريق المسدود (دراسة في البحث الحضاري)

دار آفاق الغد - القاهرة. ط. 1 (1401 هـ - 1981م)

حسون، فيصل

9 - التحديات الحضارية المعاصرة للأمة الإسلامية

(ضمن كتاب «الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم»)

منشورات منظمة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي»

المجلد 2. ص 207 - 274. ط 1 (1401 هـ - 1981م)

د. حسين، محمد محمد

10 ـ الإسلام والحضارة الغربية
دار الإرشاد ـ بيروت. ط 1 (1388 هـ ـ 1969م)
د. خليل، عماد الدين

11 ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم
رقم 4 من سلسلة «كتاب الأمة». قطر. ط 1 (1403 هـ).
زياد، أحمد

12 ـ لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب
دار الكتاب ـ الدار البيضاء. ط. 1 (1973م)
شاتيليه. أ. ل.

13 ـ الغارة على العالم الإسلامي
تعريب : محب الدين الخطيب ومساعد الباقي
عودة، عبد القادر

14 ـ الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه
منشورات «الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية» رقم 6.
الغنوشي، راشد والنيفر مصطفى

15 ـ ما هو الغرب ؟
منشورات المعرفة ـ تونس. مطبعة فائزي
الفاسي، علال

16 ـ ديوان علال الفاسي (ج 1)
تحقيق : عبد العلي الودغيري
منشورات مؤسسة علال الفاسي

17 ـ المختار من شعر علال الفاسي
إعداد : اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال. ط. 1 (1976م)
قاسم، مولود

18 ـ إنية وأصالة
مطبوعات وزارة التعليم الأصلي ـ الجزائر
كنون، عبد الله

19 ـ حوار معه منشور في مجلة (الأمة) ع 26 ـ س 3 ص 52 ـ 59
(صفر 1403 هـ ـ ديسمبر 1982م)
المبارك، محمد

20 ـ الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية
دار الفكر ـ بيروت. ط 2 (1389 هـ ـ 1970م)
د. محمود، علي عبد الحليم

21 ـ الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر
دار البحوث العلمية ـ الكويت. ط. 1 (1399 هـ ـ 1979م)
د. منصور، عبد السلام
22 ـ خطبة عيد الأضحى بقرطبة (1400 هـ)
ترجمة : د. حسن الوراكلي
منشورات صحيفة «النور» ـ تطوان (المغرب)
د. الوراكلي حسن
23 ـ المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي
مكتبة المعارف ـ الرباط. ط 1 (1405 هـ ـ 1985م)
24 ـ الومضات (خواطر في الدين والحياة)
(منشورة بصحيفة (النور) ـ السنوات العشر الأولى ـ (1392 هـ ـ 1402 هـ)

د. ح. و

باب التشبيه

من كتاب

الروض المريع في صناعة البديع

لابن البناء المراكشي[☆]

تقديم وتحقيق
رضوان ابن شقرون

تقديم الكتاب :

1 ـ دوافع تأليفه :

ألف ابن البناء[1] كتاب (الروض المريع) في صناعة البديع والأساليب البلاغية لأنها تعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله، وتهدي إلى إدراك إعجاز القرآن وتأثيره، وفصاحة الرسول ﷺ وبيانه، فكان هذا القصد البلاغي أساسا في الكتاب وغاية. وقد نظر المؤلف في القرآن الكريم كما

☆) هذا البحث مقتطف من رسالة قدمت إلى كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، بالرباط لنيل دبلوم الدراسات العليا، بعنوان : ابن البناء المراكشي المعروف بالعددي، بحث في عصره وحياته وثقافته، مع تحقيق كتابه «الروض المريع في صناعة البديع».

1) عاش ابن البناء المراكشي المعروف بالعددي أيام دولة بني مرين بين سنة 654 وسنة 721 هـ (1256 ـ 1321م) واشتهر في الرياضيات والتصوف والفلك وغيرها. ومن أهم مصادر ترجمته أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفد 66، وجذوة الاقتباس لابن القاضي 148/1 ونيل الابتهاج للتمبكتي 65 وسلوة الانفاس للكتاني 52/2 والإعلام للمراكشي 375/1.

نظر فيه البلاغيون الأقدمون، ووقف أمام إعجازه وبلاغته كما وقفوا، وتبين أنه قد «قصرت دون بلاغته وبراعته الفهوم، وانحصرت تحت كلياته وجزئياته جميع العلوم... وعجزت عن تصور كنه عجائبه وضروب غرائبه الأذهان»[2]. فأراد أن يؤلف كتابا تكون «منفعته في زيادة المنة، وفهم الكتاب والسنة»[3]، ووجد أن تقريب الصور البلاغية إلى الأذهان هو السبيل الموصل إلى تلك الغاية، فوضع هذا الكتاب، وصرح في ديباجته بغرضه فقال : «وبعد فغرضي أن أقرب في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع، ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع تقريبا غير مخل، وتأليفا غير ممل»[4]. وقرره في الخاتمة أيضا فقال : «وبهذا الذي ذكرناه في هذا الكتاب يعرف التفاضل في البلاغة والفصاحة، وهو قدر كاف في فهم ذلك في كتاب الله وسنة نبيه وفي المخاطبات كلها»[5].

فالكتاب ألف لغرضين اثنين أساسين :

الأول تبسيط الصور البلاغية وتقريبها إلى الأذهان باختصار ومن غير إخلال.

والثاني استغلال تلك الصور البلاغية في فهم القرآن الكريم والسنة الشريفة، ثم في تذوق أساليب الخطاب المتنوعة.

ولا عجب أن يقصد ابن البناء إلى نفس الغاية التي قصد إليها البلاغيون الأصلاء قبله، وألفوا فيها الكتب النفيسة القيمة. ولم ينهج نهج

2) الروض المريع ص 18.
3) المصدر نفسه ص 19.
4) المصدر نفسه ص 19.
5) المصدر نفسه ص 94.

ين انحرفوا بالبلاغة إلى غاية تعليمية قاعدية محض منذ القرن السابع
الهجري، بل حافظ على المقصد الفني الذوقي الأصيل للبلاغة، وهو يصرح
بذلك ويؤكده.

غير أنه يتأثر تأثرا كبيرا بالمنهج الفلسفي المنطقي في التفكير
والبرهنة والاستدلال، ويعتمد على التطبيق والتوضيح.

ولقد وعى المؤلف (صناعة) البديع و(علم) البيان، وأدرك العلاقة
بينهما، فبنى كتابه هذا على أسس تلك (الصناعة) وهذا (العلم). وحاول أن
يستقصي كل الصور والأساليب الممكن إدراجها تحتها بما يناسب من
المباحث والصور البلاغية والموضوعات المفيدة في تنمية الذوق البلاغي
فاستوى له موضوع صناعة البديع «روضا مريعا» تفوح أزاهره بروعة الأداء
ووضوح الإشارة وصحة الاستدلال وسلامة الذوق وحسن الاختيار ومناسبة
الشاهد. فجاء الكتاب بناء متكامل الأركان متلاحم اللبنات مترابط
الأجزاء. وقد تحرى المؤلف فيه الإيجاز والوضوح والدقة، مع الوفاء بجوانب
الموضوع المتشعب الذي سبر أغواره بكثرة تقسيماته وتعدد فروعه واختلاف
تحليلاته وأسماء أنواعه، وحدد الصور التي سيفرغ فيها موضوعه، ثم التزم بها
حسب خطة مرسومة ومنهج واضح.

2 ـ مضمونه :

لقد بنى المؤلف كتابه (الروض المريع في صناعة البديع) على ديباجة
وثلاثة أبواب وخاتمة.

تتضمن الديباجة خطبة الكتاب، ويحدد المؤلف فيها اسم الكتاب
وموضوعه وأغراض تأليفة وفوائده.

ويشتمل الباب الأول على مقدمات عامة في البلاغة. وفيه ثلاثة فصول، فصل في الدلالة، وفصل في بيان أقسام الكلام المختلفة التي ستكون موضوع الدراسة في أبواب الكتاب، وفصل في صناعة البديع وعلاقتها بالبلاغة والبيان.

ويتناول الباب الثاني أقسام الكلام من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود. وفيه أربعة فصول، فصل في الخروج من شيء إلى شيء، وفصل في تشبيه شيء بشيء، وفصل في تبديل شيء بشيء، وفصل في تفصيل شيء بشيء.

ويتناول الباب الثالث أقسام الكلام من جهة الدلالة على المعنى. وفيه ثلاثة فصول، فصل في الإيجاز والاختصار، وفصل في الإكثار، وفصل في التكرير.

وكما استهل المؤلف الكتاب بخطبة موجزة ومركزة، ختمه بخاتمة موجزة ومركزة أيضا، تشتمل على نظريات بلاغية ذات أهمية نقدية وفنية وتعليمية بالغة.

ذلك ما يتبين لقارئ الكتاب إن رام تنظيم أبوابه وتحديد فصوله. لكن المؤلف نفسه يفتح الأبواب لمباحثه وفصوله في تعاقب وتساوق، دون أن يضع الفواصل أو العناوين المميزة للأبواب والفصول بعضها عن بعض.

3 ـ منهجه :

يتبع المؤلف في الكتاب منهجا يكاد يكون مطردا في سائر الفصول والأبواب منذ البداية إلى الختام. وهو منهج واضح دقيق لا تسوده فوضى التأليف التي تسود بعض المؤلفات القديمة، ولا يطبعه الجفاف والصلابة في

الفكرة والعبارة ولا الاضطراب في التناول. بل إن الكتاب يسير وفق خطة مرسومة في ذهن المؤلف، أشار إليها بين دفتي الكتاب في التمهيد وعند الخاتمة، فتعاقبت فصوله وأبوابه حسب تلك الخطة متناسبة متسقة.

يسلك المؤلف مسلك الإيجاز والاختصار، من غير أن يخل بالمعنى. وهذا المسلك هو السبيل الذي يشير إليه في المقدمة إذ ينص على أنه يسعى إلى أن يكون تأليفه هذا «تأليفا غير ممل، يصغر جرمه، ويكثر علمه»[6]. وهو سبيل المؤلف في سائر كتبه، وهو المنهج الذي ارتضاه لنفسه ودافع عنه بقوله :

قَصَدْتُ إلى الْوجَازَةِ في كَلامي
لعِلْمي بالصَّوابِ في الاِخْتِصارِ
ولَم أحْذَرْ فُهوماً دونَ فَهْمي
ولكن خِفتُ إزراءَ الكِبارِ
فَشَأْنُ فُحولَةِ العُلماءِ شَأْني
وشَأْنُ البُسْطِ تَعليمُ الصِّغارِ[7]

فهو يسوق تعريف المصطلح البلاغي الذي يريد بسطه وتقريبه إلى الأفهام، ويضعه في إطاره الدقيق، ثم يعرض لما يندرج تحته من أنواع، متحدثا عن كل نوع على حدة، موضحا حديثه بالتطبيق وذكر الأمثلة الموضحة وسوق الشواهد الدالة من القرآن والشعر كثيرا، ومن السنة والأقوال

---

6) الروض المريع 19.

7) التمحيص لابن هيدور 7، وجذوة الاقتباس لابن القاضي 152.

المأثورة قليلا، وقد يكتفي عن تحديد النوع أو ذكر القواعد بذكر الشاهد[8].

والشواهد قليلة في الفصول الأولى من الكتاب، لأنها مقدمات عامة تمهد للدراسة، فلذلك نلاحظ أن الكتاب يغلب عليه الجانب النظري في الباب الأول، ثم ما يلبث أن ينغمر في التطبيق والاستشهاد، فتتكاثف الشواهد في الفصول الأساسية منه. ويدل ذلك على ميل المؤلف إلى منهج التوضيح والبيان لبلوغ الأفهام. فبرغم طابع الإيجاز والاختصار الذي يطبع الكتاب كله نجد الشواهد تبلغ فيه ستة ومائتي شاهد، منها سبع وعشرون ومائة آية من الذكر الحكيم، وثمانية أقوال مأثورة، فيها حديث نبوي واحد، ومقولة لأبي بكر الصديق، وأخرى لعمر بن الخطاب، وحوار بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، رضي الله عنهم أجمعين، وفيها مثلان اثنان، وقولتان اثنتان. أما الشواهد الشعرية فعددها أربعة وسبعون بيتا أو شطرا.

ولا ينسب المؤلف شواهد الشعر وأمثلته إلى أصحابها ولم يتخلف عن هذا المنهج سوى في مواضع نادرة جدا. فمرة نص على اسم شاعر فقال : «كقول كثير»، ومرة ذكر اسم شاعر آخر فقال : «كقول أبي تمام». وفيما عدا ذلك يكتفي بمثل قوله : «كما قال الناظم»، أو «كقوله»، وما أشبه هذه العبارات.

والشعراء الذين يستشهد بأشعارهم فيهم تسعة جاهليون، هم الربيع بن ضبع الفزاري والنابغة الذبياني والسموءل بن عادياء وامرؤ القيس الكندي

---

8) استعضنا عن ضرب الأمثلة هنا بالنص الذي نضعه بين يدي القارئ محققا عقب هذا التقديم الوجيز.

والأفوه الأودي وزهير بن أبي سلمى وابن زيابة وقريط بن أنيف وعدي ابن زيد. وفيهم سبعة مخضرمون أو إسلاميون هم الخنساء وأبو الأسود الدؤلي وابن أحمر الباهلي وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلي والعجير السلولي وكثير عزة. وبقية الشعراء من الأعلام العباسيين المشاهير كأبي تمام وابن الرومي والبحتري والمتنبي والمعري، أو ممن هم أقل شهرة كعلي بن محمد الكوفي وأبي القاسم الزاهي والحسن البغدادي.

وهذا الحشد من الشعر والشعراء في الكتاب، على إيجازه وقصره، يدل على معرفة المؤلف الواسعة واطلاعه وتمكنه من الأدب العربي في مختلف حقبه، كما يدل على ميله إلى الاعتماد على الأصيل العريق الجيد من الأدب والشعر.

وهذه الأمثلة والشواهد تقيم التوازن والتكامل في الكتاب بين الجانب النظري والجانب التطبيقي في القواعد النقدية والبلاغية التي يقررها أو يبسطها ويقربها وتلك ميزة من أهم مميزات طريقة ابن البناء، بالمقارنة مع طرق البلاغيين الذين سبقوه أو عاصروه، كالسكاكي والقرطاجني وابن حمزة العلوي. فقد انصب اهتمامهم على الجانب النظري أكثر مما عنوا بسوق الشواهد والأمثلة المناسبة وإن فعلوا أقلوا.

ويتبع المؤلف منهج التقسيم والتفريع بقصد الإيضاح والتفصيل، من غير إغراق في ذكر الأقسام والأنواع والفروع لذاتها. فقد يقتصر على ذكر أنموذج أو أنموذجين من أقسام بعض الأنواع، ويكتفي بها عن سواها. من ذلك حديثه عن القياس في باب الإكثار، وحديثه عن البناء في قسم المواطأة من باب التكرير، وعن الاخترام في باب الحذف، وغير ذلك من الأنواع التي اكتفى عن بعضها بسواها، واقتصر في بعضها على ذكر المثل

دون ان يحدد الأسماء أو يغرق في التعريفات. وهذا هو المنهج الذي دل عليه في خطبة الكتاب حيث بين أن غرضه من تأليفه هو التقريب «من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع، تقريبا غير مخل، وتأليفا غير ممل»[9].

ويتخذ المؤلف المنهج العلمي الدقيق وسيلة لإثبات النظريات وتبليغ المعلومات وتحليل الأنواع، مستفيدا في ذلك من ثقافته الواسعة والعلوم التي تمكن منها كالمنطق والكلام وأصول الفقه. فقد ظهرت معالم هذه الثقافة واضحة في فصول الكتاب، ودل بذلك على الجسور الممتدة في عصره بين مختلف صنوف المعرفة، وعلى رغبته الملحة في الإقناع والاستدلال وإرجاع الأمور إلى أصولها، مع بقائه دوما في دائرة الهدف النقدي البلاغي (البديعي)، وكأنه يريد أن يزاوج بين المنحيين البلاغي والمنطقي في الدرس النقدي البديعي أو في الصناعة البيانية.

ولا يتحفظ المؤلف في استعمال بعض المصطلحات المنطقية والفلسفية، وأساليب المتكلمين والأصوليين والمنطقيين بكثرة ووضوح، كمصطلحات (التقسيم بالقوة والتقسيم بالفعل) و(السبر والتقسيم)، و(المقدم والتالي)، و(الممكن والواجب)... وهو يستعمل من تلك الألفاظ والمصطلحات ما يتناسب مع الغرض البلاغي الذي يعنى به، وما يساعد على تقريب الأقسام والأنواع التي تتفرع إليها تلك الأغراض وزيادة توضيحها.

ويتحرى المؤلف الوضوح في الأسلوب، ويلتزم النقاء في اللغة والقوة في العبارة والتنسيق القائم على وحدة السياق. وعبارته بعيدة عن التكلف والحشو والاضطراب.

---

9) الروض المريع 19.

تلك هي المميزات التي يتميز بها (الروض المريع)، وذلك هو المنهج الذي ينهجه ابن البناء في هذا الكتاب. بل هو السبيل الذي ينصح به للقارئ في آخر الكتاب لكي يلتمس حسن اللفظ وصلاحه، فيختار لعبارته الكلام المستعمل الواضح السهل البعيد عن التكلف والتعسف. يقول : «واعلم أن المحمود في جميع أساليب البلاغة إنما هو ما لا يظهر فيه التكلف، ولا يكون مطلوبا بالتعسف، وعليه رونق الفصاحة وطلاوة البديع»[10].

☆ ☆ ☆

إن (الروض المريع) ثمرة من ثمرات فكر ابن البناء ونظرياته وآرائه. وإن فيه لجوانب رحبة مما قرأه المؤلف واستوعبه وتمكن منه. وإنه لصورة للبلاغة العربية في إطارها الفلسفي الذي عرف في المغرب على يد الثالوث المبدع : حازم القرطاجني، وابن البناء المراكشي، وأبي محمد السجلماسي. فهؤلاء يمثلون الوجه الثاني للصورة التي مثل وجهها الأول اللغويون والمتأدبون أمثال ابن رشيق القيرواني، وأبي القاسم الشريف السبتي، وابن أبي القاسم الثعالبي.

☆ ☆ ☆

وبعد فهذه فقرة من أهم فقرات الكتاب، تحمل الكثير من تلك الخصائص والمميزات التي عرضناها بإيجاز فيما تقدم. والفقرة هي الفصل الثاني من الباب الثاني من الكتاب. فأما الباب فهو (أقسام الكلام من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود). وأما الفصل فهو (تشبيه شيء بشيء).

رموز النسخ الخطية المحال عليها

ق : النسخة المحفوظة في خزانة القرويين بفاس.

ن : النسخة المحفوظة بالخزانة الناصرية بتامكروت.

خ : النسخة المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط.

---

10) الروض المريع 94.

يقول ابن البنأ المراكشي :

وأما تشبيه شيء بشيء[11] فإنه كما يشبه الأول الثاني، كذلك يشبه الثاني الأول، فلا بد أن يكون للمشبه به مزيد اعتبار من سبقه أو دوامه أو شرفه أو غير ذلك حتى يكون أولى بالصفة التي وقع التشبيه[12] فيها. وقد يتكافآن في ذلك بأن تكون في أحدهما صفة تقتضي تقديمه على الآخر، وتكون في الآخر صفة تقتضي تقديمه على الأول، فيكون كل واحد منهما راجحا من وجه، مرجوحا من وجه، فيصح عكس التشبيه فيهما[13] بالسوية. وقد يجعل المرجوح بالتخيل الشعري راجحا، وهو من ترجيح المجاز، فيعكس التشبيه لأجل ذلك، كما قال :

فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ شَيْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا
وَفِي الْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا[14]

وإلا فلا يصح في البديع عكس التشبيه.

وكل ما في التشبيه من كذب أو غلو، فلا يكون في الحكمة ويكون في الشعر، لأنه سبني على المحاكاة والتخيل لا على الحقائق، ولذلك اختص الشعر بأنواع ليست من البديع بحسب الحكمة، وهي من البديع بحسب اللسان إذ

---

11) بحث التشبيه في الكتاب 121/1 والحيوان 99/1 والبديع لابن المعتز 121 وحلية المحاضرة 170/1 ومفتاح العلوم 177.

12) ق : الشبه.

13) ق : فيها.

14) البيت للبحتري من قصيدة في مدح المتوكل، مطلعها :

أنا فعي عند ليلى فرط حبيها ولوعة لي أبديها وأخفيها

وهي في ديوانه 1410/4. ورواية البيت فيه :

في حمرة الورد شكل من تلهبها وللقضيب نصيب من تثنيها

وهو في الخصائص 302/1 والموازنة 390/2، 106 والصناعتين 307 والمثل السائر 421/1.

الشعر منه، ولكن ليس للشاعر[15] أن يحاكي ويتخيل في الشيء ما ليس موجودا أصلا، لأنه إذا فعل ذلك لم يكن محاكيا بل يكون مخترعا، فيتركب الكذب في قوله فتبطل المحاكاة لكذبها وهي موضوع الشعر، ولذلك اعترض قوله :

فَـــــأمطَرَت لُـــؤلـــؤاً من نَرجِسٍ وسَقَتْ
وَرْداً وعَضَّت على العُنَّـــاب بـــــالبَرَدِ[16]

فقيل : الصواب لو قال :

فَـــــــأمْطَرت بَرَداً من نَرجسٍ وسَقَت
ورداً وعَضَّت على العُنَّـــاب بـــالـــدُّرَرِ

من حيث أن إمطار اللؤلؤ غير مشاهد[17] ولا معروف، (فهو)[18] قد حاكى الدمع في انسكابه على خدها بشيء غير موجود ولا معلوم إلا[19] من عنده اخترعه من نفسه. ومن الناس من يرى أن الشعر موضع الكذب (والإيغال) في المحال، فيجوز ذلك فيه[20] ويجعله من الترشيح. والقول الأول أنسب لصناعة الشعر، [و][21] الثاني أنسب لمعناه.

---

15) ن، خـ : للشعر.
16) البيت للوأواء الدمشقي، أبي الفرج محمد بن أحمد الغساني (ت 370 هـ / 980م) وهو الثاني من مقطوعة في أربعة أبيات أولها :

قالت وقد فتكت فينا لواحظهـــا   كم ذا أما لقتيل الحب من قـــود

وهي في ديوانه 84. والبيت في الصناعتين 207 ودلائل الإعجاز 345 والبديع لابن منقذ 75 وسر الفصاحة 135
17) ن : مشاهدا.
18) ساقط من ق.
19) ن : لا.
20) هنا نهاية البتر في خـ.
21) زيادة من ق، خـ.

وينبغي أن يكون التشبيه شريفا[22] مما يتكلم به الرؤساء [و][22م] الأشراف لا خسيسا سوقيا عاميا.

والتشبيه على قسمين : بحرف، وبغير حرف. والذي بغير حرف يدخل[23] في تبديل شيء بشيء على ما يأتي ذكره. والذي بالحرف منه مفرد كقول الناظم :

أرى الليلَ يَمضي والنُّجومُ كأنَّها
عُيونُ الندامَى حين مالَتْ إلى الغَمْضِ

وقد لاحَ فَجْرٌ يَغمرُ الجَوَّ نُورُه
كما انْفَجَرَتْ بالماءِ عَين على الأرضِ[24]

ومنه مركب، كقوله :

رأيتَ الحُمَيا في الزُّجاجِ بكَفِّهِ
فشَبَّهْتُها بالشَّمسِ، بالبَدْرِ في البَحْرِ[25]

---

22) ق : تشريفا.

22م) زيادة من ق.

23) خـ : ويدخل.

24) البيتان لأبي القاسم الزاهي (ت 352 هـ / 963م). وهما في اليتيمة 250/1.

25) البيت للمتنبي من مقطوعة في ثلاثة أبيات ارتجلها في مدح أبي الحسن ابن إبراهيم، وقد دخل عليه وهو يشرب، أولها :

مرتك ابن إبراهيم صافية الخمر وهنئتها من شارب مسكر السكر

وهي في شرح ديوان المتنبي للبرقوقي 288/2. ورواية البيت فيه وفي ن، ق : «في البدر»، ولا يستقيم به التشبيه والمعنى.

وكقوله :

كأنَّ قُلـــوبَ الطيرِ رَطبـــــاً ويـــــابِســـــاً
لـــدى وَكرِهـــا العُنَّـــابُ والحَشَفُ البـــالي[26]

ومنه المناسبة[27]، وهي اشتباه النسب. والنسبة تكون بين شيئين، (فإن كانت[28] النسبة التي[29] بين شيئين)[30] كالنسبة التي بين شيئين آخرين قيل لأربعة الأشياء[31] : متناسبة. قال الله تعالى :[32] **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾**[33]. وقال تعالى : **﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا﴾**[34] فنسبة الذين حملوا التوراة إلى حملهم أسفارها ثم لم يحملوا ما حملوا من القيام بها كنسبة الحمار إلى حمله أسفارا، فنسبتهم في عدم القيام بما فيها[35] كنسبة الحمار في عدم قيامه (بما)[36] في

---

26) البيت لامرئ القيس الكندي، من لاميته التي مطلعها :
ألا عم صباحا أيها الطلل البالـــي   وهل يعمن من كان في العصر الخالـــي
وهي في ديوانه 38. والبيت في الكامل 32/3 والعمدة 262/1 وأسرار البلاغة 168 والإيضاح 367/1.

27) بحث المناسبة في النكت 22 وتحرير التحبير 363 وبديع القرآن 145 ومنهاج البلغاء 14.

28) ق : كان.

29) في خـ : «التي تكون بين».

30) زيادة من ق، خـ.

31) ق : لأربعة أشياء، خـ : أربعة أشياء.

32) ق، خـ : عز وجل.

33) سورة الجمعة 5/62.

34) سورة العنكبوت 41/29.

35) ق، خـ : بها.

36) ساقطة من خـ.

الأسفار لاستوائهم معه في عدم العقل[37] ونسبة الكفار إلى اتخا[ذهم][38] الآلهة كنسبة العنكبوت إلى اتخاذها بيتا.

والأشياء المتناسبة إذا بدلت تبقى متناسبة، فتكون نسبة الأول للثالث[39] كنسبة الثاني[40] للرابع. وكذلك إذا ركبت أو فصلت أو عكست تبقى متناسبة، ولذلك يدخلها الإبدال[41] والحذف على ما يأتي ذكره.

ومتى كانت عدة أشياء وأشياء أخر على عدتها، وكل واحد[42] من هذه على موازاة واحد من هذه، وكلها في غرض واحد، إما تشبيه أو تفسير أو غير ذلك، فهي من المتناسبة. والأشياء الأول مقدّمات، والأشياء الأخر توال، ونسبة كل واحد من المقدمات إلى قرينه[43] من التوالي هي[44] كنسبة جميع المقدّمات إلى جميع التوالي. فيتأتى في العبارة بها أربع[45] صور :

37) ق : الفعل.
38) زيادة من ق، خـ.
39) ن : للثاني.
40) ن : الثالث.
41) ق : والإبدال.
42) ق : واحدة.
43) ن، ق، خـ : قرينة. والصواب ما أثبتناه.
44) ق : هو.
45) ق، خـ : أربعة.

إحداها[46] أن تـأتي[47] بكل واحـد من المقـدمـات مع قرينـه[48] من التـوالي، كما قـال تعـالى : ﴿**وجعلنـا الليـل لبـاسـا وجعلنـا النهـار معاشا**﴾[49].

الصورة الثانية أن تـأتي بجميع المقـدمـات ثم بجميع التوالي مرتبـة من أولها، كما قال تعالى : ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهـار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله**﴾[50]. وكذلـك قولـه تعـالى : ﴿**ومن يرتـدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمـالهم في الـدنيـا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالـدون**﴾[51]، هو من هـذه (الصورة)[52] الثانية على رأي مالك بن أنس رحمه الله. وهـاتـان الصورتـان تسميان بالمقابلة[53].

الصورة الثالثة أن تـأتي[54] بجميع المقـدمـات ثم بجميع التوالي مرتبـة من آخرها، وتسمى رد الأعجاز على الصدور[55]، كما قال تعـالى :[56] ﴿**يوم**

46) ن : أحدها، ق : أحدهما.
47) خـ : يأتي.
48) خـ : قرينة.
49) سورة النبأ 10/78 ـ 12.
50) سورة القصص 73/28.
51) سورة البقرة 215/2.
52) ساقط من ق.
53) بحث المقابلة في العمدة 15/2 وسر الفصاحة 303 وبديع القرآن 73 وكتاب الفوائد 147.
54) ق، خـ : يأتي.
55) بحث رد الأعجاز على الصدور في البديع لابن المعتز 93 والصناعتين 385 وبديع القرآن 36 وأنوار التجلي 53.
56) ق، خـ : الله عز وجل.

نبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله، هم فيها خالدون﴾[57].

والصورة الرابعة أن تأتي بجميع المقدمات ثم بجميع التوالي مختلطة غير مرتبة، ويسمى ذلك اللف[58]، كما قال تعالى : **﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب﴾**[59] فنسبة قوله [تعالى][60]: **﴿متى نصر الله﴾** إلى قوله : **﴿والذين آمنوا﴾**[61] كنسبة قوله : **﴿ألا إن نصر الله قريب﴾** إلى قوله : **﴿حتى يقول الرسول﴾**[62]. فالذين آمنوا (معه)[63] يقولون : «متى نصر الله»، والرسول يقول : «ألا إن نصر الله قريب»، لأن القولين المتباينين يصدران عن[64] مقامين متباينين[65]. وكما قال تعالى : **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء**

---

57) سورة آل عمران 106/3.

58) بحث اللف في الصناعتين 267 وسر الفصاحة 188 وحسن التوسل 245 والمنزع البديع 350.

59) سورة البقرة 212/2.

60) زيادة من ق، خـ :

61) زاد في ق : «معه».

62) زاد في خـ قوله تعالى : **﴿والذين آمنوا﴾**.

63) ساقط من ق، خـ.

64) خـ : من.

65) في الصاحبي 409 : «قالوا : لما لم يصلح أن يقول الرسول : متى نصر الله ؟ كان التأويل : وزلزلوا حتى قال المومنون : متى نصر الله ؟ فقال الرسول : ألا إن نصر الله قريب. ردكل كلام إلى من صلح أن يكون له».

فتطردهم فتكون من الظالمين﴾[66]. فنسبة قوله [تعالى] :[67] **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾** إلى (قوله) :[68] **﴿فتكون من الظالمين﴾**، كنسبة قوله [تعالى] : **﴿ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء﴾** إلى قوله : **﴿فتطردهم﴾**، فجمع المقدمين وجمع التاليين بالالتفاف[69].

وقد تقع المناسبة (بين)[70] الأضداد، يقصد بذلك المقاومة والمغالبة[71]، ويسمى المكافأة[72]، كقول الناظم :

إذا أَيْقَظَتْكَ حُروبَ الْعِدا　　فنبِّهْ لها عُمَراً ثُمَّ نَمْ[73]

فالنوم يضاد اليقظة، وانتباه عمر للحروب يضادها، ونسبة[74] حروب العدا إلى زوالها بعمر، كنسبة يقظته إلى زوالها بنومه، كأن الناظم

---

66) سورة الأنعام 52/6.

67) زيادة من ق، خـ.

68) ساقط من ق، خـ.

69) ق، خـ : بالإلتفات.

70) ساقط من ق.

71) ن، خـ : المغالبة والمقاومة.

72) بحث المكافأة في نقد الشعر 29 والصناعتين 316 والتبيان للزملكاني 170 وتحرير التحبير 113.

73) البيت من قصيدة لبشار بن برد، يقول محقق ديوانه إن مطلعها قد فات الجامعين والشارحين الأقدمين، وهي تبتدئ عنده بقوله :

ونبئت قوما بهم جنة　　يقولون من ذا وكنت العلم

والقصيدة في مدح الأمير عمر بن العلاء أحدقوا د الفتوح في العصر العباسي الأول. وهي في ديوان بشار 160/4. والبيت في الشعر والشعراء 645/2 والأغاني 193/3 والموشح 246 وجوهر الكنز 90.

74) ن : نسب.

قال : إذا أيقظتك حروب العدا فأزل[75] الحرب[76] بعمر، وأزل إيقاظها بالنوم. فكما تعود الحرب[77] إلى الهدنة والسلم، كذلك يعود من يقظته إلى النوم. وظاهر من قوله : «حروب العدا» و«نبه لها عمرا» أن ههنا[78] أيضا أربعة أشياء متناسبة : العدا، وحروبها، وعمر، وفعله. فعمر في مقابلة العدا، وفعله في مقابلة الحروب. فنسبة حروب العدا إلى العدا كنسبة فعل عمر إلى عمر. حذف الوسطان اختصارا، وذكر الطرفان وهما حروب العدا وعمر، على ما يأتي بيانه في الحذف بعد هذا، فقد صار في هذا[79] البيت ثلاثة أشياء [وهي] :[80] الحروب، والعدا، والإيقاظ. في مقابلة ثلاثة أشياء وهي : فعل عمر، وعمر، والنوم. وكلها في نسبة التكافؤ والتضاد[81] والثلاثة التوالي تدفع الثلاثة المقدمات.

ولابد في ترتيب المتناسبة[82] من مشاكلة النظم، كما جعل امرؤ القيس الشجاعة مع الكرم لأنهما مصاحبان في الوجود، وقرن بين مركوبين للذة : الجواد في الصيد، والكاعب ذات الخلخال في المتعة، وذلك في قوله :

كأنّيَ لَم أركَبْ جَواداً للَـذَّةٍ ... ولم أتَبَطَّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولَمْ أسْبَإِ الـزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أقُلْ ... لِخَيلي كُرِّي كَرَّةً بَعدَ إجفالِ[83]

75) ق : فإن.
76) خـ : النوم.
77) ن : الحروب.
78) ن : هنا.
79) ن : هذه.
80) زيادة من خـ.
81) ن : أو التضاد.
82) ق : المناسبة.
83) البيتان من لاميته التي مطلعها :

ألا عِمْ صباحا أيها الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهي في ديوانه 38. والبيتان في الموشح 34 والعمدة 258/1 والبديع لابن منقذ 148 ورفع الحجب المستورة 41/2.

ولو بدل عجز[84] كل بيت منهما بعجز الآخر لا ختلت المشاكلة وفسد نظام المتناسبة. وكذلك قول الله (تعالى) :[85] ﴿**إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾[86]، قرن بين الجوع والعري وجعل سلبهما مضافا لآدم، وقرن بين الظمأ والضحى ووصفه بسلبهما عنه، ومتى كان السلب صفة فهو غير بسيط، بل يراد به إثبات ما يناقضه. فتكون العبارة عن [87] أحد النقيضين بسلب[88] الآخر، لأنهما لا يرتفعان معا، فالذي لآدم حتى لا يجوع ولا يعرى هو نعيم المأكولات ونعيم الملبوسات[89]، والذي وصف به (هو)[90] اعتدال كيفياته فلا ينحرف إلى سبب العطش والضحى، فهو في ذاته معتدل الكيفيات لاتضاد فيه[91] ومنعم لا يتغير. واقتران[92] الجوع مع الظمأ متنافر في الوجود، ألا ترى أن الظمأ إنما يصيب الشبعان أو من به الضحى،وأما الجائع [فلا][93]. فلا يجمع في المتناسبة[94] بين المتنافرين لأنهما بمنزلة الأول والرابع والثاني والثالث اللذين لا تناسب بينهما. ومتى جاء الجمع بين ضدين فلمعنى آخر لقصد

---

84) ق : عجوز. خـ : كل عجز.
85) ساقط من ق.
86) سورة طه 117/20.
87) خـ : على.
88) خـ : سلب.
89) خـ : المسلوبات.
90) ساقط من خـ.
91) ن : فيها.
92) ن : واقترن.
93) زيادة من خـ.
94) خـ : المناسبة.

البيان، فإن بضدها تتبين الأشياء، وهو المسمى طباقا[95]، ولما تجد[96] النفس في ذكرهما مجموعين من اللذة، لأن اللذة في التقاء الضدّين. ألا ترى أن من أصابه العطش فإن الري لما كان ضده كان إذا شرب الماء وجد له لذة لملاقاة العطش الري، ثم لا يزال الري يستحكم والعطش يضمحل إلى كمال الري وذهاب العطش، فيكف عن الشرب. وإنما كانت اللذة أعظم ما كانت عند الالتقاء،ثم لم تلبث أن أخذت[97] تضعف قليلا [قليلا][98] حتى يبلغ الري، فتخلص[99] لذته وتنقضي ولو تمادى في الشرب بعد ذلك لانقلبت اللذة ألما. فموضع اللذة موضع الالتقاء من الضدين، فتتمثل[100] النفس ذلك في القول، والاعتدال[101] في اجتماعهما، فتستطيبه.

فالطباق جمع متنافرين، والمتناسبة[102] جمع متلائمين. والتلاؤم[103] قد يكون بين الشيء[104] وشبهه كالشمس والقمر، وكالسيف والرمح، وكالضرب[105] والطعن. وقد يكون بين الشيء وما يستعمل (معه)[106]

95) بحث الطباق في حلية المحاضرة 142/1 والعمدة 5/2 وسر الفصاحة 233 والبديع لابن منقذ 193.

96) ن : ولما أخذ.

97) ن : أخرت.

98) زيادة من خـ.

99) خـ : فتتخلص.

100) ق، خـ : فتتشل.

101) ق : أو الاعتدال.

102) خـ : والمناسبة.

103) بحث التلاؤم في النكت 87، 166 وإعجاز القرآن للباقلاني 269 وبديع القرآن 145 والمنزع البديع 517.

104) خ : شيئين.

105) ق، خـ : والضرب.

106) ساقط من خـ.

كالقلم والدواة والقرطاس، وكالسهم والقوس. وقد يكون بين الشيء وما يشاكله في اعتبار التناسب كالقلب والملك، وكالنجوم[107] والأزهار وقد يؤتى بذكر الضدين على أن أحدهما الآخر، ويكون الغرض بذلك نفي المبدل لا إثباته، كقوله :

وِصَـالُكُمْ هَجْرٌ وحُبُّكُمْ قِلًى[108] . . . .

معناه : لا وصل لكم إلا الهجر، ولا حب [لكم][109] إلا القلى. وقد يكون على المبالغة، كأنه قال : إذا كان وصالكم[110] كالهجر، فكيف يكون هجركم ؟ يكون كالموت ! وحاصله على كل تقدير نفي الوصل ونفي[111] الحب، عبر عن ذلك بالإبدال. فإثبات الوصل نفي، كما قال :

عَلى لاَحبٍ لا يُهتَدَى بِمَنَارِهِ[112] . . . .

وهو من أنواع الخروج من شيء إلى شيء كما تقدم.

البيضاء : رضوان بنشقرون

107) ن : والنجوم.

108) الشطر صدر بيت للعباس بن الأحنف (ت 192 هـ / 808م). وتمام البيت :

.... وعطفكم صد وسلمكم حرب

وهو في ديوانه 19 وفي الأغاني 144/10 وزهر الآداب 169/4 والمثل السائر 443.

109) زيادة من خـ

110) ن : وصلكم.

111) ن : وبقي.

112) الشطر صدر بيت لامرئ القيس الكندي، من رائيته التي مطلعها :

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطنْ قو فعرعرا

وتمام البيت :

.... إذا سافه العود النباطي جرجرا

والقصيدة في ديوانه 66. والبيت في حلية الحاضرة 18/2 والعمدة 80/2 وقراضة الذهب 29.

البحث عن عوالم جديدة

لمن منحت جائزة نوبل، ولماذا ؟

بأقلام جماعة من الكتاب
ترجمة: أحمد عبد السلام البقالي

جائزة نوبل للسلام

فخور وخرين :

كانت تحية مجاملة بسيطة، ولكنها غيرت حياة الشاب. ذات يوم في مدينة صفيح يسكنها السود قرب (جوهانزبورغ) (بجنوب إفريقيا)، رأي المدرس بالمدرسة الابتدائية (دِيزْمُونْدْ مْبِيلُو تُوتُو) رجلاً أبيض يرفع قبعته احتراما لامرأة سوداء. لم يكن (توتو) قد رأى أبداً رجلاً أبيض يقوم بمثل تلك الالتفاتة. كانت تلك المرأة هي أم (توتو)، والرجل الأبيض هو القس (تريڤور هادِلْسُون) الذي يحمل اليوم لقب البيشوپ الانجليكاني. وإثر ذلك أصبح القَسُّ صديقاً للشاب الأسود. وبعد أن دخل (توتو) المستشفى للعلاج من داء السُّلّ، سنة 1953، ظل (هادلسون) يزوره يومياً، ولمدة عشرين شهراً. ترك ذلك انطباعاً قوياً على (توتو) مما جعله يتبع صديقه الأبيض

إلى الرهبنة. فصعد بسرعة في سلم الكنيسة الانجليكانية في (جنوب إفريقيا) إلى أن أصبح يتمتع بلقب (بيشوپ ليسوتو)[☆] سنة 1976. وخلال ذلك أصبح (توتو) صوتاً قيادياً في المعركة ضد التميز العنصري (الأپرتايد). وأهلته شجاعته العلنية، وطبيعة رسالته السلمية، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، لنيل جائزة (نوبل) للسلام لسنة 1984. وقد صرح (توتو)، في (جوهانز بورغ)، عقب سماعه للخبر: «يحس الواحد بالضآلة وبالاعتزاز والابتهاج، ويحسُّ كذلك بالحزن، ومن أعظم ما يحزنني أن هناك عددا كبيرا في هذا البلد من الذين لا يشاركون في الاحتفال بحدث هو شرف لهذا البلد».

ويمكن أن يقال عن (توتو) أنه «النبي الذي لا كرامة له في قومه». فقد صادرت حكومة (جنوب إفريقيا) جواز سفره سنة 1981، وهو الآن يحتاج إلى إذن خاص للقيام بأسفاره الكثيرة لإلقاء محاضراته خارج البلد. وقد قامت حكومة (جنوب إفريقيا) المنتخبة من طرف ثمانية عشر في المائة فقط من سكان البلد، والذين هم الأقلية البيضاء، بالبحث في أنشطة (هيأة كنائس جنوب إفريقيا) المتحررة، والتي تقدر عضويتها بثلاثة عشر مليون نسمة، والتي يترأسها (توتو) منذ 1978. وقد انتهى ذلك التفتيش بشجب علني اتُّهم فيه الواعظ النشيط، وهيأة الكنائس «بخوض حرب نفسانية ضروس» ضد الحكومة، وبالتعاطف مع جماعات التحرير الخارجة على القانون أو المحظورة، مثل (المؤتمر الوطني الإفريقي) الموجود في (زامبيا)...

☆) مملكة محاطة بأراضي (جنوب إفريقيا).

ويسير (توتو) في بلده الذي مزقته العنصرية فوق حبل مشدود محفوف بالأخطار. فبالرغم من أن عدداً من أعضاء المجتمع البيض يعتبرونه متطرفاً خطيراً، فإن المناضلين السود يعتبرونه معتدلاً جداً. ويقول (توتو) الذي يرفض ما تنعته به الحكومة، ويسمي نفسه «باللاّقَبَلي». ويواجه مصاعب جمة في مناشدته لمن يخاطبهم من الشباب الأسود بأن يعملوا على الوفاق بين الجنسين، وعلى التغيير السلمي. ورغم أن (توتو) لا ينادي بالعنف، فإنه ينذر باستمرار بقرب وقوع «حمام دم» إذا لم يقتسم البيض السلطة مع الأغلبية السوداء. ويقول (توتو) : إن بيض (جنوب إفريقيا) يفخرون بحمل أجدادهم للسلاح، ولكنهم يصبحون فجأة من دعاة السلام حينما يتعلق الأمر بتحرير السود. إن السود لا يعتقدون أنهم يدخلون العنف على الوضع، أنهم يعتقدون أن الوضع أصبح عنيفاً بالفعل !».

ورغم أن اثنين من أطفاله الأربعة يعيشون في (الولايات المتحدة) فإن (توتو) يشعر بمرارة تجاه ذلك البلد، وسياسة «رفع اليد» التي تنهجها حيال (جنوب إفريقيا). وينادي الزعيم الأسود باستعمال الضغط السياسي والدبلوماسي والاقتصادي على الخصوص لإرغام البيض على التفاوض لاقتسام السلطة مع السود. ولكن القس لم يناد علانية قط بالحصار الاقتصادي أو بإيقاف الاستثمارات، الشيء الذي نادت به (الهيأة الوطنية الإفريقية) في الأسبوع الفارط، كرد مناسب على فوز (توتو) بالجائزة. ورغم ذلك (فتوتو) يصرح : «إنني أجد ما رأيته من الرأسمالية، ونظام الاقتصاد الحر، من الوجهة الأخلاقية، يثير الغثيان».

ولد (توتو) في (الترانسفال) الغربي، واضطر إلى ترك أحلامه في إتمام دراسته بكلية الطب حينما عجز والده، الذي كان معلما، عن دفع مصاريف

دراسته، وبعد سنواته الدراسية، وتدريبه اللاهوتي، ودخوله الكهنوت سنة 1960، واجتيازه دراسته العليا (بأنجلتر)، أصبح مدرسا للاهوت في (ليسوتو) وهي دولة مستقلة محاطة بأراضي (جنوب إفريقيا). وعاد إلى (أنجلترا) ليدير قسم المنح (بهيأة الكنائس العالمية)، وأصبح أول عميد أنجليكاني أسود (بجنوب إفريقيا) سنة 1975. وقد رفض بشدة أن يقيم بمنزل العمادة بضاحية (جوهانسبورغ) الأنيقة، وذهب ليعيش مع الجماهير السوداء بمدينة (سويتو).

وقد طار القس الذي حصل على تفرغ ليدرّس (بمدرسة اللاهوت العامة) بمدينة (نيويورك)، إلى بلده صحبة زوجته (ليا)، في الأسبوع الماضي، ليحتفل بجائزة السلام مع أصدقائه. وقال إنه سيهب مبلغ الجائزة المقدر بـ 195.000 دولار، لصندوق المنح الخاص بالشباب الأفارقة السود.

وقد كان رد فعل الكثيرين من سكان (جنوب إفريقيا) البيض لنبإ حصول (توتو) على الجائزة، التذمر أو اللامبالاة. واشتكت الجريدة اليومية الأفريكانية (بيلد) من أن «انفجارات» (توتو) «تجعله غير مؤهل للحصول على الجائزة» وكل ما صدر عن مكتب رئيس الدولة (ب.و.بوتا) هو : «لاتعليق» ولكن في (أديس أبابا) صرحت (منظمة الوحدة الإفريقية) بأن الجائزة هي : «تذكير مستعجل لسلطات (بريطوريا) العنصرية بأن نظامها اللاّ إنساني قد أوشك على الزوال».

وقد اصبح (توتو) واحداً من هيأة متميزة من المدافعين عن حقوق الإنسان الذين قوبلوا من طرف حكوماتهم بالإهمال في السنوات الأخيرة، بعد فوزهم بجوائز (نوبل) للسلام، بما فيهم (أندري ساخاروف) من (الاتحاد

السوڤياتي)، و(أدولفو بيريس إسكيڤال) الأرجنتيني، قبل عودة الديموقراطية إلى بلاده، و(ليخ ڤاليسا) من (بولونيا). وخلافا (لساخاروف) و(ڤاليسا)، فإن من المتوقع أن يتسلم (توتو) جائزته بنفسه في (النرويج) يوم عاشر سبتمبر.

بقلم : بيترهوتورن (جوهانزبورغ)

عن : ريتشارد ن. أوستيليغ

في الفيزياء

سادة البوزون.

كان (كارلو روبيا) في سيارة أجرة (بميلانو) في طريقه إلى مطار (ليناتي)، في الأسبوع الماضي، قلقا من احتمال إضراب مراقبي الملاحة الجوية الإيطاليين. وفجأة توقفت موسيقى (البوب) التي كان يذيعها راديو سيارة الأجرة، لإذاعة نشرة أخبار فحواها أن (روبيا) و (سايمون ڤان دير مير)، زميله بمؤسسة (سيرن) (مركب البحث النووي الأوروبي الضخم)، قد منحا جائزة (نوبل) في الفيزياء بالمشاركة. وفي البداية لم يصدق سائق سيارة الأجرة ادعاء زبونه المتحمس أنه هو المعني بالخبر. ويقول (روبيا) :

«ولكن حين اقنعته حملني مجاناً».

كان من الملائم أن يعلم (روبيا)، البالغ من العمر 50 سنة، عن الجائزة وهو مسافر، فهو معروف بين أصدقائه بـ «عالم أليطاليا» ـ شركة الطيران

الإيطـاليـة ـ وهو يطير بـاستمرار من (سيرن)، الـواقعـة خـارج (جينيـڤ)، حيث يمـارس أبحـاثـه، إلى (جـامعـة هـارڤـارد) في مـدينـة (كامبريـدج بماساتشوسيتس بالولايات المتحدة)، حيث يدرس الفيزياء. فطاقته الجبـارة، وبحثه العنيد عن الأفكار أديا به إلى اكتشاف ثلاثة جسيمات جوهرية أصغر حجما من الذرة، بعد عشرين سنة من المطاردة اشترك فيها مئات العلماء.

والاكتشاف الذي توصل إليه (روبيا) يمثل قفزة عظيمـة إلى الأمـام في محاولـة العلم إثبـات مـا يـدعى «بنظريـة الحقل الموحـد UNIFIED FIELD THEORY التي ستربـط أربعـاً من قوى الطبيعـة في مجمع واحـد وأنيـق من المعـادلات. فـإثنتـان من هـذه القـوى معروفتـان، وهمـا : المغنـاطيس الكهربـائي، الـذي يشعل المصـابيـح، ويجعـل الـلابس تلتصـق بـالأجسـام، والجاذبية التي تبقي الناس على الأرض، وتحـدد مـدار الأرض حول الشمس. والأخريـان أكثر تعقيـدا، وهمـا : مـا يـدعى بـالقوة الشـديـدة التي تجعـل الجسيمات تتماسك داخل النواة، والقوة الضعيفـة التي تتحكم في الفسـاد الـذي يسببه الإشعاع.

ويعتقـد العلمـاء أن القـوى الأربـع هي مظهر لقـوة عظمى أسـاسيـة واحدة تفرقت في أشكال مختلفـة بعـد ميلاد الكون. وبعض علمـاء الفيزيـاء يعتقدون أن المغناطيس الكهربائي والقوة الضعيفة، مثلاً، قـد يمكن جمعها، ولكن نظريتهم المعقـدة تتطلب ثـلاثـة جسيمـات ثقيلـة للغـايـة لا تمـام تضـاريس القـوة الضعيفـة، وهي (بـوزون «و» (W) المـوجب) و(بـوزون (W) السـالب) و(بوزون «ز» Z).

وقد قرر (روبيا) مطاردتها.

وفي حلبة البروتون[1] SYNCHROTRON التي تبلغ مسافتها أربعة أميال، وتكلف بناؤها 400 مليون دولار بمؤسسة (سيرن)، ابتكر (روبيا) طريقة لإثارة اصطدمات هائلة بين جزيئات تحت النووية تنبأ بأنها ستنتج حاملات القوة الضعيفة.

وفي البداية لم يصدق أحد اقتراحه، وخاصة وأنه يتطلب تحويل الحلبة إلى متصادم ـ بفتح الدال ـ للجزيئات سيكلف 55 مليون دولار. ومع ذلك، فقد كان لـ (روبيا) مؤيد متحمس هو (سايمن ڤان دير مير) من كبار مهندسي (سيرن)، وهو الذي صمم اختراعا ضروريا لتدليل الأشعة الموجهة BEAMS المتصادمة في تجربة (روبيا). وفي سنة 1979 أذنت (سيرن) لـ (روبيا) و(ڤان دير مير) بالبدء في مشروعهما، وفي سنة 1983 عثرا على الجزيئات.

ومن المؤكد أن (روبيا) المحب للظهور والمولود في (غوريزيا ـ بإيطاليا) سوف يتمتع بنصفه من الجائزة المقدرة بـ 195.000 دولار. فهو يمتلك يختا وله شهية طيبة للطعام الإيطالي، وهو يتضايق من العقول التي هي دون عقله، كما أنه قلق فكريا : وتتراوح مشاريعه الحالية ما بين مطاردة الاحتكار المغناطيسي MAGNETIC MONOPOLE، وهو جزيء محير آخر، وبين البحث عن مضادّ المادة أو نقيضها ANTIMATTER[2].

---

1) SYNCHROTRON جهاز يعطي سرعة عالية للجزيئات المشحونة ـ مثل الإليكتون والنيوترون ـ عن طريق مزيج من حقل كهربائي سريع التواتر، كما هو الحال في «السايكلوترون» وحقل مغناطيسي بطيء التواتر، مثل «البتاترون».

2) ANTIMATTER : نقيض المادة : هو شكل من المادة تكون شحناته الكهربائية، أو أية خاصية أخرى للجزيئات المكونة لها، عكس تلك التي توجد عادة في المادة.

أما (ڤان دير مير) المولود (بهولاندة) والبالغ من العمر 58 سنة، والذي عمل مع شركة (فيليبس للإليكترونات) كعالم باحث، فهو عكس (روبيا) تماماً. فهو منطوٍ وهادئ : وفوزه بجائزة (نوبل) لم يثر حماسه بشكل ظاهر، رغم أنه صرح برغبته فيها. فهو يقول : «لنقل إنني لم أسقطها من حسابي، ولكني لم أجرؤ على أن آمل أن نحصل عليها».

بقلم : ناتالي أنجيي

عن - روبيرت كرون

في الكيمياء

نموذج (ت T)

في مصعد مبني (فليكسنر) بجامعة (روكفيلر) في (نيويورك) علقت لافتة مخططة باليد تعلن بفخر : «هنا ولدت نظرية المراحل الثابتة لتصنيع الپيپتيد» PEPTIDE SYNTHESIS SOLID – PHASE فمنذ خمس وعشرين سنة كان العالم البيوكيميائي (بروس ميريفيلد MERRIFIELD) صاعدا إلى الدور الرابع مع زميل له حين اقترح طريقة جديدة لتكوين البروتين، المكون الأساسي للحياة. وفي الأسبوع الماضي خرج (ميريفيلد) البالغ من العمر ثلاثا وستين سنة، من نفس المصعد ليجد في استقباله أحد عمال المختبر فاتحاً ذراعيه ليعانقه ويخبره بأنه فاز بجائزة (نوبل) للكيمياء عن تلك النظرية. وبذلك أصبح (ميريفيلد) الأميريكي الوحيد الحاصل على جائزة (نوبل) في سنة 1984.

ومثـل (هنري فـورد)، اشتهر (ميريفيلـد) بـأليـنـة إجراء معقـد، AUTOMATING، فالپروتينات التي تتكون داخل خلايـا حيـة تصنع من سلاسل طويلـة من الاحماض الأمينيـة الموصولـة كياويـا تجتمع في وحـدات تعرف بالپيپتـايـد PEPTIDE. ولفهم عـدد كبير من التطورات البيولوجيـة لابدأن يكون العلمـاءقـادرين علىتتبع ترتيب الحوامض الأمينيـة في پروتين مـا. لابـد أن يعرفوا كيف يقلـدوا الترتيب من أجل استعمال مكـونـاتـه في البحث. وقبل أن يطور (ميريفيلد) تقنيتـه، كان على علمـاء البيولوجيـا أن يقـومـوا بعمليـات عـديـدة دقيقـة ومرهقـة للتصفيـة كانت تكلفهم شهـورا، وأحياناً سنوات لصنع سلسلة (پيپتايد) PEPTIDE واحدة.

وقد حدد (ميريفيلد) طريقته البسيطـة في وعـاء مخبري واحـد. وضع حبـة ميكروسكوبيـة من البوليسترين داخل قنينـة مخبريـة لتعمل كأسـاس ثابت خامل. وبدأ يضيف وحدات من الحـامض الأميني التي بـدأت ترتبـط ببعضهـا حسب الترتيب المطلوب. وكان يغسل السلسلـة وهي تنمو في محلول مطهر بعد إضافة كل مادة كياوية تفادياً لقيـام الحـاجـة إلى نزع أي طرف لتصفيته من جديد، كما كان الأمر بالنسبة للطرق السابقـة. وحينـما كان يتم تكوين الپروتين، كان يستعمل الحامض لإخراجه من الحبـة. ورغم أن الآلـة التي اخترعها (ميريفيلد) في البداية كانت عبارة عن أسطوانة معدنية مرصعة بأوتـاد كانت لهـا لمسـة من (ريوب غولـد بيرغ RUBE GOLDBERZ) فقـد قـامت بنفس الـدور الـذي قـامت بـه سيـارة (فورد) الأولى من نـوع «ت» (MODEL T.)[□].

3) PEPTIDE پيپتايد : أي مجوعة من الأحماض لحامض مـا مع مجوع (الكاربوكسيل) لحـامض آخر.

□) أول سيارة صنعها (هنري فورد) بطريقة سلسلة الإنتاج.

وقد تطور نموذج (ميريفيلد) البدائي الأول إلى نماذج راقيـة مضبوطـة بـالكمبيوتر. وتصنع تقنيتـه الآن أنواعـاً معقـدة من البيبتـايـد PEPTIDES مثل (ريبونيوكليس)(O) وهو (أنزيم) جرثوم ضروري للخلايا تستعملـه لفـك شفرة المعلـومـات الـوراثيـة داخـل (DNA د.ن.ا). وقـد تستغلـه الشركات الصيدلية لتركيب أدوية جديدة بمـا في ذلـك اللقـاح وأدويـة مرض السكر والقلب.

و(ميريفيلد)، وهو رجل هادي من ولاية (تكساس)، تخرج من جامعة (لوس انجيليس) بكاليفورنيا، وهو الفائز التاسع عشر بجـائزة (نوبل) والمنتمي إلى إحدى مؤسسات (روكفيلر). وهو أب لستة أطفال، وكان قـائـدا لجمـاعـة من الكشاف مدة من الزمن. وحينما لا يكون في المختبر يقضي وقتـه منشغلاً ببعض الأعمـال حول منزلـه في (غريسكيل) بـ (نيـوجيزري). وهـو يقـول : «أستطيع أن أقضي بقية حياتي أكنس أوراق الشجر».

بقلم : كنيت و. بانتا

عن : ناتالي أنجي

في الطب :
الصواريخ الموجهة

كانت الرسالة المكتوبة في ثلاث صفحات مـدفونـة عميقـاً في عـدد 7 أغسطس 1975 من مجلة (الطبيعة). كانت تصف طريقة لإنتاج عدد هـائل

(O) RIBONUCLEASE.

وصاف جداً ودقيق جداً من المضادات الحيوية، التي هي بمثابة الصواريخ الموجهة في محاربة الأمراض بالنسبة لجهاز المناعة. ويقول كاتبا الرسالة : (سيزار ميلستاين) و(جورج كوهلر) من مختبر هيأة البحث الطبي (بكامبريدج) (بانجلترا) أن «تلك التقنية يمكن أن تكون مفيدة في الطب والصناعة». رغم أن (ميلستاين) أبدى قلقه من أن يكون ادعاؤهما يتسم «بقلة التواضع».

وبعد تسع سنوات اتضح أن تلك النبوءة كانت قاصرة عن التعبير عن عظمة الكشف. فالمضادات الحيوية ذات النسخ البيولوجية المفردة MONOCLONAL. قد أحدثت ثورة في البحث البيولوجي الطبي، وبدأت تصبح أسلحة مهمة في علاج وتشخيص الأمراض. لذلك لم يفاجأ الوسط العلمي في الأسبوع الماضي حين منحت جائزة نوبل لـ 1984 للعالم الأرجنتيني المولد (ميلستاين)، البالغ من العمر 57 سنة، والألماني الغربي (كوهلر)، 38 سنة، والموجود حالياً بـ (معهد المناعة) في مدينة (بازل) بـ (سويسرة). وقد اقتسما الجائزة مع (نيلزجيرن)، 72 سنة، مؤسس ومدير معهد (بازل)، وأحد رواد المفكرين في حقل المناعة.

ويتعلق كشف (ميلستاين) و(كوهلر) بحقن خلية ورم بخلية تلد مضاداً حيوياً معيناً. وبذلك استطاعا تطوير مولد HYBRID لا يكتفي بصنع المضادات الحيوية فقط، بل ويتكاثر بنفس سرعة الخلية السرطانية. وقد عملت الخلية المستنبتة كمصنع دقيق لصنع المضادات الحيوية المطلوبة. وبما أن كل خلية في المادة المستنبتة هي سليل طبق الأصل، أو نسخة (CLONE)، من المولد الأصلي، فإن المضاد الحيوي يكون صافيا، وبالتالي فهو جهاز دقيق. يقول (ميلستاين) : «إنه يسمح لك بالتميز بين جزيء

MOLECULE وآخر». وتتجه المضادات المفردة ـ النسخ إلى أهدافها التي تتراوح بين خلية خبيثة، وجرثوم ملاريا طفيلي، أو مبنى معين داخل الدماغ. وبالفعل ظهرت علامات نفعها في علاج (الأمراض المترتبة عن نقل الأعضاء، ومرض السرطان.

وتعد مساهمة (جيرن) في حقل المناعة أساسية جدا. و(جيرن) الذي ولد (بلندن) من عائلة دانماركية، لم يحصل على شهادته الطبية إلا في سن الأربعين، إلا أنه، وكما لاحظت لجنة (نوبل)، «ميز نفسه بأن أصبح أعظم منظّر في حقل المناعة». وتشرح نظرياته الكبرى كيف يتكون جهاز المناعة، وكيف ينضج، وكيف تتعدل الخلايا التي يتكون منها، ولم ينبهر (جيرن)، المتواضع بما أنجزه بقدر انبهاره بموضوع بحثي. فهو يقول : «إن جهاز المناعة يبدو الآن أكثر تعقيداً مما كان حين بدأت بحثي. وأنا أقل تفاؤلاً من أننا سنفهمه تماماً».

بقلم : مارغريت ستادر

(زيوريخ)

عن : كلوديا واليس

في الاقتصاد :
أرقام أنيقة

بالرغم من أن بعض أحجار الزاوية الحيوية التي تعتبر اليوم مقاييس أساسية لسلوك الاقتصاد، مثل الإنتاج الوطني الإجمالي (G.N.P)، ومقياس

أسعار الاستهلاك، فإن استعمالها بكشل واسع لم يتم إلا في العقود الأخيرة، فخلال الأربعينات خطا الاقتصاديون خطوات واسعة بقدرتهم على غربلة بلايين المبادلات التي تشكل السلوك الاقتصادي، ووضعها في قوالب إحصائية أساسية تبين حالة الاقتصاد. ولم يعن بتحويل هذا الخليط الهائل من الأرقام إلى نوع من النظام إلا (سير ريتشارد ستون)، البالغ من العمر 71 سنة، والذي حصل في الأسبوع الماضي على «الجائزة التذكارية لألفريد نوبل» لسنة 1984 في العلوم الاقتصادية.

ويعتبر (ستون)، الذي يعمل كأستاذ شرفي في جامعة (كامبريدج) الاقتصادي البريطاني الرابع الذي يحصل على هذه الجائزة منذ أن أنشئت سنة 1969، أول فائز غير أميريكي منذ سنة 1979.

توصل (ستون) إلى أفكاره خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك توصل إلى نظام المحاسبة الوطني الذي ما يزال صالحاً كإطار عمل لبلاد العالم. وقد ساعد (ستون)، و(جيمس ميد)، الحائز على جائزة (نوبل) لسنة 1977، أثناء عملهما كمساعدين لـ (جان مينارد كينز)، على إعداد دراسة لسنوات الحرب لتنظيم وترتيب جبال من المعلومات الاقتصادية في شكل خط بياني للاقتصاد الإنجليزي. وقد مكنت تلك المهمة الهرقلية قادة البلد من التقدير الدقيق لثرواتها.

وبعد الحرب، ترأس (ستون) مشروعاً (لهيأة الأمم) نتج عنه تطوير نموذج قياسي للحسابات لدول أخرى. وقد كانت الدول التي تتوفر لها طرق فعالة لتلخيص نشاطها الاقتصادي قليلة إذا لم تكن منعدمة. وتحت إشراف (ستون)، أعدت (هيأة الأمم) مجموعة هائلة من الخطوط العريضة والإرشادات التي تستعملها اليوم أكثر من مائة دولة. مما جعل المقارنات الدولية ممكنة.

ورغم أن بعض الاقتصاديين اعترضوا على هذا النظام الدقيق بدعوى أنـه غير صالح لبعض الدول المتخلفة، نظراً لعدم دقة سجلاتهـا أو لكونهـا غير موثوق بها، فإنهم ما يزالون يتبعونه.

و(ستون) طويل القامة، ويصفه أصدقاؤه بأنـه رجل مهـذب، خفيض الصوت، متـواضـع، وهـوايتـه جمع الكتب، ولـه منهـا أكثر من عشرة آلاف مجلـد، ولكن أعمـق اهتمامـاتـه هـو ترتيب الأرقـام. ويقـول عنـه (تيرانس باركر)، خليفته على رئاسـة (مشروع النمو بكامبريـدج) الـذي طور نموذجـاً للاقتصاد البريطاني : «إنه شديد الحمـاس للإحصـاء الاقتصـادي. وقـد كرّس كلّ حياته المهنية لقياس الـدخل والثروة، وهو شـديـد الحرص على أن يضع لها نظامـاً». ويضيف (جورج جـازي)، مـدير (مكتب التحليل الاقتصـادي بوزارة التجارة الأميركية) : «هناك إحساس هائل بـالنظـام SYSTEM في عمله، وأناقة عظيمة كذلك. فقد كان وما يزال عملاقاً».

ويميل (ستون)، كرجل اقتصـاد، إلى العمـل داخـل المكتبـة أكثر منـه تحت أضواء وضع السيـاسـة العـامـة. ويقول : «إن رجـال الاقتصـاد الـذين يتحدثون عن السيـاسـة الاقتصـاديـة هم شخصيـات بـارزة، وليسوا منطوين انعزاليين مثلي». وينتقد الفائز الجديد بجائزة (نوبل) مهنته بشكل ما، مبيناً أن عدداً كبيراً من رجال الاقتصاد اليوم يتوجهون إلى اختصـاصـات ضيقـة ولا يعرفـون مـا يكفي من التـاريـخ وعلم النفس. ويقـول : «يقترح الاقتصـاديون على الحكومـات وسـائل علاج دون أن يـأخـذوا في حسبـانهم قدرة الشعوب أو عدمها على التغير».

بقلم : ليسا مصداق (كمبريدج)

عن : جان غرينوولد

شبكة توزيع مياه فاس القديمة

عبد القادر زمامة

لعله من المناسب ونحن بصدد الحديث عن شبكة توزيع مياه مدينة فاس القديمة، أن نلتفت بإيجاز وتركيز إلى ما يحيط بقضية المياه في فاس من جوانب : تاريخية، وحضارية، وقانونية.

فالمياه في فاس، داخل الأسوار، وخارجها، بمنزلة دولاب تاريخي. حضاري، يتحرك باستمرار، منذ قرون، وهو العامل الفعال في معيشة السكان، وحياتهم، ونشاط المرافق والمؤسسات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، المتنوعة، المتكاملة.

وهو العامل الفعال أيضا، في هذه العطاءات الوافرة، التي جعلت هذه المدينة العتيقة، تنتمي بتربتها، وموقعها الجغرافي، إلى افريقية والمغرب، بينما ترتبط بعلومها، وفنونها، وحضارتها ومعالمها وأعلامها، بعدة مدن، وأقطار. وحضارات، في شرق الدنيا وغربها...!

وعند التعمق في دراسة تلك النعوت، التي نعتت بها هذه المدينة - عبر التاريخ - في أقلام المفكرين، والسياسيين، والمؤرخين، والجغرافيين. والرحالين، من مختلف القارات، نجد أن معظم تلك النعوت إنما جاء تعبيزا ناطقا، يصور جانبا من عطاءات حركة الدولاب التاريخي، الحضاري. الذي تحركه المياه الغزيرة...!

فظاهرة المياه الغزيرة، المتعددة المصادر...

- مياه النهر...
- مياه العيون...
- مياه الآبار...
- مياه المجاري الطاهرة «الحلوة».
- مياه المجاري العفنة «الحارة».

وظاهرة الاستفادة هذه المياه، واستغلالها، «حلوة» و«حارة» بكل أنواع الاستفادة والاستغلال، داخل أسوار المدينة، وخارجها، كل ذلك جعل معظم هؤلاء من حملة الأقلام، يفسرون، ويعللون، الظواهر الأخرى...

ولنأخذ مثالا واحدا؛ من أمثلة استغلال مجاري المياه «حلوة» و«حارة»، وهو مثال استغلال الشلالات، وحركاتها، لإقامة عدد من «الأرحية» التي تتحرك بطاقة تلك الشلالات المختلفة، وقد ساعد على وجود هذه الشلالات، ما نعلمه من وجود مرتفعات، ومنحدرات تعلو فيها المياه، وتنحدر، فتتكون المساقط، والشلالات، التي تبلغ في تعدادها ما يقارب المائة من الشلالات...!

أما الاستفادات، والاستغلالات، الأخرى المعروفة في المساجد. والحمامات، والمنازل، والسقايات، والحرف المتعددة، المحتاجة إلى المياه، فهي أمر واضح، يتجلى في الحياة اليومية، ويضفي على المدينة، وسكانها ومرافقها، طابعا من الطمأنينة، والنظافة، والنشاط، والحيوية...

وطبيعي أن ينشأ إلى جانب استغلال المياه، والاستفادة منها، فرديا. وجماعيا، داخل الأسوار، وخارجها، عدد من الأعراف، والعادات، والحقوق. والواجبات، والالتزامات، والمعاملات، والمنازعات... والكلمات الاصطلاحية المتعلقة بالمياه، وحركتها...

لهذا نجد في كتب النوازل، ومجاميع الفتاوي، عددا كبيرا، من القضايا التي تطرحها هذه القضية الحيوية، وتختلف فيها الأنظار، والأهداف. حسب الظروف، والأحوال، والمصالح العامة...

وهكذا تأبى مياه فاس إلا أن تجر دارس أوضاعها، إلى أن يتعمق في أشياء، من عصور التاريخ... وأطوار الحضارة... وأبواب القانون...!

ومن المؤسف حقا ألا يحظى الباحثون، والدارسون بمجموعات من الوثائق، والمستندات، القديمة، والحديثة، لمحاولة تتبع القضايا الحضارية في فاس، ومنها قضية المياه، لتكون أبحاثهم مدققة، واستنتاجاتهم معقولة. مدعمة، لا مجال فيها للتوهم، ولا للتخمين، ولا للحدس...!

ولعل الأيام - ونحن متفائلون - ستجود علينا بما يسد هذه الثغرات. ويعطينا من الوثائق، والمستندات، ما يفسر الماضي... ويفيد الحاضر... ويفتح آفاق المستقبل...

بعد هذا التصور الذي أعطى إطارا عاما، لهذه القضية، يجدر بنا أن نتناول موضوعا خاصا مدققا، معتمدا على وثيقتين إثنتين، عثرنا عليهما في هذا الموضوع...

ـ الوثيقة الأولى، كتبت، سنة 1127 هـ = 1715م على عهد السلطان. مولاي إسماعيل...

ـ الوثيقة الثانية، كتبت، سنة 1299 هـ = 1881م على عهد السلطان، مولاي الحسن الأول...

وكلتاهما تهتم بشبكة توزيع مياه فاس القديمة، وتتتبع أحوال هذه الشبكة، وما يعرض لها من عوامل طبيعية، وما تمتد إليها به الأيدي، من إصلاح، أو إفساد...

وكاتب الوثيقة الأولى، من أهل العلم، والخبرة، والممارسة، هو : محمد العربي بن عبد السلام ابن إبراهيم، الدكالي، الذي لا نملك له ـ مع الأسف ـ ترجمة وافية مفصلة، وإنما نملك إشارات حوله، نلتقطها من كتب التاريخ...

وحيث إن هذه الوثيقة ذات نفع عمومي ومفيد، للدارسين والباحثين. فقد نشرناها، بمجلة «البحث العلمي» الصادرة عن المعهد الجامعي للبحث العلمي بالعدد 31 الصادر سنة 1980م مع مقدمة، توضح أهميتها. وموضوعها، وكاتبها، ومترجمها إلى اللغة الفرنسية.

والوثيقة الثانية، تقرير عدلي، مكتوب بقلم موثقين، تلقوا شهادات. ومعلومات، ومشاهدات، من جماعة من الخبراء، وشيوخ النظر، والمستفيدين. من أهل العدوة، واللمطيين، والأندلس، عينوا للقيام ببحث ميداني، في مياه

فـاس، من منبع النهر، إلى مصبـه، والادلاء بشهـاداتهم لتكـون مستنـدا لحكم القضاء، وتنفيذ السلطة...!

ولما لهذا التقرير العدلي من أهمية، ولما حواه من معلومات مدققة، عن توزيع شبكة المياه، وما يحيـط بهـذا التوزيع من ملابسـات... نشرنـا نصـه الكامل، بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفـاس، بعـددهـا رقم 6 الصـادر سنة 1983م مع مقدمة تعين ظروف كتـابـة هـذا التقرير، ومـا يعكس من اهتمامـات، وتـوقعـات، وتخوفـات، تتعلـق بميـاه مـدينـة فـاس، وشبكـة توزيعها...

ومن المظنون أن نشر هاتين الوثيقتين، في مجلتين جـامعيتين، في هـذه الظروف بالذات، ممـا يشجع المهتمين بهـذه المبـاحث، والـدراسـات، على فتح ملف خاص، يجمع الوثائق التاريخية، والحضارية، والقانونية، المتعلقـة بميـاه مدينة فاس، ليكون ـ استقبالا ـ مرجعا عند الحاجة، وسندا عند البحث...

ونعطي الكلمة الآن، لصاحب الوثيقة الأولى ليقول :

«مـا زلت منـذ عقلت، وأنـا أود أن نعثر على من تكلم في شـأن هــذا الوادي المبارك، الداخل لمدينة فاس، أو قيد مقاديره ومجاريه، وتقاسيمـه، في قرطاس، فلم أظفر بما يعتمد عليه في ذلك، مع الاضطرار إليـه، والاحتيـاج. ويكون عدة نافعة في الاحتجاج، حاسمة لمادة النزاع واللجـاج، بعـد البحث التـام والاستقصـاء في طلبـه عنـد الخـاص والعـام، مـع مـا علم من اعتنــاء المؤرخين، وذوي الأخبار بما خصت به هذه المـدينـة الادريسيـة، بين المـدن والأقطار...!

هكذا يشكو كاتب هذه الوثيقة ـ كما نشكو نحن ـ من قلة المصادر، أو ندرتها، ومع ذلك فقد استطاع بشيء من الممارسة، والبحث الذاتي أن يسجل معلومات دقيقة، عن شبكة توزيع مياه فاس القديمة...

ولقد اختار منهاجا دقيقا لعمله، ويتلخص هذا المنهاج في معرفة مبدأ التقسيم الأولي للمياه بين :

- العدوة : المسماة قديما، بعدوة الأندلس.
- والقرويين : المنقسمة إلى شطرين : يعرف الأول منهما باسم : أندلس القرويين، بينما يعرف الثاني منهما باسم : اللمطيين...

ومبدأ هذه القسمة الأولى هو الأقواس الأربعة المعروفة إلى الآن، قبالة ضريح سيدي مجبر، ومن هذه الأقواس الأربعة تنحدر مياه النهر، إلى المدينة القديمة...

ويلاحظ كاتب الوثيقة، أن المياه التي تنحدر إلى العدوة، تمر في فضاء مكشوف، بين الحدائق، والجنات، من فاس الجديد، إلى ناحية باب الحديد... ومنها إلى ناحية باب الجديد... إلى أن تصل إلى وادي الزيتون... ومنه تدخل إلى أحياء العدوة...

بينما المياه المنحدة إلى القرويين بشطريها : الأندلس، واللمطيين، تمر في مسارب، تحت القناطر، والدور، والأسواق، وما إلى ذلك... مما يسبب بعض المخاطر في موسم الأمطار والسيول...

ويتابع منهاجه الدقيق، بمرافقة التقسيمات المتفرعة عن القسمة الأولى. الموجودة في كل من اللمطيين، والأندلس، ذاكرا مراكزها، بتفصيل لشبكة

الانتفاعات والاستفادات، في المساجد الكبرى، والحمامات و«الأرحية» والمنازل، وما إلى ذلك، إلى أن ينهي تتبعه لها، بوصولها إلى مجاري المياه «الحارة».

ولا يهمل الأجهزة المنصوبة قديما للتحكم في قسمة المياه... ويصفها شكلا، ومادة، و وظيفة ويذكر العناصر الإيجابية والسلبية التي تنتج من عملها...

ومن هذه الأجهزة : السد، والمنخر، والخنيزرة، والمعدة، والميزاب. والقنوط، والردعة، واللوح، والفرد، والجائزة، وما إلى ذلك مما كان معروفا عند الناس، وما يزال بعضه معروفا عند أهل الخبرة، والمعرفة، بمياه فاس...

وتطبيقا لهذا المنهاج، الذي اختاره الكاتب، نجده يركز كلامه على شبكة توزيع المياه، في كل من أندلس القرويين، واللمطيين، بينما يسكت عن شبكة التوزيع داخل أحياء العدوة...

والسبب واضح في ذلك، وهو أن الكاتب قدم لنا عند كلامه على التقسيم الأولي للمياه، عند أقواس سيدي مجبر، أن قسمة المياه المنحدرة إلى أحياء العدوة كانت تمر في فضاء مكشوف، بين الحدائق، والجنات، إلى أن تصل إلى وادي الزيتون...

فهذه القسمة، لا تتعرض تقسيماتها إلى التعقيد في التوزيع، بل إن عدد الانتفاعات، والاستفادات، منها محصور، محدود، في عدد من المجاري. والسدود المنصوبة للسقي هناك للجنات، والحدائق المعينة، بوسائل مشروعة، متفق عليها منذ القديم...

أما داخل أحياء العدوة فإن هناك شبكة للتوزيع، بعد دخول المياه من وادب الزيتون... وقبل وصوله إلى وادي مصمودة... وبعد وصوله... ولكن الكاتب سكت عن هذه الشبكة...!

وشبكة توزيع المياه داخل فاس القديمة كانت مخططة تخطيطا. يجعلها بمعزل عن مجاري الماء «الحار» تبتعد منها ما أمكن... لكن الخبراء قدروا أنه عند موسم الأمطار، والسيول، وتكاثر المياه، لابد من تخطيط مسارب احتياطية، تستقبل الفائض المائي، لتصبه في مجاري الماء «الحار» إتقاء مخاطر الفيضان...

وبذلك كانت مجاري الماء «الحار» ذات وظيفتين إثنتين :

- دفع الفضلات، المترتبة عن الاستعمال اليومي للمياه...
- وتلقي الفائض المائي عند الضرورة...

وكاتب هذه الوثيقة هو الوحيد - فيما نعلم - الذي حافظ لنا في وثيقته هذه على تسمية مراكز اجتماع المياه «الحارة» بأسماء خاصة، وفي كل مناسبة يذكر انتهاء مجاري المياه الحلوة إليها... وبعض هذه الأسماء ما يزال مستعملا إلى الآن...

فعن طريق تفصيل مجاري المياه، وشبكة توزيعها، من أعلى المدينة. إلى أسفلها أفادنا الكاتب فائدة أخرى وهي : مراكز مسارب المياه «الحارة» ذات الوظيفتين المذكورتين...

ومن المعلومات الدقيقة التي احتفظ لنا بها كاتب هذه الوثيقة، أن هناك في شبكة توزيع المياه داخل أحياء اللمطيين، ساقية تسمى : ساقية

جنات باب عجيسة...! كانت تأخذ حظها من الماء ـ داخل درب بوحاج ـ لتخرجه تحت سور المدينة لسقي جنات باب عجيسة...!

وهذا بطبيعة الحال يدل على فائض كبير للمياه، بعد الاستغلال والانتفاع، به داخل أسوار المدينة... يأخذ الطريق إلى سقي ما هو خارج هذه الأسوار، من حدائق وجنات باب عجيسة...!

ويمكننا أن نسمي ذلك، بعملية التوازن الحضري، بين الأحياء السكنية، وما يجاورها من مناطق خضراء، ذات نفع عمومي...

كما أننا نجد عند كاتب الوثيقة معلومات أخرى تتعلق بقادوسين إثنين. أحدهما خاص بمياه مسجد القرويين... والثاني خاص بمياه الضريح الإدريسي، وكلاهما يصل مباشرة من «الردعة» الموجودة إلى الآن بزقاق البغل، إلى المسجدين المذكورين...

بعد هذا نرجع إلى الوثيقة الثانية لنجد في مقدمتها ـ بعد الديباجة العدلية ـ التي كتبها الموثقون :

«...وتوجه معه شهوده ـ سامحهم الله ـ عن إذن من يجب، ـ سدده الله ـ وأرشده، مع جماعة وافرة، عينها الشرع الكريم، من أهل حومة أندلس القرويين... ومن أهل حومة اللمطيين... ومن أهل حومة عدوة الأندلس... وهم من أهل المعرفة، والخبرة، والبصر، وأهل الرأي، والنظر، من الفلاحين، والبنائين، والنجارين، والتجار، والرحويين، والقنويين، والنظار. والعارفين بأحوال الوادي المذكور، وما يعرض له من النقص، والزيادة في جميع الأمور، ومصاريف الوادي، وتقاسمه، علىالخاص، والجمهور...».

وبعد البحث الميداني لهؤلاء الخبراء، من رأس الماء، وعين السمن، وعين البيضاء، بزواغة، وفي كل مرحلة من مراحل بحثهم يسجلون المشاهدات. والملاحظات الموافقة، والمخالفة لما هو مشروع، ومعمول به من الحقوق. والانتفاعات، والاستغلالات، المتعلقة بمياه النهر، وروافده، من العيون المجاورة له...

وكان هؤلاء الخبراء على إطلاع واسع بما كان على نهر فاس داخل الأسوار وخارجها من المجاري والسدود، لهذا تتبعوا مجرى النهر، واستنكروا كل ما يضر بالمصلحة العامة، عن خبرة ومعرفة، وإطلاع.

وعندما وصلوا إلى القسمة الأولية، التي تعين ما لكل ناحية من حقوق في الماء، أكدوا تلك الحقوق، وعلى ضوئها تمموا بحثهم داخل أحياء المدينة. وراقبوا جنات : الدوح، والزيات والحامية، بل إنهم راقبوا بعض دور السكنى، وما فيها من المجاري، والمشارب، التي تتعلق بها حقوق المنتفعين والمستفيدين...!

وإذا كانت الوثيقة الأولى تهتم بشبكة توزيع مياه فاس القديمة اهتماما يعين الخطوط العريضة، ومراكز تجمع المياه، وتقسيمها من الأقواس الأربعة إلى المصب الأخير، في مجاري الماء «الحار» فإن الوثيقة الثانية تزيد على ذلك بالاهتمام بالتقسيمات الخاصة، وتراقب تطبيق هذه التقسيمات مراقبة شاملة ودقيقة.

لهذا راعينا أثناء دراسة الوثيقتين، وتصنيف المعلومات الواردة فيهما. هذه الملاحظة واعتبرنا الوثيقتين متكاملتين، تكمل إحداهما الأخرى، وذلك لمن يريد البحث لمعرفة شبكة توزيع مياه هذه المدينة... وما لهذا التوزيع

من دقة وفعالية وتأثير في حياة السكان ونشاطهم، وحيويتهم في مختلف العصور...

ولعله من الجدير بالتأكيد أن دراسة قضية مياه فاس مسألة حيوية.

- تفسر الماضي...
- وتفيد الحاضر...
- وتفتح آفاق المستقبل...

فاس　　　　　**عبد القادر زمامة**

أزمة التجارة في الأندلس
في أواخر عصر الامارة

ابراهيم القادري بوتشيش

دأب معظم الباحثين على دراسة الجوانب المشرقة من تاريخ الأندلس السياسي والحضاري، ومن ثم عملوا على إهمال جوانب الأزمات، على الرغم من أهمية هذه الأخيرة في إعطائه صورته المتكاملة، ذات الطابع الشمولي، وبالتالي وضعه في إطاره الصحيح.

وإذا كانت تلك النواحي الثرية في حضارة الأندلس وتاريخها أمر لا يرقى إليه الشك بشهادة كل الدارسين بما فيهم الغربيين، فإنها «قتلت» بحثا، في الوقت الذي لا زالت الأزمات التي عرفها تاريخ الأندلس في حاجة ماسة إلى دراسة واستقصاء. ولعل من هذا القبيل، تلك الأزمة التي شهدتها التجارة الأندلسية في أواخر عصر الإمارة (250 ـ 300 هـ).

ومن نافلة القول، أن اهتمام الدارسين ـ عرب ومستشرقين ـ بهذه الفترة، انصب كليا على معالجة الظواهر السياسية. ولم يقحم أحد نفسه ـ بما

في ذلك عمدة مؤرخي الأندلس العلامة ليڤي بروفنسال[1] - في الوقوف على الأوضاع الاقتصادية التي سادت في هذه الحقبة، بل إن باحثا عرف بطول باعه في الدراسات الأندلسية، أكد هذا الغياب معللاً إياه بقوله : «لا نجد مادة يهتم بها المؤرخون لرصد الحياة الاقتصادية في تلك الفترة، على كثرة ما ذكروا عن الفترة السابقة واللاحقة»[2].

وحقيقة المشكل تكمن بالفعل في صمت المصادر التاريخية عن ذكر الجوانب الاقتصادية؛ وهذا الصمت في حد ذاته يترجم إحجام الباحثين عن التصدي للموضوع، غير أن الوقوف على مادة جديدة وردت على شكل نصوص في كتب النوازل والتراجم وكتب الحسبة[3]، إضافة إلى بعض الإشارات المتناثرة في الحوليات والمخطوطات وكتب الجغرافيا، أمكن بها إنارة بعض الزوايا المظلمة من الإشكالية.

وسينصب الاهتمام في هذه الدراسة على جانب هام من النشاط الاقتصادي، وهو التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي.

1) تناول الأستاذ ليڤي بروڤنسال في كتابيه الهامين «تاريخ إسبانيا الإسلامية» الجزء الثالث و «إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر» (بالفرنسية) الحياة الاقتصادية في عصر الخلافة، بينما لم يعالجها في هذه الحقبة.

2) أحمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها. ص 149. الطبعة الثانية. الجزء الأول.

3) لم نتمكن من الوقوف على أي كتاب في الحسبة يوافق الفترة موضوع الدراسة، ولذلك التجأنا إلى حل منهجي : فانطلاقا من قناعتنا بوحدة التشريع في الغرب الإسلامي، تم الاعتماد على كتاب «أحكام السوق» ليحي ابن عمر الذي عاش في نفس الفترة تقريباً. وإذا كنا قد ارتكزنا على وحدة الظاهرة، فإن أسباباً ذرائعية جعلتنا نعتمد على يحي بن عمر كذلك لأنه أندلسي من موالي بني أمية، وعلى يده درس كثير من العلماء الأندلسيين، مما يجعل حسبته انعكاسا لأحكام الحسبة في الأندلس، فضلا عن وحدة المذهب.

ففيما يخص التجارة الداخلية، لاشك أن ضآلة الإنتاج الزراعي، واقتصاره على المواد المعاشية الاستهلاكية، وكذا انحطاط الإنتاج الصناعي[4]، وتدهور المدن، كل ذلك قلص من حجم المبادلات الداخلية. كما أن اندلاع الصراع بين الإمارات المستقلة، وما أسفر عنه هذا الصراع من خراب الطرق التجارية، وانعدام الأمن، وتفشي حركة قطع الطرق، زاد الوضعية تفاقماً.

نتيجة لذلك، اتسمت التجارة الداخلية بالاكتفاء الذاتي. ويكشف استعراض البضائع المعروضة في الأسواق غلبة الطابع المحلي على المبادلات الداخلية.

فمن خلال النوازل المعاصرة، يستشف أن أهم السلع المعروضة في الأسواق تمثلت أساسا في الجلود المخصصة للاستهلاك المحلي[5]. كما راجت مواد الاستهلاك الأخرى مثل العسل والزيت والسمن[6]، كذا القمح الذي شكل جوهر التجارة الداخلية، وبيع من طرف الدلال والجلاب، ثم الحنطة، وجرت العادة أن تكون الأسواق أمام أبواب المدينة أو أسوارها، أو أمام

---

4) عن تدهور الإنتاج الزراعي والصناعي، خصصت في رسالتي الجامعية «أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي» فصلين لذلك، ويستحسن الرجوع، إلى صفحاتها الممتدة مابين 107 ـ 122. توجد نسخة منها في الخزانة العامة بالرباط.

5) الونشريسي : المعيار المعرب ج 6 ص 184 طبعة بيروت 1981 وينقل عن ابن لبابة المعاصر لهذه الفترة.

6) يحيي بن عمر : أحكام السوق ص 114 ـ 115. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية. مجلد 4 سنة 1956.

ضريح أحد الصلحاء، وفيها يعرض بائعو الحشو والدوم والحطب وغيرهم سلعهم البسيطة على سبيل البيع والشراء.

غير أن أهم بضاعة عرفت الرواج تمثلت في تجارة العبيد. وقد وفرت الحروب الداخلية أعداداً هائلة منها. وإذا كانت كثرة النوازل حولها تعكس أهميتها، فإن ابن سهل[7] ترك نصا بالغ الأهمية لإبراز ظاهرة جديدة طرأت في هذه الحقبة، وهي تحويل الأحرار إلى عبيد وبيعهم في الأسواق، وهذا ما يفسر قوله : «كثر بيع الأحرار في فتنة ابن حفصون»، حتى أصبح من الصعب التمييز بين الأحرار والعبيد، وهو ما يوافق ما ذكرته نازلة حول امرأة سبيت فادعت أنها حرة[8]. وقد تصدت الفتاوي لهذه الإشكالية، غير أن الفقهاء عجزوا عن إيجاد حل لها، فاكتفوا بالقول بأن «البينة على من ادعى الحرية»[9].

وفي مناطق الثغور، عرفت تجارة العبيد ذروتها بسبب الحروب التي استعرت بين الكيانات الثغرية من جهة، والصراع القائم بينها وبين الممالك المسيحية المتاخمة لها من جهة أخرى. كما وفرت الصوائف التي قام بها الجيش النظامي موردا هاما لهذه التجارة، حيث بيع العبيد بكثرة في أسواق النخاسة.

---

7) نوازل الأحكام (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 370 ق) ص 56.

8) مخطوط مجهول المؤلف ضمن مجموع رقم D 2198 خ. ع بالرباط ورقة 170 وفيها يقول المؤلف : «امرأة ألقيت بيد رجل ادعت أنها حرة من موضع سمته، وأن متغلبا أغار على ذلك الجانب، فسباها تلك الناحية، وذكر الذي ألقيت بيده أنه ابتاعها من ذلك الجانب».

9) هو قول الفقيه ابن لبابة المعاصر لهذه الفترة. انظر نفس المصدر والصفحة.

أما أصناف السلع الأخرى : فقد عرفت تدهورا خطيراً؛ ينهض دليلا على ذلك ما شهدته أسواق قرطبة من كساد تجاري، وارتفاع في الأسعار[10]. وساهم ضعف السلطة المركزية وعدم مراقبتها للأسواق، ثم عدم الضرب على أيدي المحتكرين في تأزم هذه الوضعية. ولم تتمكن من إزاحة الضرر الفادح الذي أصابها حتى خلت الأسواق من الأقوات، بل أصبح الحصول على الخبز متعذرا[11]، وشجع ذلك المحتكرين الذين لم يستطع المحتسب وضع حد لهم[12].

وتوضح النوازل المعاصرة كذلك أن التجارة الداخلية أصبحت عرضة للاغتصاب، واختلاط الحلال بالحرام، ولذلك طالب الفقهاء بترك الأسواق[13]، مما أضعف جانب الطلب.

وفضلا عن ذلك تعرضت هذه الأخيرة لتطاول العسكر ونهبهم. وفي هذا الصدد أورد الونشريسي[14] نازلة حول «قوم معروفين بالغصب ليس لهم مال إلا من الغصب لبعض الجند الذين بالأندلس». واشتطت السلطة في فرض المغارم والمكوس على التجار[15]، وفرضت عليهم أداء ضريبة على

---

10) عبد الملك بن حبيب : التاريخ الكبير. المخطوط المصور بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية.

11) لين بول : العرب في اسبانيا ص 92 ـ 93 طبعة دار المعارف بمصر. الترجمة العربية : علي الجارم.

12) يحي بن عمر : أحكام السوق ص 134 ـ 135.

13) الونشريسي : م.س ج 6 ص 181 : وهاك نص النازلة : «وسئل ـ ابن لبابة ـ عن شراء الأفرية والجلود واللحم وغير ذلك من الأسواق، وأخبر بالفتنة التي كانت، وكثرة الحرام واختلاطه مع الحلال فأجاب من أراد الورع فلا يشتري من تلك الأسواق شيئا».

14) نفسه ص 172.

15) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ج 2 ص 54. طبعة البيضاء 1980.

الأبوابَ التي تدخل وتخرج منها البضائع، إضافة إلى زكاة السوق التي ابتدعتها لتموين بيت المال الفارغ[16].

ومن البديهي أن تتظافر هذه العوامل لترغم التجار على ترك الأندلس والهجرة إلى بلدان أخرى خاصة بلاد العدوة التي شيدوا فيها مدنا خاصة لمزاولة نشاطهم، بعيدين عن جور إمارة قرطبة. ذكر البكري[17]، أن بعض التجار الأندلسيين من أهل البيرة وتدمير عبروا البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل إفريقيا الشمالية، وأسسوا مدينة تنس سنة 262 هـ[18]، وعاشوا مع أهلها في وئام إلى أن حل بهم وباء، فاضطر قسم منها للرجوع إلى بجانة، وهي المدينة الوحيدة التي سلمت من الكساد التجاري. وبقي قسم آخر منهم يقدر بحوالي أربعمائة أسرة في المدينة التي شيدوها، فازدادت أرباحهم وثرواتهم. ويلاحظ أن من بين هؤلاء المهاجرين مسلمون وغير مسلمين[19]، مما يدل على أن تجار أهل الذمة تذمروا هم أيضا من إفلاس تجارتهم داخل الأندلس.

وعلى غرار المجموعة الأولى، هاجرت مجموعة ثانية إلى بلاد المغرب فرارا من الأوضاع المتردية، وهربا من المغارم التي أثقل بها كاهلهم، فشيدوا مدينة

---

16) Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane. Tom III. P 301. leiden 1950 .

17) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. ص 60 ـ 61. طبعة بغداد (دون ذكر التاريخ).

18) أخطأ القزويني حين جعل سنة 230 هـ سنة تأسيسها وهو لا يذكر المصدر الذي نقل منه هذا التاريخ انظر كتابه : آثار البلاد وأخبار العباد ص 177 طبعة بيروت 1960. وللمقارنة انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 177 طبعة بيروت 1980 من تحقيق. بروفنسال.

19) بدر : م.س. ص 155.

وهران[20] التي أصبحت «مرفأ في غاية السلامة وأكثر أهلها تجار»[21]، واستقروا فيها لمزاولة نشاطهم التجاري.

وبالمثل استقرت مجموعة أخرى من التجار الأندلسيين في مدينة القيروان[22]. وفي المدن الثلاث لم يجدوا ضالتهم المنشودة : ففي تنس تعرضوا لوباء خطير[23]. وفي وهران كان مصيرهم أسوأ حيث «خربت وهران وأضرمت نارا سنة 297 هـ، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم»[24]. أما في القيروان فقد تعرض بعضهم للاغتيال[25].

وثمة إشارات إلى هجرة بعض التجار الأندلسيين نحو الشرق، لكن يبدو أن أهم الهجرات تقاطرت على الإمارة الرستمية، فلا غرابة إذا كانت الجالية الأندلسية قد انتشرت في جميع أنحائها إبان ثورة ابن حفصون[26].

لقد لعبت هجرة التجار دوراً في انحطاط التجارة الداخلية، ولا أدل على هذا الانحطاط من انهيار قيمة العملة السائدة[27]، فهل سلمت التجارة الخارجية من هذا المصير المحتوم ؟

---

20) البكري : م.س ص 70 ـ ابن عذاري. م.س ص 136.

21) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 5 ص 385. طبعة بيروت [دون ذكر التاريخ].

22) ابن عذاري : م.س ص 169.

23) البكري : م.س ص 60.

24) نفسه ص 70.

25) ابن عذاري : م.س. ويذكر مانصه : «وفيها ـ يقصد سنة 300 هـ ـ قتل من التجار أبناء الأندلسيين بالقيروان أبو جعفر بن خيرون.

26) طلفاح : حضارة الأندلس : ص 200 طبعة بغداد 1977.

27) ظلت العملة فضية فقط. قارنها بالفترة اللاحقة حيث أصبحت ذهبية. وكان «الطبل» هو الوحدة الشائعة. انظر : ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان. ص 88. طبعة ليدن 1885.

لا تتم معرفة أحوال التجارة الخارجية بعزل عن الصراع بين «دار الإسلام» و«دار الحرب»، ومحاولة كل طرف إقصاء الآخر من زعامة البحر المتوسط، في وقت كانت الأندلس. إحدى الحلقات الرئيسية في هذا الصراع.

وإذا اعتبرنا ماذكره لويس[28] صحيحا من أن بزنطة لم تشكل أي عرقلة للإمارة الأموية خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري، فلا جدال في أن النصف الثاني منه (أواخر عصر الإمارة) عرف صراعاً حادا بين الجانبين، تمثل في النزاع حول بعض جزر البحر المتوسط.

لقد انتهت سيادة بزنطة على هذا البحر ابتداء من سنة 821م (206 هـ)[29] بسبب انشغالها في حروبها مع البلغار، وبفضل الانتصار الباهر الذي حققه الأغالبة سنة 212 هـ، وهو الانتصار الذي أصبح بموجبه البحر الأبيض المتوسط «بحيرة إسلامية» دون منازع[30].

غير أن هذه السيادة تضعضعت ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أي الفترة التي تمثل أواخر عصر الإمارة. وبالرغم مما ذكره بعض الدارسين[31] من أن السيطرة الإسلامية امتدت طوال القرنين الثالث والرابع، فإن هذا الزعم غير صحيح. فخلال النصف الثاني من القرن الثالث

---

28) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ص 177 طبعة القاهرة [دون ذكر التاريخ].

29) نفسه ص 168.

30) عبد الجليل الراشد : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجري. ص 148 ـ 149. طبعة الرياض 1969.

31) السيد سالم ومختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص 67. طبعة بيروت 1969.

الهجري فشل المسلمون في الاستيلاء على الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط، حيث لم يوفقوا في احتلال سردانية[32]، ولم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على كل أجزاء صقلية؛ بل استردت منهم بزنطة بعض الجزر كقبرص[33]. ولم يقدر لهم تحقيق هذه السيطرة حتى نهاية القرن الثالث على الأقل.

وابتداء من سنة 253 هـ (867م) انتهت السيادة الإسلامية تماماً، واستأثرت القوى المسيحية بالسيطرة على شرايين التجارة العالمية. وتجلى ذلك في قطع الطرق على المسلمين للوصول إلى مدن جنوب إيطاليا، وتوجوا جهودهم بتحقيق انتصارات متتالية على الكريتيين في بحر إيجه سنة 266 هـ. وبعد ذلك بسنة حققت القوات البزنطية نصرا مؤزرا[34]. وفي الفترة مابين 267 و 273 هـ. نظمت حملات موفقة ضد الأغالبة أرغموا إثرها على توقيع معاهدة سلم معهم[35].

ولم تكن البحرية الأندلسية إلا صدى لهذا التراجع. فبالرغم من دعمها من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238 هـ) إثر هجوم النورمان[36]، فقد عرفت ضعفا لا نظير له في أواخر عصر الإمارة. وثمة من

---

32) طرخان : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى. ص 109. طبعة القاهرة 1966.

33) لويس : م.س.ص 164.

34) لويس : م.س. ص 33.

35) محمود إسماعيل : الأغالبة : سياستهم الخارجية. ص 161 طبعة البيضاء 1978 (الثانية).

36) السيد سالم ومختار العبادي. م.س.ص 148.: ويذكر ابن حيان أن البحرية الأندلسية وصلت آنئذ إلى 300 مركب. انظر كتاب المقتبس. القطعة الخاصة بعبد الرحمن الأوسط ص 144. نشر محمود مكي طبعة القاهرة 1971.

الروايات ما يقيم الحجة على ذلك : ذكر ابن عذاري[37] أن عاصفة دمرت الأسطول الأندلسي أثناء توجهه إلى جليقية عبر المحيط بقيادة ابن مغيث سنة 266 هـ. وشكل هذا الحدث كارثة مروعة إلى درجة أن أحد الباحثين[38] ذكر أنها كانت بالنسبة للقوات المسيحية أكبر من كل الانتصارات التي حققتها، وهذا ما يفسر عدم قدرة الأسطول الأندلسي على مناجزة نظيره الأغلبي[39].

وزاد تعاقب الغزوات النورماندية من ضعفه[40]، وحسبنا دليلا على ذلك قيام بعض المتطوعة بمعارك بحرية بمعزل عن الأسطول الرسمي المغلوب على أمره. ففي سنة 256 هـ، قامت فرقة من المجاهدين بمهاجمة شواطئ بروفانس[41]. وتمكنت من السيطرة على جزيرة كامارراج Camarague، فحصلت على كثير من المغانم[42]. وبعد سنتين، تمكن هؤلاء من الوصول إلى قمة جبل يشرف على جزء كبير من شواطئ بروفانس[43]. كما تمكن مغامر آخر هو عصام الخولاني من اقتحام جزائر البليار وميورقة في نهاية هذا القرن[44].

---

37) البيان ج 2 ص 103 ـ 104.

38) Histoire de Arabes et de Maures d'Espagne Tom I p 146,. Paris 1851 : Viardot

39) محمود إسماعيل : م.س.ص 125.

40) Histoire d'Espagne Tom I P 314. Paris : Rosseewst.

41) طرخان : م.س.ص 203.

42) عنان : دولة الإسلام في الأندلس. ص 426 طبعة القاهرة 1960 (الثالثة).

43) طرخان : م.س.ص 203.

44) عنان : م.س.ص 341 ـ 342.

من ذلك يتضح ضعف الأسطول الرسمي الأندلسي، وهو أمر في غاية الخطورة، وتجلت هذه الخطورة في أن أبواب البحر الأبيض المتوسط قد أوصدت في وجه التجارة الأندلسية بسبب الحصار المسيحي، والقرصنة التي أصبح يعج بها، ولذلك تقلصت المبادلات التجارية، وتوقفت مع الشرق تماما[45]. وكرست طبيعة الإنتاج الزراعي والصناعي الموجه أساساً للاستعمال المحلي هذه الوضعية، مما أدى إلى اختلال الميزان التجاري.

ويفسر هذا الاختلال بفقدان الدولة تحكمها في التجارة الخارجية والموانئ البحرية المعدة للتصدير، ذلك أن الكيانات التي انفصلت عن الحكم المركزي والواقعة على السواحل، احتكرت المبادلات التجارية مصداق ذلك استئثار إمارة بني حجاج بالسلع الواردة من مختلف الأصقاع، مما سد في وجه الإمارة سبل العيش[46]، حتى أنها اضطرت إلى إقرار سياسة التعايش السلمي معها كي تستفيد من تجارة الكماليات على الأقل، وبالمثل، أصبحت إمارة بجانة المستقلة قبلة للتجار الوافدين من مختلف الأقطار، مما هيأ لها الفرصة لاحتكار التجارة الخارجية لنفسها[47]. وسيطرت إمارة ابن حفصون بدورها على تجارة الجزيرة الخضراء حيث كانت لديها مراكب تسفرها إلى شمال إفريقيا، سرعان ما عادت عليها بالأرباح الطائلة[48]. ونحن في غنى عن تأكيد استئثار مختلف الإمارات المستقلة الأخرى بالتجارة في الوقت الذي كانت السيطرة عليها حقاً من حقوق السلطة المركزية.

كما يفسر احتلال الميزان التجاري أيضاً بقلة الصادرات وكثرة الواردات، وهذا راجع إلى ولع الأرستقراطية ـ أمراء وقادة جيش ورجال

45) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ج 2 ص 56.

46) Rosseewst Loc. op – cit P 371.

إدارة ـ باستيراد مواد الترف حيث لم ينقطع طلبها عنها البتة. ويتأكد هذا الزعم برصد البضائع المستوردة :

ذكر ابن حيان[49] أن أحد التجار سعى إلى التوسط لدى صاحب طراز الخليفة في بغداد ليخيط له أثوابا عراقية رفيعة تطرز باسم الأمير محمد. ولماتم له ذلك عاد بتحفه إلى الأمير، «ونال بها منزلة».

ومن مظاهر إسراف الأمير المذكور في اقتناء السلع الفاخرة، واعتنائه بتجارة مواد الكماليات، صدور أمره إلى صاحب العمل بالتوسع في هداياه لهم «فدخلت في أيامه الأندلس من المتاع الفاخر، والرياش النادر، والحيوان المستغرب والمستطرف ما لم يدخل من قبله من الخلفاء»[50].

ومن مواد الترف التي استوردها الأمراء، الحيوانات غير المألوفة في الأندلس حيث استدعى الأمير محمد التجار لجلبها إليه. وتفصح المصادر إعجابه الشديد بها[51] كما أن استجلاب أنواع الغروس لاستغلالها في غراسة «المنيات» كمنية الرصافة شكلت إحدى مواد تجارة الكماليات[52]، ونفس

47) ابن حيان : المقتبس ص 88 من القطعة الخاصة بالأمير عبد الله. نشر ملشور أنطونيا. باريس 1937.

48) ابن حيان : المقتبس ص 78 من القطعة الخاصة بعبد الرحمن الناصر. نشر شالميطا ط. مدريد 1979.

49) المقتبس، القطعة الخاصة بالأمير محمد. ص 164.

50) نفسه ص 276.

51) نفسه ص 277.

52) ن.م.ص.

الشيء يقال عن الرقيق الأسود الذي جبل عليه الأمير، مما جعل التجار يتقاطرون عليه حاملين معهم أعدادا كبيرة من إفريقيا السوداء[53].

وعلى منواله سعى الأمير المنذر سعياً حثيثا للحصول على مواد الترف. وتحفل المصادر بذكر تعامله مع التجار، وخاصة مع التاجر محمد بن موسى الرازي[54] الذي عرف باشتغاله في مواد الترف خاصة الحلي والعقاقير[55].

واكتسب تجار الكماليات مكانة رفيعة، إذ حضوا برعاية الأمراء الذين أنزلوهم منزلة كبيرة[56]، وأغدقوا عليهم الهدايا والإنعامات[57]. وحسبنا أن الأمير محمد أدخل التاجر الرازي في خدمته[58] وندبه في مهمات سياسية حين بدأ الصراع بين العرب والمولدين[59]. كما درج الأمير المنذر على استشارته في كبريات أمور الدولة ووضع فيه كل ثقته[60].

ولما كانت قصور الأمراء وزعماء الإمارات المستقلة وكبار الموظفين في حاجة إلى عبيد لاستعمالهم كخدم، وجواري وغلمان لإشباع لذاتهم ومتعهم، لم يتقاعس التجار عن جلب الصقالبة والغلمان من بلاد الافرنج، ذكر ابن

---

53) محمود إسماعيل : مغربيات. ص 168. فاس 1977.
54) ابن حيان : م.س ص 269 ويذكر ما يلي : «وقد كان الرازي ترك من الأمير المنذر ألطف منزلة»
55) المقري : نفح الطيب. ج 3 ص 111 طبعة بيروت 1968.
56) ابن حيان : م.س.ص 164.
57) نفسه ص 276.
58) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص 196 طبعة مدريد 1945.
59) محمود إسماعيل : م.س.ص 159.
60) ابن حيان : م.س.ص 269.

الفقيه[61] المعاصر لهذه الحقبة «أن الذي يجئ من هذه الناحية الخدم والصقالبة والغلمان الرومية والإفريقية والجواري الأندلسيات (يقصد المالك النصرانية)، وجلود الخز والوبر والسمور».

وقد ارتبطت عملية استيراد الصقالبة باليهود، خاصة اليهود الرهدانية الذين قاموا بهذا النشاط التجاري ضمن رحلاتهم شرقا وغربا. وساعدهم في ذلك اتقانهم للغات كثيرة كالفارسية والرومية والافرنجية والصقلبية والأندلسية[62]. لكن يهود أربونة أسهموا بنصيب أوفر في هذا النوع من التجارة، إذ جلبوا الصقالبة إلى الأندلس عبر ممرات البيرينه أو عبر المحيط، ووصلوا حتى إفريقيا الشمالية[63].

كما أن تجارة الجواري الافرنجيات السودانيات والشرقيات على السواء، شكلت مادة هامة من تجارة الكماليات التي تهافت عليها الأمراء وقادة العسكر في «دويلاتهم».

وتذكر إحدى الروايات في هذا الصدد، أن التاجر محمد بن موسى الرازي أتى بجارية إلى الأمير محمد، ولكن حاجبه أفسدها عليه، ونبهه بأنها جاسوسة، ومع ذلك لم يخف الأمير إعجابه الشديد بها[64].

وعلى غرار الأمراء، اهتم زعماء الإمارات الانفصالية التي انتشرت خلال هذه الحقبة في طول بلاد الأندلس وعرضها بجلب الجواري من

---

61) مختصر كتاب البلدان ص 84.

62) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص 153 طبعة Ej-Beill.

63) لوميار : الإسلام في عظمته الأولى ص 200 طبعة بيروت 1977.

64) ابن حيان : م.س.ص 265.

الشرق، وبلغ شغفهم بهن إلى حد دفع أثمان خيالية لشرائهن. ومن هذا القبيل إبراهيم بن حجاج صاحب إمارة إشبيلية الذي دفع كمية هامة من الذهب في سبيل اقتناء جارية أعجب بها[65]. كذا الحال بالنسبة لإمير غرناطة سعيد بن جودي الذي عرف بولعه الكبير بالجواري[66].

تجارة الترف إذن، كانت الخيط الموجه للتجارة الخارجية، مما يفسر أزمتها. كما أن ارتباطها بالأرستقراطية، والسلع الفاخرة «الأجنبية» هو وجه آخر لهذه الأزمة. وهي أزمة تجد تفسيرها كذلك في غياب طبقة تجارية «وطنية» أندلسية، وفي انعدام الشروط الموضوعية. وحسبنا أن خراب الطرق، واشتداد حركة القرصنة، وما نجم عن ذلك من قلة في «رأس المال»، كل ذلك جعل التجار المشتغلين في تجارة الترف بعيدة المدى يصطدمون بعدة صعوبات، الأمر الذي يعكس صمت المصادر عن ذكر نشاطهم في العاصمة قرطبة إبان عهد الأمير عبد الله (275 ـ 300 هـ)، وما لحق بتجارة الكماليات نفسها من تدهور وتقلص وانكماش.

ومن الإنصاف القول أن المدينة التي استفادت من أصناف التجارات الأخرى فضلا عن تجارة الكماليات، هي مدينة بجانة لموقعها الاستراتيجي، وتسيير شؤونها من طرف حكومة اشتغل أفرادها بالتجارة، وعملت علاقات

---

65) من أشهر جواريه التي تذكرها المصادر بكثرة الجارية «قمر» التي اشتراها من الشرق. انظر : المقري : م.س.ج 3 ص 140 ـ 141.

66) ابن الأبار : الحلة السيراء ج 1 ص 157. طبعة القاهرة 1963.

التبعية وارتباطها بالحكم المركزي - رغم انفصالها السياسي - على جعلها الميناء الذي أمه تجار الشرق القاصدين بلاطات قادة الجيش وزعماء الإمارات المستقلة، ولذلك وصفت بأنها «باب الشرق ومفتاح الرزق»[67]، وحجت إليها سفن إفريقية وغيرها[68]، واكتظت أسواقها بضروب التجارات التي اشتهرت بها خاصة طراز الحريز كما تميزت بنهضة عمرانية، حتى أن أحد الباحثين[69] نعتها بأنها «دولة صغيرة».

ونظراً لهذه الظروف المواتية، فقد نشطت مبادلاتها التجارية مع تنس ونكور ومالقة[70]، وأقامت علاقات تجارية مع تجار وهران الذين كانوا قد هجروا الأندلس[71] ومع ثغور الشام ومصر.

إلا أن النهضة التجارية والعمرانية التي عرفتها مدينة بجانة يجب ألا تخفي عنا حقيقة هامة، وهي أن جميع المدن الأندلسية في هذه الفترة تعرضت للخراب إلى حد يمكن الحديث معه عن «انحطاط مديني»، وهو أمر له مغزى عميق، إذ جاء صورة ناطقة بأزمة التجارة، وانعكاساً أميناً للإفلاس الذي ظل ينخرها حتى بزوغ عصر الخلافة.

---

(67) ابن غالب : فرحة الأنفس ص 238 وانظر كذلك ياقوت : م.س.ج 5 ص 119.

(68) يفهم ذلك من خلال نازلة ذكرها الونشريسي.انظر المعيار. ج 8 ص 311.

(69) السيد سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص 28. طبعة بيروت 1969.

(70) السيد سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. ص 61.

(71) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 299. طبعة ليدن 1906.

خلاصة القول، أن التجارة في الأندلس خلال العقود الأخيرة من عصر الإمارة، اتسمت بصبغتها المحلية، وطابعها الاستهلاكي، وبانحطاطها على المستوى الداخلي، وبانغلاقها وتقوقعها، ثم اقتصارها على مواد الترف الأجنبية على المستوى الخارجي، مما يفسر أزمتها، وتلك معضلة التجارة في أغلب عصور التاريخ الإسلامي.

مكناس : **ابراهيم القادري بوتشيش**

المصادر والمراجع المستعملة

1 - ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي : (تـ 658 هـ) : كتاب الحلة السيراء ج 1 طبعة القاهرة 1963. تحقيق وتعليق حسين مؤنس.

2 - ابن حيان، أبو مروان خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان (ت 469 هـ) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس : القطعة الخاصة بأواخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد تحقيق محمود مكي. طبعة بيروت 1973.

___ : القطعة الخاصة بعهد الأمير عبد الله نشر ملشور أنطونيا. طبعة باريس 1937.

___ : القطعة الخاصة بعهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. نشر : ب. شالميطا - كورنيطي - صبح، طبعة مدريد 1979.

3 - ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300 هـ) : كتاب المسالك والممالك. طبعة E.J Beill. Lungdunibataroum 1889.

4 - ابن سهل، عيسى بن أصبغ عبد الله الأسدي (ت 486 هـ) : نوازل الأحكام. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ق 370.

5 - ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (ت بعد سنة 712) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج1 و2 تحقيق ج.س. كولان ول. بروفنسال. بيروت 1980.

6 - ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي (ت في القرن 6 الهجري) : فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس نشر وتحقيق الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الأول الجزء الثاني، طبعة القاهرة 1955.

7 - ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني (ت في أوائل القرن 4 الهجري) : مختصر كتاب البلدان. تحقيق Decoeje. طبعة ليدن 1885.

8 - بالنشيا، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس. طبعة مدريد 1945.

9 - بدر أحمد (دكتور) : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها. ج1 الطبعة الثانية دون ذكر تاريخ الطبع.

10 - البكري عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت 478 هـ) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة بغداد. دون ذكر تاريخ الطبع.

11 ـ سالم عبد العزيز آلسيد وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس طبعة بيروت 1969.
12 ـ ـــ : مدينة المرية الإسلامية، قاعدة الأسطول الأندلسي. بيروت 1969.
13 ـ عبد الملك بن حبيب السلمي (ت 238 هـ) : التاريخ الكبير. مخطوطة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد رقم 9. وهي نسخة مصورة عن النسخة الأصلية في بودليانا.
14 ـ عنان، عبد الله محمد (دكتور) : دولة الإسلام في الأندلس. القاهرة 1960 (الطبعة الثالثة).
15 ـ طرخان، علي إبراهيم (دكتور) : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى. القاهرة 1966.
16 ـ طلفاح خير الدين : حضارة العرب في الأندلس. طبعة بغداد 1977.
17 ـ القزويني، زكريا محمد بن محمود (ت 682 هـ) : آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت 1960.
18 ـ لومبار (موريس) : الإسلام في عظمته الأولى من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر ترجمة ياسين الحافظ. طبعة بيروت 1977.
19 ـ لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. القاهرة دون ذكر التاريخ.
20 ـ لين بول ستانلي : قصة العرب في إسبانيا. ترجمة علي الجارم. طبعة دار المعارف بمصر.
21 ـ مجهول : كتاب مجهول العنوان يوجد في الخزانة العامة بالرباط مخطوطاً ضمن مجموع D 2198.
22 ـ محمود إسماعيل (دكتور) : الأغالبة : سياستهم الخارجية، طبعة البيضاء 1978 (الثانية).
23 ـ ـــ : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي : ج 2. طبعة البيضاء 1980.
24 ـ ـــ : مغربيات، دراسات جديدة، فاس 1977.
25 ـ المقدسي شمس الدين البشاري (ت حوالي 380 هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم نشر DEGOEJE. طبعة ليدن 1906.
26 ـ المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1040 هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 3. تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968.
27 ـ الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914 هـ) : المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. ج 6. نشر وزارة الأوقاف بالمغرب. طبعة بيروت 1981.
28 ـ ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (626 هـ) : معجم البلدان. ج 5. نشر دار الكتاب العربي. بيروت. دون ذكر تاريخ الطبع.

29 - يحي بن عمر (ت سنة 287 هـ) : كتاب أحكام السوق. نشره محمود مكي في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. المجلد الرابع سنة 1956.

30 - Provençal (L.E) : Histoire de l'Espagne Musulmane. Tom III Paris (maisonneuve). Leiden j Brill 1350.

31 - – L'Espagne Musulmane au X° siecle : Institution et Vie sociale. Paris (larose) 1932.

32 - Rosseewst (Hilaire M) : Histoire d'Espagne depuis les premiers temps jusqu'à la mort de Fernand VII. 2 Tomes. Paris (sans date d'edition).

33 - Viardot : Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Tom I Paris 1851.

إ. ق. ب.

مراكش ومنــــارة الكتبـــــيّة (☆)

حسن السوسي

طـــاوعتـــه لمــــا عصـــاني وأجبتــــه لمــــا دعـــــاني
شـــوق يعربــــــد في دمي ويهـــز ـ في عنف ـ كيــــاني
فــــأزرتـــــه أرضـــا بهــــا قـــــد كــــان يحلم منـــذ آن
فعسى يتــــوب ويرعــــوى ويريحني ممــــا أعــــــاني

☆ ☆ ☆

بنت ابن تـــــاشفين يــــا أغلى الحرائر... والقيـــــان[1]
يــــا دار من الهـــوى ويــــا أحلى المرابـــع والمغـــــاني
قــــــد كنت من حلم الرؤى فغـــدوت من حلم العيــــان

☆) منارة الكتبية أحد معالم مدينـة مراكش العريقـة، وهي ثـانيـة المنـائر ـ التي بنيت على طراز خـاص ـ بـالمغرب، بنـاهـا يعقوب المنصور على غرار منـارة شبيليـة وشقيقتهـا هي منارة جامع حسان بالرباط التي لم يتم بناؤها، فبقيت على حالها.

1) يوسف بن تاشفين هو أحد مؤسسي دولة المرابطين، وهو باني مدينة مراكش.

للـــــه مـــــا أحــــلاك في   هـــــذا الرداء الأرجــــواني
وأجــــل قـــــدرك.. أنت في   حــدق العيــون.. وفي الجنـــان

☆ ☆ ☆

وقفت منـــارتـــك العتيـــدة هـــاهنـــا.. كـــالـــديـــدبـــان
زحمت ذؤابتهـــا السحـــاب   فمـــال عنهـــا الفرقـــدان
إني وقفت بهــــــا ضحى   وقـــد اعتراني مـــا اعتراني
فتـــزاحمت في خــــاطري   أشيـــاء واختلجت معـــان
البعض أشجـــاني وبعض حـــديثهـــا طربـــا شجـــاني
فـــإذا ســؤال حـــائر   مـــا كـــاد يلفظـــه لســاني
كم مر من زمن عليـــــــك   وأنت في هـــذا المكـــان ؟
تتـــــــأملين الحسن أم   تحصين أمجـــاد الـــزمـــان
تستقبليـــن الشمـــس أوّ   لَ نـــاظر... خلف القنـــان
تبـــدو بـــوجـــه مليحـــة   صفراء مثـــل الـــزعفران
وتغيب عنـــك مـــع الأصـــا   ئـــل... وردة مثـــل الـــدهـــان
فتـــودعين رحيلهـــــا   وعلى جفـــونـــك دعمتـــان
لا تجـــزعي... فغـــدا تعـــو   د إليـــك كـــالخـــود الهجـــان

☆ ☆ ☆

قـــدامـــك المـــاضي ومـــا   يروي الرواة على لســـــان...
ووراءك الآتي المطـــــــل   بكـــل هـــذا العنفـــوان
وعلى يمينـــك نـــام فـــار   ســـك المجلي في الرهـــان
كـــالرمـــح أخلـــد بعـــد أن   أبلى وكـــالنضـــو اليمـــاني

تتطلعين بمقلتيـــــــك إليـــــــــــه من آن لآن
فكـــــأنمـــــا تخشين أن يسطــو عليـــه الحـــادثـــان

☆ ☆ ☆

كم مر من زمن عليـــــك وأنت في هــــــذا المكـــــان
في شطحـــــة الصـــوفي أغرق في المشــــاهـــد والمعــــاني
أو سبحـــــة الفنـــــان حين يلـــج مخلـــوع العنـــــان
أو كـــــالمحب استغرقتـــــه رؤاه فهـــــــو لهن ران
شـــاخ الـــزمـــــان وأنت حسنـــك يـــا صبيـــة غير فـــان
خطرت حـــواليـــك النخيـــل بمثـــل قـــامـــات الحســـان
فكــــأنهـــــا وكـــــأنهن ـ على المـــــدى ـ في مهرجـــان
حملت بـــــواكير الطلـــــو ع، وهن أزهـــــار الأمـــــاني
وأمـــامـــك انبســـط «الفنـــا ء» كـــأنـــه مجرى رهـــان
تجرى الحيـــــاة بـــــه على قـــدم، وتهفـــو رايتـــان
ويمـــوج بـــــالآتين والر واد... من قـــــاص ودان
فكـــــأنمـــــا هـــو مـــوسم متجـــــــدد في كــــل آن

☆ ☆ ☆

ترنـــو إليـــك الأمهـــــا ت، وهن من وحم عـــــوان
فيلـــدن أمثـــال الرمـــا ح شرعن في يـــوم الطعـــان
ويجئن بـــالسمر المـــديـ ـــدات القـــدود من الغـــواني

☆ ☆ ☆

كم مر من زمن عليـــــك وأنت في هـــــذا المكـــــان
تسترجعين صـــــدى السنين من المنـــــائـــح... والأغـــــاني

وتلملمين الذكريا   ت وأنت ذاكرة الزمان

أو تذكرين صباك حين تمر أسراب الحسان

تغضين إن هن ابتسمن عن اللآليء والجمان

يختلن في حلل الشبا   ب كأنهن غصون بان

ما هن بالبدن القصا   ر الحجدريات البطان...

العاجزات عن اقتنا   ص اللب بالمقل الرواني

المقصرات عن احترا   ز السبق في حلب الرهان

أو أن في أرواحهن كثافة مثل الدخان

بل إنهن القادرا   ت على الفتون والافتتان

يصبين باللفتات والنظرات والقضب اللدان

وطباعهن أرق من   نفس الربيع على الجنان

المخمليات الملا   مس... كالحرير الخسروان

الراميات وما قصد   ن ـ بفاتك مثل السنان

☆ ☆ ☆

سحر العيون السود في   ذاك القوام الخيزراني

هو ما يشد مشاعري   ويهز ـ في عنف ـ كياني

وأنا امرؤ تطويه أحيانا ـ وتنشر... نظرتان

☆ ☆ ☆

بنت ابن تاشفين يا   أغلى الحرائر والقيان

إني وجدت هنا، وكنت فقدته، دفء الحنان

بالله لا تزهى على   تكبرا... وارعى مكاني

لــو لا المحبـــة مــا سعت   قـــدمي، ولا شــوق حـــداني
فترفقي يـــا حلـــوة العينيـــن يـــا أغلى الأمـــاني

☆ ☆ ☆

للـــه مـــا أبهـــاك في   هـــذا الرداء الأرجـــواني
ويـــد الأصيـــل تمروا   نيـــة على شرف المبـــاني
هي راحـــة الراقي يعـــو   ذهن من إنس وجـــان
أو كف والـــدة حنت   عطفـا... ومن كـالأم حـان...
مرت.... تهـدهـد طفلهـا   مسحـا بـأطراف البنـان
لينـام بـاسم اللـه ـ من   حضن الأمـومـة ـ في أمـان

بنغازي   حسن السوسي

وفود البيعة
بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم

د. فاروق حمادة

توطئة :

☆ لقد اجتمع العرب على أمر لم يجتمعوا على غيره من قبل، ولم يجتمعوا على سواه من بعد.

أجل : إنه الرابط الذي ضم شملهم، ووحد صفوفهم، ووطد عزهم، وأعلى شريف مكانتهم، وبعث فيهم روح الحضارة الإنسانية الواسعة التي تتخطى جزيرتهم وتجعل بلادهم قبلة الأحياء أمناً، وعلماً، ومنطلقاً للحياة الرغيدة المطمئنة...

إنه الإسلام، الذي أكرمهم الله تعالى به وخصهم بهبته ومنحته، وبه كان منهم ما كان.

لقد أطبق العرب على الإسلام والدخول في حماه، في حياة رسول الله ﷺ، وجاءوا إلى عاصمته (المدينة المنورة) يهرعون من كل حدب وصوب،

مبايعين على الرضى به - والحمل لأمانته وشرفه، ولئن كان النبي ﷺ قد لاقى العنت والمشقة في الدعوة، فما كان ذلك إلا من قريش ومَنْ والاها فلما سقط معقلهم وخضدت شوكتهم، وجميع قبائل العرب تنظر إلى أمرهم ماذا سيصير، أيقنت هذه القبائل أن هذا النبي حق وما جاء به هو الصدق فأقبلوا إليه، ولم يشذَّ عن بيعة رسول الله ﷺ أي قبيلة ولم تتأخر أية جماعة في بلاد العرب، فقد أقبلت إليه الوفود من جنوب الجزيرة، ومن شرقها وغربها، سمالها وبلغ عددها أكثر من سبعين وفداً سنعرض لها جميعها بحول الله تعالى.

قال ابن إسحق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تربّص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش، لأن قريشا كانوا إمام الناس، وهاديهم، وأهل البيت الحرام وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش ودوخها الإسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله عز وجل أفواجا يضربون من كل وجه كما قال الله تعالى : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾[1].

☆ وقد استقبل رسول الله ﷺ وفود العرب وسادتهم بواسع الترحاب، وكبير الحنو والمحبة ويظهر ذلك من سروره بهم وترحيبه وهو

1) انظر ابن هشام في السيرة 4 / 222.

يقول لهم : (مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى) ومن حرصه على تزويدهم بما يسرهم ويرضيهم من أمور الدين والدنيا، فكان اليوم الذي يحل فيه وفد أرجاء المدينة كأنه عيد عند رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، فيتجمل رسول الله ﷺ بأجمل الثياب - ويكون ذلك في غمرة فرح وسرور بنصر الله. وينزلهم ضيوفا مكرمين في دار خاصة هي دار رملة بنت الحارث، أو يضرب لهم قبة في المسجد الشريف، ويتعاهدهم بنفسه صلوات الله وسلامه عليه للتعليم بكرة وعشيا، ويسائلهم عن أهليهم وبلادهم وأحوالهم. حتى إنهم كانوا يخوضون في أحاديث شتى من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن السيدة عائشة وقد سألها عروة بن الزبير بقوله : يا أمتاه لا أعجب من فهمك أقول : زوجة رسول الله ﷺ، وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ؟!

قال : فضربت على منكبي وقالت : أي عرية، إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له، فمن ثم[2].

وبعد أن ينالوا حظهم من العلم بهذا الدين يؤمر عليهم من يرضونه ويعترفون بفضله ويظهر للرسول ﷺ أهليته لذلك.

ثم يكرمهم بهدايا مادية كان قد خصص لها ريعا من سهام خيبر كما جاء ذلك في الحديث عن بشير بن يسار عن رجال من أصحاب النبي ﷺ أدركهم يذكرون أن رسول الله ﷺ حين ظهر على خيبر وصارت لرسول

---

2) انظر مسند أحمد 67/6. والأنعات : الوصفات والمقصود بها هنا الطبية.

الله ﷺ.... فقسمها رسول الله ﷺ على ستة وثلاثين سهما جمع كل سهم مائة سهم فجعل نصف ذلك كله للمسلمين، .وكان في ذلك النصف سهام المسلمين وسهم رسول الله ﷺ معها. وجعل النصف الآخر لمن ينزل به من الوفود، ونوائب الناس[3].

وبعد أن اجتمعت الأمة العربية على الإسلام التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى قرير العين مطمئن النفس أن جهاده قد آتى ثماره وأن الدين قد توطدت أركانه في ربوع العرب فلا خشية على أفوله أو زواله من هذه الربوع وأن هذه الأمة التي اختصها الله بحمل هذه الأمانة ستحملها في الخافقين، وكذلك كان وإننا سنعالج تباعا قدوم وفود العرب إلى رسول الله ﷺ من وثيق المصادر وصحيح الأخبار مبرزين ما فيها من مواضع العظة والاعتبار مذكرين بأن هذا الموضوع الهام لم ينل ما يستحقه من البحث والدرس فيما نعلم، وهو من أجلّ الموضوعات في السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، لا سيما وإننا نلاحظ أن الكتب النبوية إلى الملوك والأمراء في عصره أو ما يسمى بمجموعة الوثائق السياسية قد لقيت عناية والحمد لله ودراسة بل دراسات، وهذا الموضوع جانب أصيل ومهم في السياسة النبوية، وبناء دولة الإسلام الأولى، وتوحيد صفوف المؤمنين في جوانب أخرى كثيرة.... سائلين المولى تعالى أن يكتب لهذه الحلقات الكمال والتمام، وأن تكون نافعة مقبولة عند الخاص والعام.

---

3) انظر مسند أحمد 37/4، وسنن أبي داوود الحديث رقم 3012.

1) وفد مُزَيْنة :

وهم أول من وفد على رسول الله ﷺ في أربعمائة راكب وذلك في شهر رجب سنة خمس للهجرة، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم وقال لهم : (أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم) فرجعوا إلى بلادهم[4] وكانت منازل مزينة على الساحل بين المدينة المنورة وتبوك وهذا يعني أنها كانت قريبة من مركز الدعوة الإسلامية، فعرفتها من كثب فلا غرو إذا أسرعوا إلى تلبية النداء والانضواء تحت اللواء.

وروى الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي[5] عن النعمان بن مقرن قال : قدمنا على رسول الله ف أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال : يا عمر زود القوم فقال : ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا، قال : انطلق فزودهم، قال : فانطلق بهم عمر رضي الله عنه فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى عُلّيّة فلما دخلنا إذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم، قال النعمان فكنت آخر من خرج فنظرت فما أفقد موضع تمرة من مكانها وقد احتمل منه أربعمائة رجل.

---

4) أخرج ذلك ابن سعد من طريق الواقدي من طريق كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده، والواقدي وإن كان إماما في هذا الميدان فكثير بن عبد الله ضعيف وانظر وفاء الوفا لابن الجوزي 749/2.

5) انظره في مسند أحمد 444/5 وزاد المعاد لابن القيم 36/3، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة 565/3 عن إسناد أحمد رجاله ثقات لكنه منقطع لأن النعمان قتل في خلافة عمر، وسالم بن أبي الجعد لم يدركه، وانظر الاستيعاب 546/3.
قلت : وأخرجه متصلا ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن) رقم 2151 من حديث دكين بن سعيد المزني وكان أحد أعضاء الوفد.

ومن المزنيين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ خزاعى بن عبد نهم، وبلال بن الحارث المزني، وأبو أسماء، وأسامة، وعبيد الله بن بردة، وعبد الله بن درة وبشر بن المحتفر، ودكين بن سعيد وعمرو بن عوف.

وقد أقطع النبي ﷺ بلال بن الحارث هذا معادن القَبَلِيّة وكتب له بذلك كتابا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث المزني أعطاه معاده القبلية، جَلْسيّها وغَوْريها وجرسها وذات النصب وحيث يصلح الزرع من قُدْس، ولم يعطه حق مسلم) وكتب أبي بن كعب[6].

وقد بايعه خزاعي بن عبد نهم وكان أول من بايعه من الوفد، وكان خزاعي هذا سادناً لصنمهم المسمى (نهم)، فكسر الصنم ولحق بالنبي ﷺ[7] وهو يقول :

ذهبت إلى نُهْمٍ لأذبح عنده	عتيرة نسك كالذي كنت أفعل
وقلت لنفسي حين راجعت حزمها	أهذا إله أبكم ليس يعقل ؟!
أبيت فديني اليوم دين محمد	إلهي إله السماء الماجد المتفضل[8]

6) انظر هذا النص في سنن أبي داوود حديث رقم 3062 ـ 3063 والجلسي هو ما ارتفع من الأرض، وغوريها، الأرض المنخفضة، وقدس جبل عظيم بنجد وقيل هو المرتفع الذي يصلح للزرع.
وحديث إقطاع بلال بن الحارث أخرجه مالك في الموطأ كذلك عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن غير واحد من العلماء.
وأخرجه البيهقي موصولا والحاكم وغيرهما انظر المجموع للنووي 75/6، والأموال لأبي عبيد ص 423.

7) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص 202.

8) أخرجه ابن شاهين، انظر الاصابة 424/1.

فلما بايع ورجع إلى قومه لم يجدهم كما ظن فأقام فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت فقال أذكر خزاعيا ولا تهجه، فقال حسان بن ثابت :

ألا أبلـغ خـزاعيّـاً رسـولا	بـأن الـذم يغسلـه الـوفـاء
وأنـك خير عثمان بن عمرو	وأسنـاهـا إذا ذكر السنـاء
وبـايعت الرسـول وكان خيرا	إلى خير وأداك الثراء
فما يعجـزك أو مـالا تطقـه	من الأشيـاء لا تعجـز عـداء

وعداء بطنه الذي هو منه، قال : فقام خزاعي فقال : يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فانشدكم الله قالوا : فانا لا ننبو عليك، قال فاسلموا ووفدوا على النبي ﷺ. وكان من الذين حملوا رايات مزينة يوم الفتح الأعظم فتح مكة، وكانوا آنئذ ألف رجل، وأخوه عبد الله بن عبد نهم ذو البجادين أحد الأواهين كان مع النبي ﷺ في غزوة تبوك قال ابن مسعود : قمت في جوف الليل في غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات فإذا هم قد حضروا له ورسول الله في حضرته، فلما دفناه قال : اللهم إني أمسيت عنه راضيا فأرض عنه.

وأما النعمان بن مقرن فهو أحد القادة الشجعان الذين أبلوا البلاء الحسن في فتوح العراق وفارس وقدم بشيرا على عمر رضي الله عنه بفتح القادسية، وهو فاتح أصبهان استشهد بنهاوند هو وأخوه سويد رضي الله عنهما وأرضاهما سنة إحدى وعشرين هجرية في يوم جمعة.

قال ابن عبد البر : وكان صاحب لواء مزينة يوم الفتح، وعند ابن سعد أنه كان مع خزاعي ولما جاء نعيه عمر بن الخطاب خرج فنعاه إلى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه وبكى[9].

وأبناء مقرن سبعة كلهم له صحبة وهجرة وفضل.

وكان في هذا الوفد قرة ابن إياس جد إياس بن معاوية الحكيم المشهور، يقول قرة : أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة فبايعناه وإنه لمطلق الإزار فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم، فما رأيت معاوية ولا ابنه قط في شتاء ولا حر إلا مطلقي الإزار لا يزران أبداً[10].

وقد خص النبي ﷺ المزنيين بفضل عظيم جعلهم مع الأنصار واشجع وجهينة وغفار وبني عبد الدار موالي ليس لهم مولى دون الله، والله ورسوله مولاهم.

وفي رواية أخرى : (قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم، وأشجع وغفار موالي، ليس لهم مولى دون الله ورسوله)[11] وفضّلهم على تميم واسد وغطفان وبني صعصعة وناهيك بذلك من فضيلة وما ذلك إلا لأنهم نصحوا لله ولرسوله ولدينهم.

---

9) انظر طبقات ابن سعد 292/1 الاستيعاب 546/3، وتهذيب التهذيب 456/10، والبداية والنهاية 120/7.

10) قلت روى هذا الحديث معاوية ابن قرة بن إياس عن أبيه وقد أخرجه أحمد في مسنده 434/3 و19/4 وأبو داوود رقم 4082 وابن حبان في صحيحه موارد 108 وغيرهم.

11) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي فقال حسن صحيح انظر جامع الترمذي 379/4 وجمع الفوائد 588/2.

2 ـ وفد بني أسد بن خزيمة :

ومنازل بني أسد في نجد في مناطق بريدة وعنيزة اليوم وتلك النواحي قدم منهم عشرة رهط في أول سنة تسع بزعامة حضرمي بن عامر بن مجمع أبو كدام ومعه ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد وطليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة فيما بعد ثم عاد إلى الإسلام وحسن إسلامه، ونقادة بن عبد الله بن خلف، فقال حضرمي للنبي ﷺ : يا رسول الله، أتيناك نتدرع الليل البهيم، في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا رسولا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان صادقين**﴾ فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم[12].

وتعلم حضرمي بن عامر سوراً من القرآن الكريم فقال له النبي ﷺ هل تقرأ شيئا من القرآن الكريم، فقرأ (سبح إسم ربك الأعلى... إلى قوله : فقدر فهدى) فزاد : والذي امتنّ على الحُبْلى فأخرج منها نسمة تسعى بين شناف وحشا فقال رسول الله ﷺ : لا تزيدون فيها كافية شافية وفي رواية أنه قرأ عبس وتولى[13]. وسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء منها العيافة والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كله، فقالوا يا رسول الله إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت ؟ قال : وما

---

12) أخرجه أبو بكر البزار عن ابن عباس كما في ابن كثير 392/6 وانظر التفسير للطبري مجلد 92/3/9، وطبقات ابن سعد 292/1.

13) انظر الاصابة 341/1 والدر المنثور 338/6، وقد أخرجه ابن شاهين من طرق عديدة.

هي ؟ قالوا : الخط، قال : علمه نبي من الأنبياء فمن صادف مثل علمه علم[14].

وكان من أمر هذا الوفد أن وقف الفارس الشجاع الشاعر المطبوع ضرار بن الأزور بين يدي الرسول ﷺ، فقال : أمدد يدك أبايعك يا رسول الله على الإسلام وأنشأ يقول :

خلعت القداح وعزف القيان ... والخمر أشربها والثمالا

وكري المحبّر في غمرة ... وجهدي على المشركين القتالا

وقالت جميلة بددتنا ... وطرحت أهلك شتى شمالا

فيا رب لا أغبنن صفقة ... فقد بعت أهلي ومالي بدالا

فأجاب النبي ﷺ : ربح البيع، ما أغبن الله صفقتك يا ضرار[15]. وكان لضرار بن الأزور البلاء الحسن يوم اليمامة فقد قطعت ساقاه فاقبل يزحف محاربا ثم مات بعد أيام رضي الله عنه.

وكان من شأن هذا الوفد أن طائفة من بني أسد وهم بنو مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد يقال لهم بنو الزِّنْية قدموا معهم فقال لهم

---

14) انظر زاد المعاد 48/3 وعيون الأثر 250/2، قال ابن الأثير في تفسير الخط هذا : قال ابن عباس، الخط هو الذي يخطه الحازي، يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حلوانا فيقول له : اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطا كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين وغلامه يقول للتفاؤل : اثني عيان أسرعا البيان، فإن بقي خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خط فهو علامة الخيبة. ونقل تفسيرا آخر عن المزي وقال : الخط المشار إليه علم معروف وللناس فيه تصانيف كثيرة وهو معمول به إلى الآن ولهم فيه أوضاع واصطلاح وأسام وعمل كثير ويستخرجون به الضمير وغيره انظر النهاية 47/2.

15) انظر المحبر لابن حبيب ص 87 والاصابة 208/2 وفيه هذا الخبر من طريق البغوي وابن شاهين والاستيعاب 211/2.

رسول الله ﷺ : أنتم بنو الرشدة، فقالوا : لا نكون مثل بني محولة، يعنون بني عبد الله بن غطفان[16].

وكان هذا من منهج النبي ﷺ أن يغير الإسم القبيح إلى الحسن.

ومن شأنهم كذلك أن استهدى النبي صلوات الله عليه وسلامه من نقادة بن عبد الله بن خلف أحد أعضاء الوفد ناقة فقال : يا نقادة أبغ لي ناقة حلبانة ركبانة ولا تولهها على ولد، فطلبها في نَعَمه فلم يقدر عليها، فوجدها عند رجل فلم يعطها، ثم وجدها عند ابن عم له، يقال له سنان بن ظفير فأطلبه إياها، فساقها نقادة إلى رسول الله ﷺ فمسح ضرعها ودعا نقادة فحلبها حتى إذا بقي فيها بقية من لبنها قال : أيْ نقادة أترك دواعي اللبن، فشرب رسول الله ﷺ وسقى أصحابه من تلك الناقة وسقى نقادة سؤره، وقال : اللهم بارك فيها من ناقة وفيمن منحها، قال نقادة فقلت : وفيمن جاء بها يانبي الله قال : وفيمن جاء بها[17] اللهم أكثر مال فلان وولده يعني المانح الأول، اللهم أجعل رزق فلان يوما بيوم يعني صاحب الناقة الذي أرسل بها[18].

ومن مناقب بني أسد بن خزيمة زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وكان السفير في زواجها جبريل عليه السلام، وفيهم جاء عن النبي ﷺ : (أسد خطباء العرب).

---

16) والزنية في هذا معناها : آخر ولد الرجل والمرأة كالعجزة، وبنو مالك يسمون بهذا لذلك وقال لهم رسول الله ﷺ ذلك نفيا لهم عما يوهمه لفظ الزنية من الزنا، وانظر لسان العرب 360/14، وهذا الخبر أخرجه ابن شبة بإسناد صحيح إلى أبي وائل الأسدي.

17) أخرجه أحمد في المسند 77/5 وابن ماجة في سننه حديث رقم 4134 وانظر طبقات ابن سعد 293/1.

18) انظر المحبر لابن حبيب ص 88.

وفي حديث أبي الدرداء قول النبي ﷺ : يا أبا الدرداء إذا فاخرت، ففاخر بقريش، وإذا كاثرت فكاثر ببني تميم، وإذا حاربت فحارب بقيس ألا إن وجوهها كنانة وفرسانها قيس... الحديث[19].

ويقول الشعبي : قد كانت لبني أسد ستّ خصال لا أعلمها كانت لحي من العرب، كانت منهم امرأة زوجها الله نبيه ﷺ والسفير بينهما جبريل، وكان أول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش الأسدي، وكان أول مغنم قسم في الإسلام مغنم عبد الله بن جحش، وكان رجل منهم يمشي بين الناس مقنعا وهو من أهل الجنة وهو عكاشة بن محصن الأسدي، وكان أول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي، فقال : يارسول الله أبسط يدك أبايعك، قال على ماذا ؟ قال : علي ما في نفسك، قال : وما في نفسي ؟ قال : فتح أو شهادة، قال : نعمْ، فبايعة فجعل الناس يبايعون ويقولون : على بيعة أبي سنان وكانوا سبعا من المهاجرين[20].

3) وفد طيء، وخبر عدي بن حاتم :

قلت : لقد بوب البخاري في جامعه الصحيح بقوله (باب قصة وفد طيء، وحديث عدي بن حاتم) وساق حديث عدي مع عمر الذي سنذكره من بعد، وكأنه لم يصح له على شرطه إلا هذا الحديث أما قدوم الوفد، وحديث زيد فليست كذلك، وقد ذكره ابن إسحق، وابن سعد وغيرها.

---

19) أخرجه البزار في مسنده، وفيه سليمان بن أبي كريمة وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد 42/10.

20) أخرجه ابن عساكر وسنده صحيح كما في كنز العمال انظر 304/5 بهامش مسند أحمد.

وقدم وفد طيء خمسة عشرة رجلا رأسهم وسيدهم زيد الخيل، وهو زيد بن مهلهل من بني نبهان فدخلوا ورسول الله ﷺ في المسجد، فعقدوا رواحلهم بفناء المسجد ثم دخلوا فدنوا من رسول الله ﷺ، فلما انتهوا إليه كلهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا فحسن إسلامهم ثم تكلم زيد، فقال له عمر : ما أظن أن في طيء أفضل منك. قال : بلى، إن فينا الحاتم القاري الأضياف، الطويل العفاف، قال : فما تركت لمن بقي خيرا، قال : إن منا لمقروم بن حومة الشجاع صبرا، النافذ فينا أمرا[21].

ثم قال له رسول الله ﷺ : (ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني ألا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه)[22]. وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير وقطع له (فيدا) وأرضين معه بناحيته، وكتب له بذلك كتابا.

وساق السهيلي خبر زيد من رواية أبي علي البغدادي وفيه : أن النبي ﷺ لما رآهم قال : إني خير لكم من العزى ولاتها، ومن الحجر الأسود الذي تعبدون من دون الله، ومما حازت مناع، ومن كل ضار غير نفاع، فقام زيد الخيل، فكان من أعظمهم خَلْقا وأحسنهم وجها وشعرا فقال له النبي ﷺ وهو لا يعرفه : الحمد لله الذي أتى بك من سهلك وحزنك، وسهل قلبك للإيمان ثم قبض على يده فقال : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل وأن أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله فقال له : بل أنت زيد الخير، فبايعه.

---

21) أخرجه ابن عساكر كما في فيض القدير 445/5.

22) انظر ابن هشام في السيرة 245/4، وابن سعد في الطبقات 321/1.

وفيه أن زيدا قال حين انصرف :

أنيخت بآجام المدينة أربعا ... وعشرا يغني فوقها الليل طائر

فلما قضت أصحابها كل بغية ... وخط كتابا في الصحيفة ساطر

شددت عليها رحلها وشليلها ... من الدرس والشعراء والبطن ضامر

والدرس : الجرب، والشعراء ذباب.

وذكر أبو الحسن المدائني : إن زيدا أهدى لرسول الله ﷺ المخذم والرسوب. وكان لصنمهم الفلس[23].

ثم أجاز رسول الله ﷺ الوفد بخمس أواق فضة لكل واحد منهم، وأعطى زيد الخير اثني عشرة أوقية ونشا.

وكانت المدينة وبئة فلما خرج زيد والوفد راجعا إلى قومه قال رسول الله ﷺ : (إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه) وسماها النبي ﷺ باسم غير الحمى قال السهيلي : هو أم كلبة، فلما وصل إلى نجد في ماء يقال له فردة أصابته الحمى بها فمات، فلما أحس بالموت قال :

أمر تحل قومي المشارق غدوة ... وأترك في بيت بفردة منجد

ألا رب يوم لو مرضت لعادني ... عوائد من لم يبر منهن يجهد

فليت اللواتي عدنني لم يعدنني ... وليت اللواتي غبن عني شهدي

فلما وصلت راحلته إلى امرأته وليس عليها زيد رمتها بالنار جزعاً على زيد فاحترق بذلك ما كتبه له رسول الله ﷺ.

23) انظر الروض الأنف 226/4.

وقيل إن وفاته قد تأخرت بعد وفاة رسول الله ﷺ، قلت : ولكن هذا بعيد لان مثل هذا العلم السيد لابد أن يكون له ذكر في الردة والفتوح، ولم يأت شيء من هذا إلا ما جاء من طريق وثيمة بخبر صغير غير ذي شأن.

وقد كان زيد الخير جميلا وسيما ذكره ابن حبيب فيمن كانوا يتعممون بمكة ضمانة النساء على أنفسهم من جمالهم، جسيما يركب الفرس فتخط إبهاماه في الأرض[24].

شاعرا خطيبا بليغا جوادا يهاجي كعب بن زهير، وله شعر، ذكر بعضه ابن قتيبة في الشعر والشعراء[25].

وترك ابنين هي مكنف وحريث أسلما وصحبا النبي ﷺ وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد.

أما عدي أبو طريف، فقد حدثنا عن خبره هو فقال : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرءا شريفا وكنت نصرانيا، وكنت أسير في قومي بالمرباع[26] فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكا في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت رسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام كان لي عربي، وكان راعياً لإبلي : لا أبالك أعدد لي من أبلي أجمالا ذلك سمانا فاحتبسها قريبا مني، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذني ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداة فقال : يا عدي، ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن

24) انظر الحبر 232، 233.

25) انظر 292/1.

26) أي يأخذ لنفسه ربع الغنيمة

فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد، قال : فقلت : فقرب إلي أجمالي فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت : ألحق بهم بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الحوشية، وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها، وتخالفتني خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيء، وقد بلغه هربي إلى الشام، فجعلت في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت : يا رسول الله، هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن منَّ الله عليك، قال : من وافدك ؟ قالت : عدي بن حاتم، قال : الفار من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى وتركني، حتى إذا كان بعد الغد مربي فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مربي وقد يئست منه، فأشار إلي رجل من خلفه أن قومي فكلميه، قالت : فقمت إليه فقلت : يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن من الله عليك، فقال ﷺ : قد فعلت فلا تعجلي بخروجٍ حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني، فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن أكلمه فقيل : علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة قالت : وإنما أريد أن آتي أخي بالشام قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت : فكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام، قال عدي : فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلي تؤمنا قال : فقلت ابنة حاتم ؟ قال فإذا هي هي، فلما وقعت علي انسلحت ـ لامت وسخطت ـ تقول : الظالم القاطع، احتملت بأهلك وولدك

وتركت بقية والدك عورتك، قال : ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا فإن يكن الرجل نبيا فللسابق له فضل، وإن لم يكن فلن تذلّ في عز اليمن وأنت أنت، فقال : قلت : والله هذا للرأي، قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إلى بيته إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها، قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك، قال : ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها إلي فقال : أجلس على هذه، قال : قلت : بل أنت فأجلس عليها، فقال : بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال :

إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسيا[27] ؟ قال : قلت بلى، قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قال : قلت بلى : قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قال : قلت : أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل، ثم قال : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من الحيرة على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه إنك ترى الملك

27) قوم لهم دين بين النصارى والصابئة.

والسلطـان في غيرهم وأيم اللـه ليوشكن أن تسمع بـالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، قال فأسلمت.

وكان عدي يقول : قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، ووالله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بـابل قـد فتحت وقـد رأيت المرأة تخرج من القـادسيـة على بعيرهـا لا تخـاف حتى تحج هـذا البيت ووالله لتكـونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه[28].

وفي روايـة أن ابنـة حـاتم وقفت من النبي فقـالت لـه : يـا محمـد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت لي أحياء العرب فـإني بنت سيـد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط أنا ابنـة حـاتم الطـائي، فقـال ﷺ : يـا جارية هـذه صفـة المؤمنين حقـا لو كان أبوك مسلمـا لترحمنـا عليـه ـ خلوا عنهـا، فـإن أبـاهـا كان يحب مكارم الأخـلاق وإن اللـه يحب مكارم الأخلاق[29].

وفي البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهما عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلا رجلا ويسميهم، فقلت : أمـا تعرفني يـا أمير المـؤمنين ؟ قـال : بلى أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي : فلا أبالي إذا[30].

---

28) انظر ابن هشام 247/4، وأخرجه أحمد في مسنده 257/4، 378، وتاريخ الطبري 112/3.

29) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وقال العراقي : بإسناد فيه ضعف، انظر تخريج إحياء علوم الدين 99/7.

30) انظر صحيح البخاري 102/8، وقال السهيلي : وأختـه إسمها سفـانـة ولا يعرف لحـاتم بنت غيرها ـ والسفانة : الدرة، انظر الروض الأنف 228/4، والاصابة 329/4.

وكان عدي قد وفى للإسلام وأهله بعد موت النبي ﷺ وأدى الصدقة ومنع من أطاعه من الردة.

وكان من شأنه أنه حين بدأت بعض القبائل تنتقض على الإسلام اتفق مع ابنه أن يرسله لرعي الإبل وأوصاه أن يبعد كل يوم أكثر فإذا جاء في المساء ضربه، وهكذا أياما حتى أبعد كثيرا وانطلق بالإبل فأداها إلى أبي بكر، فكانت نعم العون على قتال المرتدين.

وفي خبر الردة أن طليحة الأسدى أرسل إلى جديلة والغوث أن ينضموا إليه فتعجل إليه أناس من الحيين، وأمروا قومهم باللحاق بهم فقدموا على طليحة، وبعث أبو بكر عديا قبل توجيه خالد من ذي القصة إلى قومه، وقال : أدركهم لا يؤكلوا، فخرج إليهم ففتلهم في الذروة والغارب فبطأهم ذلك عن طليحة، ولما قدم عليهم قالو له : والله لا نبايع أبا الفصيل أبدا فقال لهم عدي : لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم، ولتكنّنه بالفحل الأكبر، فشأنكم به فقالوا له : فاستقبل الجيش فنهنهه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم، فاستقبل عدي خالدا وهو بالسنح فقال : يا خالد أمسك عني ثلاثا حتى يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار وتشاغل بهم، ففعل، ولولا ذلك لم يتركوا فعاد عدي بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة فقال له عدي : إن طيئا كالطائر، وإن جديلة أحد جناحي طيء، فأجلني أياما لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث ففعل فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه

فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه عليهم بركة[31].

وفي رواية أخرى أن خالدا لما رأى ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن قال لهم : هل لكم أن أميل بكم إلى حي من أحياء العرب كثير عددهم شديدة شوكتهم لم يرتد أحد منهم عن الإسلام فقال له الناس : ومن هذا الحي ؟ قال : طيء، فقالوا : نعم وفقك الله نعم الرأي فانصرف بهم حتى نزل بالحيين في طيء[32].

وهذه الرواية من طريق أبي مخنف والسابقة من طريق سيف بن عمر قلت : ولا منافاة بينهما وذلك لأن عديا رضي الله عنه استنقذ قومه فثبتهم على الإسلام فاستنصر بهم خالد لعلمه بثباتهم فنصروه.

4 - وفد تميم :

وفي لقاء هذا الوفد بالنبي ﷺ ومحاورته وإقامته من القرآن والفقه والحكمة والآداب الشيء الكثير مما يجعله جديرا بالتأمل الواعي من كل مسلم وباحث.

وتميم من أهم القبائل العربية وأعظمها شأنا قبل الإسلام وبعده وأكثرها عددا وأشدها بأسا.

ومساكن بني تميم كانت آنئذ بين نجد وبادية البصرة وما والاها. وسبب قدومهم أن النبي ﷺ بعث على صدقات بني كعب من خزاعة بشـ

---

31) انظر تاريخ الطبري 253/3، والبداية والنهاية 317/6.

32) انظر تاريخ الطبري 255/3.

بن سفيـان، ويقـال : النحـام العـدوي وقــد حـل بنـواحيهم بنـو عمرو بن جنـدب بن العنبر بن عمرو بن تميم، فجمعت خـزاعـة مـواشيهـا للصـدقــة، فاستنكر بنو تميم، وأبو وابتـدروا القسي وشهروا السيوف فقـدم المصّدق على النبي ﷺ فأخبره، فقال : من هؤلاء القوم ؟ فانتـدب لهم عيينـة بن حصن بن بـدر الفزاري، فبعثـه النبي ﷺ في خمسين فـارسـا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فأغار عليهم فأخـذ أحـد عشر رجلا، وإحـدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فجلبهم إلى المدينة، فقـدم فيهم عـدة من رؤسـاء بني تميم منهم عطارد بن حاجب بن عدس بن زرارة، والزبرقان بن بـدر، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، والأقرع بن حـابس، وعمرو بن الأهتم وربـاح بن الحـارث، ونعيم بن سعـد والقعقــاع بن معبــد، ومعهم لفيف من قـومهم[33] وكان عيينـة بن حصن بن حـذيفـة الفزاري والأقرع بن حـابس شهـدا مـع رسول الله ﷺ فتح مكـة وحنينـا والطـائف، فلمـا قـدم وفـد بني تميم كانـا معهم.

فلما دخلوا المسجد، وقد أذن بلال بـالظهر، والنـاس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ فعجلوا واستبطؤوه فنادوا يا محمد أخرج إلينـا فخرج رسول اللـه ﷺ وقـد تـأذى من صيـاحهم، فصلى رسـول اللـه ﷺ الظهر ثم أتـوه فقال الأقرع بن حابس : يـا محمـد ائـذن لي فواللـه إن مـدحي لزين، وان ذمي لشين، فقال رسول الله ﷺ : كذبت ذلك الله تبارك وتعالى[34].

33) انظر طبقات ابن سعد 392/1، وعلقها البخاري في صحيحه عن ابن إسحاق 84/8.

34) أخرجه الإمام أحمـد في مسنـده وابن جرير في تفسيره مجلـد 76/2/9 بإسنـاد جيـد، وعبـد الرزاق، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور 86/6.

فقالوا : جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم فمن فأخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطينا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس، أخي بني الحارث بن الخزرج : (قم فأجب الرجل في خطبته) فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمهم نسبا، وأصدقهم حديثا، وأفضلهم حسبا فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوي رحمه، أكرم الناس حسبا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم.

قالو : يا محمد ائذن لشاعرنا فقال : نعم : فقام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فـلا حي يعـاد لنـا ... منـا الملوك وفينـا تنصب البيع[35]

وكم قسرنـا من الأحيـاء كلهم ... عند النهـاب وفضل العز يتبع

ونحن نطعم عنـد القحـط مطعمنـا ... من الشـواء إذا لم يـؤنس القـزع

بما ترى النـاس تـاتينـا سراتهم ... من كل أرض هـويّـا ثم نضطجـع

فننحر الكـوم عبطـا في أرومتنـا ... للنـازلين إذا مـا أنـزلـوا شبعـوا

فـلا ترانـا إلى حي نفـاخرهم ... إلا استقـادوا فكانوا الراس يقتطع

فمن يفـاخرنـا في ذاك نعرفـه ... فيرجـع القـوم والأخبـار تستمـع

إنـا أبينـا ولا يـأبى لنـا أحـد ... إنـا كـذلـك عنـد الفخر نرتفع

وكان حسان بن ثابت غائبا فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسان : جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ، فلما انتهيت إليه، وقام شاعر القوم، فقال ما قال، فلما فرغ قال رسول الله ﷺ : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقام حسان فقال :

إن الـذوائب من فهر واخـوتهم ... قد شرعوا سنة للنـاس تتبع[36]

يرضى بهم كل من كانت سريرتـه ... تقوى إلا لـه وكل الخير يصطنع

قـوم إذا حـاربـوا ضروا عـدوهم ... وإن حـاولـوا النفـع في أشيـاعهم نفعـوا

سجيـة تلـك منهم غير محـدثـة ... إن الخـلائـق فـاعلم شرهـا البـدع

إن كان في النـاس سبـاقون بعدهم ... فكل سبـق لأدنى سبقهم تبـع

لا يرقـع النـاس مـا أوهت أكفهم ... عنـد الـدفـاع ولا يـوهـون مـا رقعـوا

35) البيع واحدتها بيعة وهي موضع الصلوات والعبادات.

36) الذوائب مفردها ذؤابة وهي العالي من كل شيء، ومقصود بها هنا السيادة.

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا[37]
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطبعون ولا يرديهم طمع[38]
لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طمع
إذا نصبنا لحي لم ندب لهم كما يدب إلى الوحشية الذرع[39]
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا[40]
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع[41]
كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد بحلية في أرساغها فدع[42]
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم شرا يخاض عليه السم والسلع[43]
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يؤازره فيما أحب لسان حائك صَنَع[44]
فإنهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أو شمعوا[45]

---

37) متعوا أي زادوا عليهم وظهروا.
38) لا يطبعون : لا يتدنسون.
39) نصبنا أي أعلنا الحرب والعداء، والذرع : ولد البقرة الوحشية.
40) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم، خشعوا : خضعوا وتذللوا.
41) الخور : جمع أخور وهو الضعيف، والهلع جمع هلوع، وهو الجبان الخائف.
42) الموت المكتنع : القريب الداني، وحلية اسم موضع تنسب إليه الأسود، والارسغ جمع رسغ وهو مربط القيد من اليد، والفدع : الاعوجاج.
43) السلع : شجر مر.
44) الصنع : الصانع الماهر المتقن لما صنعه.
45) شمعوا : إذا ضحكوا ومزحوا.

ويبدو أن الزبرقان بن بدر أحسن بقصوره في قوله الأول فقال قصيدة أخرى هي :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

بانا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وأنا نذود المعلمين إذا انتحوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم[46]

وان لنا المرباع في كل غارة ... تغير بنجد أو بأرض الأعاجم[47]

فقام حسان بن ثابت فأجابه بعصماء أكثر تركيزا على الوفد من الأولى وأشد وقعا وتحديا لهم فقال :

هل المجد الا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم[48]

نصرنا وآوينا النبي محمدا ... على أنف راض من معد وراغم

بحي حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم[49]

نصرناه لما حل وسط ديارنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم

جعلنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفسا بفيء المغانم

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم

ونحن ولدنا من قريش عظيمها ... ولدنا نبي الخير من آل هاشم[50]

---

46) المعلمين جمع معلم وهو الذي يضع في الحرب علامة ليعرف بها، وانتخبوا : أعجبوا بأنفسكم وتكبروا، والأصيد المتكبر، المتفاقم، المتعاظم.

47) المرباع : ربع الغنيمة، وكان الرئيس يختص به ويكنى بذلك عن أنهم رؤساء.

48) السؤدد العود : القديم والمتكرر، والندى : الكرم والعطاء.

49) الحي الحريد المنفرد الذي لا يختلط بغيره لعزته، وجابية الجولان موضع بالشام، يريد شرفهم من غسان ملوك الشام وهم وسط الأعاجم.

50) أم عبد المطلب بن هاشم كانت من بني النجار.

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم[51]
هُبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول ما بين ظئر وخادم[52]
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم وأموالكم ان تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زياً كزي الأعاجم

ولما سمع زعيمهم الأقرع بن حابس ذلك وقف فيهم قائلا : وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم على من أصواتنا[53].

فلما فرغ القوم أسلم من لم يكن منهم مسلما، ونزل فيهم قوله عز وجل : ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم، والله غفور رحيم**﴾ الحجرات 4 ـ 5.

ثم وقف النبي ﷺ فيهم فقال لهم : يا بني تميم أبشروا يا بني تميم اقبلوا البشرى، قالوا : بشرتنا فأعطنا، فرؤي ذلك في وجهه، فدخل ناس من أهل اليمن، هم الأشعريون، فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا : قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول

---

51) الوبال : الهلاك.

52) هبلتم : خسرتم وتقدتم، والظئر : التي ترضع ولد غيرها بأجر.

53) الخطب والشعر تجدها في سيرة ابن هشام 222/4، تاريخ الطبري 116/3 والبداية والنهاية لابن كثير 41/5.

هـذا الأمر مـا كان، قـال : كان اللـه ولم يكن شيء قبلـه، وكان عرشـه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء[54].

فـأعطى النبي ﷺ للـوفـد جـوائـزهم ودفعهـا إليهم بـلال اثنتي عشرة أوقية ونشا وكان عمرو بن الأهتم أصغر القوم وقـد خلفوه في رحـالهم، فقـال قيس بن عاصم المنقري للنبي ﷺ : يا رسول الله إنه قـد كان منـا رجل في رحالنا، وهو غلام حدث وأزرى به لأنه كان مبغضا لـه، فـأعطـاه مثل مـا أعطى القوم، فلما بلغ عمرو بن الأهتم ما قاله قيس بن عاصم هجاه فقال :

ظللت مفترش الهلبـــــاء تشتمني عنـــد الرسـول فلم تصـــدق ولم تصب[55]
ســـدنـــاكم سـؤددا رهــوا وســؤددكم بـادٍ نـواجـذه مقـع على الـذنب[56]

وكان عمرو بن الأهتم يدعى في الجـاهليـة المكحل لجمـالـه، وآلـه كلهم خطبـاء، قـال ابن قتيبـــة، كان شـــاعرا شريفـــا يقـــال : كان شعره حللا منشرة[57].

54) أخرجه البخاري في صحيحه، والترمذي في جامعـه والنسـائي عن عمران بن حصين الخزاعي ثم قال عقب الحديث (ثم أتاني رجل فقـال : يـا عمران ادرك نـاقتـك فقـد ذهبت فـذهبت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها، وايم اللـه لوددت أنها ذهبت ولم أقم) وذلـك لحرصهم على العلم والتفقه انظر البخاري 403/13 و286/6 و83/8.

55) الهلباء شعر الذنب، واستعير هنا للإنسان.

56) مقع على الذنب : اقعى الكلب إذا جلس على اليتيه وض ساقيه وأمر ذنبه خلفه.

57) انظر الشعر والشعراء 636/2، وهو القائل :

ذريني فـإن البخـل يـــا أم هيثم لصـــالـح أخـلاق الرجـــال سروق
لعمرك مـا ضـاقت بلاد بـأهلهـا ولكن أخـلاق الرجـــال تضيـــق

وبعد أن أخذوا الجوائز وأرادوا الانصراف قال أبو بكر الصديق للنبي ﷺ أمرّ عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر بن الخطاب : بل أمر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي، قال عمر : ما أردت خلافك فتمارينا، وارتفعت أصواتها فنزل قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾ الآيات من سورة الحجرات 1 ـ 2.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه يحدثه كأخي السرار(58).

وقد جاء في خبر هذا الوفد أن قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم جلسوا إلى رسول الله ﷺ، ففخر الزبرقان بن بدر فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم، والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم، وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذلك ـ يعني عمرو بن الأهتم ـ فقال عمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدنيه، فقال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو بن الأهتم، أنا أحسدك ؟ فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الولد، مضيع في العشيرة، (وفي رواية. لزبر المرؤة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال) والله يا رسول الله لقد صدقت فيا قلت أولا، وما كذبت فيا قلت آخرا، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت وإذا غضبت

58) أخرجه البخاري في صحيحه انظر 84/8، و376/13 وأحمد في مسنده 6/4 وغيرهما.

قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعا، فقال رسول الله ﷺ : (إن من البيان لسحرا)[59].

وولى رسول الله ﷺ الزبرقان صدقات قومه، فأداها إلى أبي بكر وقت الردة وثبت على إسلامه فأقره أبو بكر ثم عمر على الصدقات رضي الله عنهم أجمعين.

قلت : وفي هذا الوفد وما يتصل به ويتعلق بقصته نزلت سورة الحجرات بأجمعها وفيها من الأدب الإلهي الذي أدب به الأعراب الجفاة وغيرهم ومن الأخلاق الإسلامية الكريمة التي بصرت الناس بطرق المعايشة الاجتماعية والتآلف الحضاري، وفيها من الإنكار على العادات التي تخدش كرامات الناس وأعراضهم وتصون حرمتهم وإنسانيتهم، ومن البيان الذي يؤكد أن كثيرا من الناس يعلنون الإسلام بألسنتهم ولا تتشربه قلوبهم فلا يلتزمون حدوده ولا يسلكون مسالكه ما يجعل هذه السورة بقصة هذا الوفد نبراسا يعيش حيا نابضا في ضمير كل مسلم ليسارع إلى تطبيق أوامرها واجتناب نواهيها.

قلت : ومن قصة هذا الوفد وما جرى بين رجاله وأعيانه أمام النبي ﷺ يتبين أنهم كانوا غلاظا أشداء، وقد بين رسول الله صلوات الله عليه أن هذه الشدة الجاهلية ستنقلب إلى الخير وسيكونون أشداء على الدجال كما بين أنهم من صريح ولد إسماعيل، واعتز النبي ﷺ بهم فقال (قومي) فقد

---

59) أخرجه أبو نعيم والبيهقي بإسناد حسن لكنه مرسل، وقد وصله ابن شاهين والبيهقي من طريق ابن عباس انظر البداية والنهاية لابن كثير 45/5 والإصابة 543/1 ومجمع الأمثال 7/1.

أخرج البخاري في صحيحه وغيره عن أبي هريرة قال : (لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم : هم أشد أمتي على الدجال، وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال : أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال : هذه صدقات قوم أو قومي)[60].

وعند أحمد في مسنده (أن رجلا نال من تميم عند النبي ﷺ فقال : لا تقل لبني تميم إلا خيرا، فإنهم أطول الناس رماحا على الدجال)[61].

(يتبع)

القنيطرة **د. فاروق حمادة**

---

60) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري 84/8، وانظر مجمع الزوائد 46/10.

61) انظر مجمع الزوائد 48/10 ورجاله رجال الصحيح.

أغلاط شائعة

وتصويبات لغوية بالرجوع إلى القرآن

انتخبها
مصطفى القصري

فيما يلي قائمة من الأغلاط الشائعة إلى يومنا هذا،وقد نقل طرفا كبيرا منها ابن قتيبة في كتابه«أدب الكاتب»،وهو من أهم مصادر الكتب في اللغة. وإذا تصفحت كتبا نحوية أو لغوية أو أدبية ومن بين هذه الأخيرة مثلا معجم الأدباء والعقد الفريد ووفيات الأعيان، وجدت فيها الإشارة إلى بعض الأغلاط الشائعة، وهي لا يمكن وضع جرد مستوف لها، وإنما هي أهم الأغلاط وأكثرها شيوعا على ألسنة الناس.

على أني أفضل استعمال غلط شائع في الكتابة بدل تصحيح لهذا الغلط دون أن أنبه القارئ إلى ذلك التصحيح. فمثلا قد أتحدث عن أشفار العيون بمعنى حروفها ولكن لا يتبادر إلى ذهن القارئ إلا الأهداب، فأكون قد غلّطته إذا لم أنبهه إلى القول الصحيح، وهذه كلمة القافلة يقال لها قافلة مهما كان الركب ذاهبا أو صادرا، فأصبح معنى متعارفا عليه بين الناس.

وليس يكفي أن يشيع هذا الغلط من الخليج إلى المحيط عن طريق التلفزة والإذاعة والصحف التي يمكن أن تصف قافلة السيارات خرجت من عمان إلى دمشق، أو نضطر المذيعين والكتاب إلى لزوم تنبيه المشاهدين والمستمعين والقراء كل مرة إلى أن القافلة هي التي تقفل وتعود من المكان الذي كانت فيه، فهذا شبه مستحيل.

على أن لدارس العربية أن يتحمل مسؤوليته ويتنبه مهما كان الأمر إلى هذه الأغلاط الشائعة حتى يكون على بينة من أمرها أثناء قراءته ومطالعاته خصوصا إذا كان اهتمامه منصرفا إلى اللغة والآداب العربية. نقول إن الأمر ليس بخطير، بقدر ما هو خطير استعمال التعابير الخاصة بلغة أجنبية معينة وإقحامها في اللغة العربية بترجمة مفرداتها كأنما هي من أصل عربي، على أنه لا بأس من ترجمة بعض التعابير وإثراء اللغة العربية بها خصوصا عن طريق الأمثال إذا تحقق هدف تبليغ المعنى إلى المستمع أو القارئ. ألا ترى هذا المثل الذي أصبح معروفا عند المتكلمين بالعربية عن طريق ترجمته إليها : تمخض الجبل فولد فأرا. فهذا لا يضر العربية في شيء، بل يغنيها إذا لم يكن مقابل له في كلام العرب. أما الشيء الخطير فهو مسخ العربية بإقحامها بعبارات مترجمة حرفيا بينما توجد فيها عباراتها الخاصة بها التي تؤدي المعنى المطلوب على أحسن وجه وأكمل صورة، فننبذ هذه العبارات ونكسي عبارات غير عربية عمامة وعقالا ونزج بها زجا في البيت العربي الذي ابتنى على قواعد ومقاييس معينة صقلتها القرون، نزج بها في لغة لها روحها الخاصة وتنفسها الذي اعتادت عليه، وحركاتها وسكناتها ودمعها وابتسامها وطربها من شدة الجزع أو السرور. ويكفينا الآن أن نرتب البيت العربي ليس إلا.

يقول كتاب صاحب ذرة الغواص عن هذه الروح : «ومن شواهد حكمة العرب في تصريف كلامها أنها جعلت فعلة بفتحها كناية عن المرة الواحدة، وبكسرها كناية عن الهيئة، وبضمها كناية عن الفرد لتدل كل صيغة على معنى يختص به وتمتنع من المشاركة فيه : إلا من اغترف غرفة : بفتح الغين وضمها. فمن قرأها بالفتح أراد بها المرة الواحدة، فيكون قد حذف المفعول به الذي تقديره : إلا من اغترف الماء مرة واحدة. ومن قرأها بالضم غرفة أراد بها مقدار ملء الراحة من الماء».

إن هذا المثل من أسرار العربية، وهاك مثلا آخر من أسرارها وحكمتها وهو أن بعض الحروف حين يكون الواحد قريبا من الآخر في الكلمات فإننا نجده دائما يعبر عن معنى واحد أو متقارب. انظر إلى الجيم والنون متقاربين : فإن وجود هذين الحرفين في الكلمة أكثر ما يعني الستر والسر والخفاء : مجن للحماية، جنون، جنة (محفوفة)، جنين، جنان بالفتح بمعنى القلب جن.

ومن شواهد حكمة العرب كذلك أنك لا تقول مثلا امرأة مرضعة إلا إذا كانت ترضع طفلها ساعة قولك ذلك، بل تقول امرأة مرضع لأن الرجل ليس بمرضع، فاستغنى العرب عن أداة التأنيث في حالة لا حاجة لهم بها، وكذلك الشأن في حامل وطالق وحائض فهذه صفات خاصة بالمرأة.

وفي كتاب الخصائص للفتح بن جني صاحب المتنبي وشارحه كنز لا يفنى وشواهد تكتب بماء الذهب من حكمة العربية وأسرارها تجده مبعثرا هنا وهناك في صفحات هذا المؤلف الثمين.

فهو يحلل بتفصيل في الباب الأول الخصائص في أحوال تصاريف واشتقاقات لفظة «قـ و ل» ولفظة «كـ ل م» مع تقلب حروفها، فيقلب لفظة «قـ و ل» إلى «و قـ ل» و«و ل قـ» و«قـ ل و» و«ل وقـ» و«ل قـ و» فيجد لكل منها نحو الخفوف والحركة والاسراع.

وكان أستاذه أبو علي الفارسي يأخذ بهذه الطريقة ويقول بها، وكذلك الشأن في أصل «كـ ل م»، ففي روح هذه الحروف الثلاثة مقلوبة على مختلف الأوجه ومشتقاتها ما يعني الشدة والقوة والعنف. انظر إلى «لكم» بمعنى ضرب «وكلم» بمعنى الجرح، و«كـ م ل» تقتضي الشدة لأن الشيء إذا تم وكمل يقتضي القوة والشدة بالنسبة إليه إذا كان ناقصا، و«م ل كـ» نفسها تقتضي الشدة، وذلك قدرة وقوة من المالك على ذات يده. ورحم الله شوقي الذي يقول في هذا المعنى :

ولكن توخذ الدنيا غلابا

ويحضرني أيضا في هذا الباب ما ذكر لي الأستاذ عبد الهادي بوطالب في لفظ «ع بـ ر» بمعنى التجاوز والمرور من حال إلى أخرى، مثلا عبر النهر، العبرات بمعنى الدموع التي تنزل من الجفن إلى الخد فتعبره، العبير بمعنى العطر الذي يتأرج ويبرز من مكانه ليصل إلى الأنف. العبرة، بمعنى نتيجة التأمل والتجربة، والتعبير هو الإفصاح بالمعنى والخروج به إلى النطق به وإيصاله إلى الآخر. والكلام في هذا الباب طويل وعريض نتركه لمناسبة أخرى.

وحتى الحروف إذا كانت مخارجها قريبة بعضها من بعض فإن المعنى يتقارب أيضا بحسب شدة الحرف أو ليونته. وقد ذكر ذلك ابن جني أيضا

في باب آخر من «المخصص»، فجاء بأمثلة عدة بعد أن علق على ذلك بأنه وجد كثيرا من اللغة «مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها»، ومن هذه الأمثلة «قضم» أنهم قالوا قضم في اليابس «وخضم» في الرطب، وذلك يقول ابن جني : «لقوة القاف وضعف الخاء. فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف». وهكذ بخصوص «صر» الجندب فكرروا الراء لما هنالك من استطالة صوته، «وصرصر» البازي فقطعوه لما هنالك من تقطيع صوته «وسموا الغراب غاق حكاية لضوته والبط بطا حكاية لأصواتها، وقالوا قط الشيء إذا قطعه عرضا وقده إذا قطعه طولا وذلك لأن متقطع الطاء أقصر مدة من منقطع الدال». وهذا ما يسمى بالفرنسية Onomatopée إلى آخر ما جاء في هذا المعنى.

ومما يستملح في هذا الباب أن أعرابيا قرأ أمام أحد القراء قوله تعالى هكذا : ﴿**طيبى لهم وحسن مآب**﴾ فقال له القارئ : قل : طوبى، فقال الأعرابي مرة أخرى طيبى فعاوده القارئ، وكرر عليه طوبى، فقال الأعرابي من جديد : «بل طيبى» فقال القارئ «طوطو» فرد عليه الأعرابي «طي طي».

ومن المستلحات أيضا أن ابن جني سأل يوما أحدهم «كيف تقول ضربت أخوك» ؟ فقال : «أقول : ضربت أخاك» فحاول ابن جني إلزامه الرفع فأبى وقال لا أقول أخوك أبدا فقال ابن جني : «فكيف تقول ضربني أخوك» فرفع الأعرابي، فقال له ابن جني : «ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبدا، فقال الأعرابي : «إيش هذا ؟ اختلفت جهتا الكلام». وعلق ابن جني على جواب الأعرابي بهذه الملاحظة الوجيهة : «فهل هذا إلا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام وإعطائهم إياه في كل موضع حقه وحصته».

أما أعضاء الجسم فهي سماعية أكثر من أنها خاضعة لقاعدة معينة. ومهما كان الأمر فالرجوع إلى القرآن أضمن. فإذا جهلت هل بئر لفظ مذكر أو مؤنث فارجع إلى القرآن تجد هذه الآية : **﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾**. وهذا باب اهتم به أصحاب اللغة طولا وعرضا حتى استنزفوه.

إننا سنورد فيما يلي بعض الأغلاط الشائعة على الألسنة أو الملتبس في أمرها أو تفسيرات قد تكون صحيحة ولكن الأفضل أن يرجع الإنسان في شأنها إلى القرآن. فمن المفردات التي يقع الالتباس فيها وهي مستخرجة من كتاب «أدب الكاتب» لإبن قتيبة، وكتب أخرى شبيهة به وإنما استخرجناها منها مع بعض الملاحظات حين يقتضي الحال ذلك. كحاطب ليل. والمهم عندنا في هذا كله هو تنبيه الناشئة التي ليس لها من كتب اللغة ما يمكن أن ترجع إليه في أهم ما تريد تصحيحه إذا كان من همها الحفاظ على صفاء العربية وسلامتها كمقوم من مقومات حياتها الروحية، وعنصر أساس ترتكز عليه هويتها الثقافية والفكرية.

الخائن والسارق :

الخائن هو الذي أؤتمن فأخذ فخان **والسارق** من سرق سرا بأي وجه كان، فليس كل سارق خائنا.

البخيل واللئيم :

قد يذهب بعضهم إلى أنهما شيء واحد. وإنما **البخيل** هو الضنين الشحيح **واللئيم** أقبح لأنه جمع البخل ومهانة النفس.

أشفار العين :

يعتقد جل الناس أنه الشعر النابت على حروف العين، وإنما **الأشفار** هي حروف العين نفسها، يقال شفر الشيء بمعنى حده.

الطرب :

يذهبون إلى أنه الفرح فقط، ولكنه هو الجزع كذلك ـ فالطرب خفة وهزة تصيب المرء لشدة سروره أو شدة جزعه.

القافلة :

يقولون إنها الرفقة في السفر ذاهبة كانت أو راجعة، وإنما **القافلة** الراجعة من السفر لا غير. يقال قفلت فهي قافلة. ولكن الخطأ المشهور هنا خير من الصواب المهجور.

المأتم :

يذهب عامة الناس إلى أنه المصيبة، فيقولون كنا في مأتم، وليس بصحيح ـ إنما **المأتم** جماعة النساء تجتمع في الخير والفرح أو تجتمع في الجزع والحزن. وأنا أفضل أن يستمر الناس في غلطهم بأن يقولوا المأتم، نظرا للتطور الاجتماعي الذي فرض السكينة والسمت والصمت أمام الموت عوض العويل والنواح.

الحمام :

يذهب الناس غلطا إلى أنه الدواجن التي تستفرخ في البيوت، إنما **الحمام** ذوات الأطواق وما شبهها مثل الفواخت والقماري والقطا، وأما الدواجن التي تستفرخ في البيوت فهي اليمام.

الظل والفيء :

غالبا ما يعتقد أنهما شيء واحد، وليس كذلك لأن الظل يكون غدوة وعشية ومن أول النهار إلى آخره. ومعنى **الظل** الستر ومنها قولهم «أنا في ظلك» أي في سترك وحماك، ومنها ظل الجنة وظل شجرها. وظل الليل سواده، لأنه يستر كل شيء. يقول ابن قتيبة فكأن معنى ظل الشمس ما سترته الشخوص من مسقطها. وأما الفيء فلا يكون إلا بعد الزوال، وإنما يسمى بالعشي فيئا لأنه ظل مال من جانب إلى جانب أي رجع عن جانب إلى جانب، والفيء هو الرجوع ومنه قوله تعالى : ﴿**حتى تفيء إلى أمر الله**﴾.

الآل والسراب :

الآل أول النهار وآخره الذي يرفع كل شيء وسمى الآل لأن الشخص هو الآل. وأما السراب فهو الذي تراه نصف النهار كأنه ماء، وهو ما يطابق بالفرنسية mirage. قال تعالى : ﴿**كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء**﴾.

العرض :

يعتقد أحيانا أنه آباء الرجل وأمهاته، شتم عرضي بمعنى آبائي غلط منتشر، وإنما **عرض** الرجل نفسه. قال حسان بن ثابت الشاعر :

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء

العترة :

يذهبون إلى أنها ذرية الرجل خاصة، وأن من قال عترة رسول الله يريد بها أولاد فاطمة خاصة، وإنما عترة الرجل ذريته وعشيرته الأقربون من مضى منهم ومن حضر. قال أبو بكر الصديق : «نحن عترة رسول الله التي خرج منها».

الخلف والكذب :

لا يفرق الناس بينهما، وإنما **الكذب** يكون فيما مضى وهو أن يقول الكاذب فعلت كذا وكذا وهو لم يفعل، أما **الخلف** فيكون فيما يستقبل وهو أن تقول سأفعل كذا ولا تفعله.

الفقير والمسكين :

لقد فرق الله بينهما في كتابه العزيز إذ قال : ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾ وجعل لكل صنف سهما، فالفقير تكون له البلغة من العيش، والمسكين هو الذي لا شيء له.

الخائن والسارق :

الخائن هو الذي أؤتمن فأخذ فخان والسارق من سرق سرا بأي وجه كان، فليس كل سارق خائنا.

الحمد والشكر :

لا يفرق الناس بينهما، ولكن **الحمد** هو الثناء على الرجل بما فيه من حسن، تقول حمدت الرجل على فعله وأما **الشكر** له فهو الثناء عليه لمعروف أولاكه.

الجبهة والجبين :

الجبهة ما يضع المرء على الأرض من وجهه حين يسجد في صلاته، فهو إذن مقدم الوجه كالغرة عند الفرس، والجبينان يكتنفان الجبهة من كل جانب جبين.

الأعجمي والعجمي :

الأعجمي هو الذي لا يفصح والعجمي هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا كابن الرومي مثلا.

الأعرابي والعربي :

الأعرابي هو البدوي وإن كان في الحضر، والعربي هو المنسوب إلى العرب وإن لم يكن بدويا. ولكن ابن خلدون يسمى الاعراب عربا.

حاشية الثوب :

يذهب الناس إلى أنها جانبه الذي لا هدب له، وذلك غلط، وحواشي الثوب جوانبه كلها، فأما جانبه الذي لا هدب له فهو طرته.

الهجنة والإقراف :

في الخيل تكون **الهجنة** من قبل الأم من غير **العتاق**، والإقراف ألا يكون الأب من الخيل العتاق، فإذا كانت الأم من العتاق والأب ليس كذلك كان الولد مقرفا.

الحُمَة :

يذهب الناس إلى أنها شوكة العقرب، وشوكة الزنبور التي يلسعان بها، وإنما الحمة سمها خاصة، وكذلك هي ما للحية. ولكن جاء في الشعر العربي الأصيل بمعنى الإبرة، ذكره ابن الرومي في رثاء المغنية بستان.

الحشمة :

يضعها الناس موضع الاستحياء، وإنما هي بمعنى الغضب قال أحدهم : إن ذلك لما يحشم بني فلان. وما كنت أظنه إلا الاستحياء، ولن أقدر أن أستعمله إلا لهذا المعنى بسبب شهرته به.

البديهة والارتجال :

ليس معناهما واحد : فالبديهة فيها الفكرة، والارتجال تدفق الكلام بحيث لا يتوقف صاحبه. وهذه ملاحظة حسنة ينبغي أن توخذ بعين الاعتبار.

الغزل والنسيب :

النسيب هو **التشبيب** بالمرأة، وأما الغزل فهو معاشرة النساء والتخلق بما يوافقهن. ولم أكن أفرق بينهما شخصيا ولن أفرق بينهما مستقبلا نظرا للتعود على ذكر الغزل بمعنى التشبيب.

القاسط والمقسط :

القاسط العالم الجائر، قال تعالى : ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا**﴾. والمقسط العادل من أقسط يقسط. قال تعالى : ﴿**فأصلحوا**

بينهما بالعدل وأقسطوا﴾. وقال : ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾.

وهناك أغلاط شائعة أخرى وهي من الكثرة بقدر ما يسع منها مجلدا وسنكفي منها بما ورد هنا.

ونورد فيما يلي بعض العبارات التي قد يلتبس على المرء في شأنها هل يجوز أن يستعملها بهذا اللفظ أو ذلك، ولكن الأفضل أن يستعملها كما جاءت في القرآن، فذلك أقوم وأسلم. وجل هذه التصحيحات المقترحة توجد في قواميس اللغة مستشهدا بها من القران، وقد اعتمدنا بالخصوص في هذا المجال كتابا صدر قريبا عنوانه : معجم الأخطاء الشائعة لمحمد العدناني. فجردنا منه ومن غيره التحقيقات التالية التي نجدها مبعثرة في المظان.

استبدل الفضة بالذهب	: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير
برح المكان أفضل من بارحه	: فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي
ينبغي له. لا تقل ينبغي عليه	: لا الشمس **ينبغي لها** أن تدرك القمر
أثمر (لازم) وهو المشهور	: انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه. كلوا من ثمره إذا أثمر
زاد الأمر تعقيدا	: **زاده** بسطة في العلم والجسم
زاد في الأمر تعقيدا	: من كان يريد حرث الدنيا **نزد** له في حرثه
أجاب سؤاله	
ويجوز أجاب عن وعلى سؤاله	: أجيبوا داعي الله
حذر الشيء، حذر من الشيء	: هم العدو فاحذرهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك
أصابني الحُزن أو الحَزَن	: الحمد لله الذي أذهب عنا **الحَزَن**
(الوجهان في القرآن)	: وابيضت عيناه من **الحُزن** فهو كظيم
حاشا لله، حاش لله	: قلن **حاش لله** ما علمنا عليه من سوء. قلن **حاش لله** ما هذا بشرا
حُق له حَق عليه	: وأذنت لربها وحقت

أحاط بالجيش : ولا يحيطون بشيء من علمه

خشي الفقر وخشي من الفقر : والله أحق أن **تخشاه**

خفي ـ يخفي : الأفضل خفي : إذ نادى ربه نداء خفيا. ينظرون من طرف خفي إن تبدوا خيرا أو تخفوه

لا يخفى على : إن الله لا يخفى عليه شيء
ولا يخفى على الله من شيء
إن الذين يلحدون في آياتنا **لا يخفون علينا**

أجاب سؤاله أو إلى سؤاله أو على سؤاله والكل صحيح : أجيبوا داعي الله

حذر الشيء أو من الشيء : هم العدو فاحذرهم
واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك

خلد إليه، أخلد إليه صحيحان : ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه

دعاه إلى الجيء وللمجيء : وداعيا **إلى الله**

انذهل عن الشيء، **ذهل عن الشيء** : يوم ترونها **تذهل** كل مرضعة عما أرضعت

لا **ذمة** له ـ لا ذمام له لهما نفس المعنى : لا يرقبون في مومن إلاّ ولا ذمة

تربص له ـ **تربص به** : قل هل **تربصون بنا**

رده لمنزله، رده إلى منزله : فردّوه إلى الله والرسول. ومنكم من **يرد إلى** أرذل العمر

رزقه الله بالمال (خطأ)
والصواب **رزقه الله المال** : أنفقوا مما **رزقكم** الله

لا تقل أرسل له كتابا بل قل أرسل إليه كتابا : وأرسلنا إليهم رسلا

تزوج بها ـ تزوجها (صحيحان) : وزوجناهم بحور عين

سقط في يده، أسقط في يده (الأصح هو الأول) : ولما **سقط** في أيديهم ورأوا أنهم ضلوا

سلبه ماله، سلب منه ماله (الصحيح هو الأول) : وإن **يسلبهم** الذباب شيئا لا يستنقذوه منه

تسلل اللص من المخزن أو انسل منه : قد يعلم الله الذين **يتسللون** منكم لواذا

السِّلْم ـ السَّلْم (صحيحان في المعاجم) : وإن جنحوا للسلم فاجنح لها. فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافة.

سواح، سياح جمع سائح وسياح هو الصحيح (ساح يسيح سياحة) و(ليس ساح يسوح) : قل سيحوا في الأرض

سادة ـ سادات ـ أسياد كلها صحيحة : إنا أطعنا **سادتنا** وكبراءنا

شغله ماله، أشغله ماله (كلاهما صحيح) : سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا : وأهلونا فاستغفر لنا

شك في أمره، شك بأمره : الصواب الأول : أفي الله شك

شكا همه، شكا من همه : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله

اشتكى إليه ـ اشتكى له : قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما

تغامزوا أو تغامزوا بالعيون (تغامزوا يكفي. اللهم إلا إذا أشرت إلى الشيء الذي تغامزوا به كالعيون أو اليد أو الحاجب وتقول تغامزوا بفلان أو عليه) : وإذا مروا بهم يتغامزون

استغابه واغتابه : ولا يغتب بعضكم بعضا

غاظه وأغاظه : ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار

أفسح له مكانا و**فسح** له مكانا الأول خطأ : إذا قيل لكم افسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم

فكر في، وتفكر في، وافتكر في (كلها صحيحة) : انه فكر وقدر، ويتفكرون في ظل السموات والأرض

فوض فلانا بالأمر، فوض الأمر إلى فلان الصواب الثاني : أفوض أمري إلى الله

قال إنه قال أنه : الثاني خطأ : قال إنه يقول إنها، قال إني عبد الله آتاني الكتاب والحكمة

البئر مؤنث : وبئر معطلة

الكأس مؤنث : يطاف عليهم بكأس معين بيضاء لذة للشاربين

نعل أو نعلان : الثاني هو الصحيح : فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى

هداه الطريق، وهداه إلى الطريق وللطريق كلها صحيحة مذكورة في القرآن :
- اهدنا الصراط المستقيم
- وأهديناهم صراطا مستقيما
- قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق

كنت أنت البادئ أو البادئ الأول أفصح عند معظم اللغويين، والقرآن هو القول الفصل : قال تعالى : كنت أنت الرقيب عليهم ولكن كانوا هم الظالمين

وحده : جاءت مرات في القرآن كلها منصوبة إلا أنهم يقولون فلان نسيج وحدِه وقرين وحدِه : حتى تومنوا بالله وحدَه

الوارث، الوريث : الأول هو الصحيح : وعلى الوارث مثل ذلك

وصل المكان وصل إلى المكان صحيحان : قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك. إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق

وعده، أوعده : (وعده للخير وأوعده للشر) قال الأزهري : في كلام العرب وعدت الرجل خيرا، ووعدته شرا، وأوعدته خيرا وأوعدته شرا، فإذا لم يذكروا الخير قالوا وعدته وإذا لم يذكروا الشر قالوا أوعدته، وفي القرآن :
: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما
: وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم

توفى الله فلانا، وتوفي فلان وتوفى فلان كلها صحيحة :
: الله يتوفى الأنفس حين موتها، والذين يُتوفون منكم
: كما نقرأ والذين يَتوفون منكم

وهبه طيلسانا وهب له، صحيحان مذكوروان في القرآن :
: يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكورا، فوهبني
: ربي، هب لي حكما واجعلني من المرسلين.

جلس بشَماله، جلس بشِماله (الثاني صحيح).جاؤوا من كل صوب وحدَب، : جنتان عن يمين وشمال

أو جاؤوا من كل صوب وحدب	: وهم من كل حدب ينسلون
اضطر إلى الشيء، اضطر للشيء	
الصواب الأول	: ثم نضطرهم إلى عذاب النار، إلا من اضطررتم إليه
الأعاريب (هم البدو وسكان الخيام)	
الأعراب العربان : الأول أفصح	: الأعراب أشد كفرا ونفاقا
معصوم عن أو من (الثاني أصح)	: قل من ذا الذي يعصمكم من الله

الرباط — مصطفى القصري

الكتـــابة القصصيّة
في القرن الثـاني
-2-

محمد حماد

ومن المفيد الآن أن نرى ما خلفه هذا الأثر الوافد على البيئة الأدبيـة العربية من معالم إيجـابيـة فيهـا عـامـة، وفي فن الخرافـة بشكل خـاص، على مستوى المضامين التي وقفنا عندها، وعلى مستوى الصياغة الفنية.

أثر كليلة ودمنة في الأدباء المعاصرين واللاحقين :

لقد أعجب أدباء العربية بكليلة ودمنة، وراقهم أسلوبها وما حوتـه من حكم وأمثال، وقد تبلور هذا الإعجاب في ناحيتين :

أ ـ نظم معانيهـا من قبل بعض الشعراء تسهيلا لحفظهـا وإذاعتهـا، وقد كان البرامكـة هم المشجعين على ذلـك، خـدمـة لتراث أسلافهم الفرس إذ خصصوا لهذا العمل جائزة مهمـة بلغت قيمتهـا مـائـة ألف درهم كما ذكر ابن المعتز في معرض حـديثـة عن أبـان بن عبـد الحميـد الـلاحقي (+ 200 هـ /

615م) الذي نظم الكتاب كله فيما يقرب من خمسة آلاف بيت، بعد أن احتال على أبي نواس وصرفه عن هذا العمل ليستأثر دونه بجائزته[1]. ولم يبق من هذا النظم الاشذرات متفرقة في بعض المظان، كما فقد نظم سهل بن نوبخت المعاصر لأبان[2]، وممن نظموه في وقت متأخر: أبو يعلى علي بن أحمد الحسين المشهور بابن الهبارية (+ 504 هـ / 1111م) في كتاب سماه: «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة».

وما يزال إلى اليوم بأيدي الناس.

ومما جاء في مقدمة هذا النظم :

لأن حفظ النثر أمر صعب	وكلفة يعجز عنها القلب
الا إذا ما حفظ المعاني	وقصد الألفاظ بالنسيان
كلت طباع القوم دون نظمه	وعجزوا عن سبكه لعظمه
الا أبان اللاحقي الكاتب	فإنه في نظمه لغالب
ثم أبو يعلى أنا فإني	نظمته بالجهد والتغني
متبعا فيه أبان اللاحقي	وليس وهو سابقي بلاحقي
فإن يكن أقدم مني عصرا	فإنني أحسن منه شعرا[3]

ب ـ النسج على منوالها إذ أخذ أدباء هذا العصر ومن أعقبهم يجعلون من فن الخرافة قالبا يصبون فيه ماشاءوا من آداب وحكم تغري

1) ابن المعتز : الطبقات 240 ـ 241.
2) انظر حاجي خليفة : كشف الظنون 1508/2.
3) ابن الهبارية : نتائج الفطنة 9.

جمهور المتأدبين بالإقبال على قراءتها والإفادة منهـا علاوة على أن هـذا اللون من التعبير غير المباشر عن الأفكار الاجتماعية والسياسيـة يعفي صـاحبـه من كل تبعة قد تلحقه فيما لو اعتمد أسلوبا تقريريا مباشرا.

ومن الذين سلكوا سبيل كليلـة ودمنـة في التـأليف سهل بن هـارون الذي صنف مجموعة من الخرافات ذكر منهـا ابن النـديم كتـابي «ثعلـة وعفرا» و«النمر والثعلب» كما ذكر من قصصه الأخرى كتـاب «الهـذليــة والمخـزومي» وكتاب «الوامق والعذراء» وكتاب «ندود وودود ولدود»[4] ولم يبق من هـذه الآثار سوى واحد هو كتـاب النمر والثعلب الـذي عثر عليـه أخيرا في تونس وتم طبعه بها.

كما حذا حـذو كليلـة ودمنـة ابن الهبـاريـة السـابق الـذكر في كتـابـه المعروف «الصادح والباغم»، وغيره كثير ممن نهج هذا النهج وليس في الإمكان تتبع ذلك لكثرته وقلة الاهتمام بالكشف عنه وإبراز قيمته.

جـ - نقضها والتقليل من شأنها فـإذا كان الأثران السـابقـان عكسـا موقف التقبل والإعجاب بكليلة ودمنة، الذي وقفته بعض الأوسـاط الأدبيـة سواء في عهـد ابن المقفع ومـا بعـده، فـإن هنـاك موقفـا آخر لبعض الأدبـاء يمكن أن ننعتـه بـالسلبيـة، وهـؤلاء هم الـذين حـاولـوا التقليـل من شـأنهـا ورفضوا ماأعطي لها من أهمية مدفوعين بعصبية عربيـة ترىفي التراث الأدبي العربي كل المزايا التي تغني عن النظر في غيره، فوضعوا كتبا قارنوا فيها بين الأمثال والحكم الواردة في كليلة ودمنة وما يضاهيها في أشعار العرب.

---

4) ابن النديم : الفهرست 180.

ونعت هذا العمل بالسلبية لا ينطبق على هذه التآليف في حد ذاتها فلاشك أنها ذات فائدة لا تنكر مهما كان الحافز إلى التأليف وإنما سلبيته تتصل بطبيعة الموقف الذي رفض أن يكون لابن المقفع ـ الفارسي ـ أو لأي كان، فضل السبق في هذا المجال الأدبي.

ومما كتب في هذا الموضوع ـ ولعله أهم ما وصلنا من ذلك ـ كتاب محمد بن حسين اليمني (+ 400 هـ / 1110م)[5] «مضاهاةأمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من الشعر العربي» ومن العنوان يتضح هدف المؤلف وهو توجيه الأنظار إلى أن باب الأمثال والحكم في الأدب العربي موجود منذ القديم، وما جاء منه في كليلة ودمنة مسبوق، وقد اختار المؤلف الشعر مجالا للمقارنة والموازنة ولذلك كان النهج الذي سلكه يقوم على انتقاء المثل أو الحكمة من كليلة ودمنة واتباعها ببيت أو أكثر من الشعر العربي في نفس المعنى على هذا النمط.

«قال صاحب الكتاب» (ابن المقفع) يقال: يعد من البهائم من لم يكن له همة الا بطنه أو فرجه من كان. وقال الحطيئة وهو جرول العبسي.

وإنك الثور الذي لا يعوقه سوى بطنه فيما يحاول شاغل[6]

وفي مكان آخر «قال صاحب الكتاب: يقال من سكرات السلطان الرضى عمن يستوجب السخط، والسخط عمن يستوجب الرضى، ولذلك قيل

---

5) هو أبو عبيد الله محمد بن الحسين بن عمر اليمني المعروف بالنحوي، من علماء اللغة في القرن الرابع، وقد ألف كتابه في نقض كليلة ودمنة سنة 358 / وأهداه للمعز الفاطمي كما ورد في خاتمة إحدى نسخه. القفطي : أنباه الرواة 112/3 السيوطي : بغية الوعاة 37 والصفدي : الوافي 379/2.

6) اليمني : مضاهاة كليلة ودمنة 12.

خاطر من لجج في البحر وأشد منه مخاطرة من صحب الملوك بغير أدب.

قال يزيد ابن الطثرية :

سخطت ولم أذنب وترضى مخالفا كأني أخو ذنب ففعلت معجب

فلو زرت ملكا كنت غير مخاطر وإن كنت أدنى واصلا وأقرب

ولو أنني لججت في البحر عائما على خطر في لجة أتسرب

منت على وديك فيا تسومني مخاطرة في الناس من ذين أعجب[7]

وطبيعي أن يؤدي هذا النهج بصاحبه إلى شيء من العسف في المقارنة إذ في كثير من الأحيان لا تكون المعاني متقاربة بين الحكمة أو المثل المأخوذ من كليلة ودمنة، وبين ما يسوقه من أشعار، وإن وجدت علاقة ما بينها فهي جزئية أو لا تتجه نحو نفس المقصد. كما أن الاشعار التي أشتمل عليها كتاب اليمني بعضها لشعراء مشهورين يمكن الرجوع إلى دواوينهم للإفادة منها على نحو ما في هذا المضار كالحطيئة وابن الطثرية المتقدمين، وبعضهم الآخر من المغمورين الذين لم يرد في شأنهم شيء فيا وقع بأيدينا من مصادر كعبد الرحمان بن عبد الله ابن عثمان الذي أثبت المؤلف من أشعاره :

نقي لدنيئة ذو اجتناب يخاف الله ذو فعل سديد

تستر بالقنوع فكان أبهى من الملك المؤيد بالجنود

وأقصى اللهو والشهوات عنه فلم يحزن على عرض فقيد

وقارنها بقول ابن المقفع : «يقال من صفة الناسك الوقار والاستتار بالقنوع، ورفض الشهوات للتخلي من الأحزان، وترك إخافة الناس لئلا

7) نفس المصدر 15.

يخافهم».[8] وقد نبه محقق الكتاب الدكتور محمد يوسف نجم على مثل هذه الأشياء في التصدير الذي قدمه به فلا حاجة لإعادتها هنا.

ويهمنا من هذه الأصداء التي أوجدتها كليلة ودمنة ما نسخ على منوالها من خرافات في نفس الفترة التي تتناولها هذه الدراسة وهو كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون المشار إليه قبل قليل وسنسير على نفس المنهج الذي اصطنعناه في بحث كليلة ودمنة مع التنبيه إلى أوجه المقارنة بينهما كلما اقتضى ذلك الأمر.

كتاب النمر والثعلب :

وهو قصة واحدة مطولة بطلها ثعلب يمثل دور الحكيم الراجح العقل البصير بعواقب الأمور. وتتلخص وقائع هذه القصة في أن هذا الثعلب كان يقيم بواد خطر معرض للانجراف بالسيل، فنصحه بعض أصدقائه بالتماس مكان آخر لإقامته حتى يدرأ عنه كل شر محتمل فاقتنع برأيه، ولكن زوجته رفضت الرحيل واعتبرت نصيحة هذا الصديق من باب الحسد، وهكذا وقع ما كان منتظرا وجرف السيل منزل الثعلب وألقى بصاحبه على ساحل جزيرة من جزائر البحر، وهناك التقى بذئب حدثه عن ظروف الجزيرة الخاضعة لسلطان نمر شرس مستبد استأثر فيها بالنعم وحرم أهلها وأذاقهم مرارة العيش. فنصح الثعلب رفيقه الذئب بالتماس سبل التقرب إلى النمر وعرض خدماته عليه لعله يسند إليه أمر إحدى الولايات التابعة له مقابل التزامه بتقديم شطر من إيرادها له، مع كفايته مؤونة إداراتها وحفظ الأمن

8) نفس المصدر 9.

بها. وفعلا قام الذئب بمسعاه لدى ملكه فأعجب بكلامه واستحسن رأيه وكتب له عهدا ولاه بمقتضاه على مناهل الضباء. وعندما عاد الثعلب موفقا لم ينس الذئب حسن مشورته فعينه وزيرا له. لكن لم يمض حين من الدهر حتى تنكر الذئب لكل ما التزم به نحو السلطان ولم يعد يبعث له شيئا من الفيء، فكاتبه النمر مستفسرا ثم مهددا متوعدا دون جدوى. وأخيرا بعث له جيشا ليضع حدا لتمرده، ولكن الذئب انتصر عليه في الجولتين الأولى والثانية ولم ينهزم إلا في المرة الثالثة، فقتل وأسر وزيره الثعلب وكاد يلقى مصرعه لولا ما ظهر منه من سداد الرأي وبعد النظر عندما حاوره النمر ووزراؤه في شتى نواحي المعرفة المتصلة بالخير والشر وفضل العلم والعقل وغيرها من المواضيع الأدبية المقصودة لذاتها في الكتاب، إذ استغرق هذا الحوار نصفه تقريبا. وهذا المقصد صرح به المؤلف في مقدمة الكتاب إذ قال : «أما بعد،ايدك الله،بتوفيقه، وعصمك بتسديده، فني رأيت أن أصنع لك كتابا في الأدب والبلاغة والترسم والحروب والحيل والأمثال والعالم والجاهل، وأن أشرب ذلك بشيء من المواعظ وضروب من الحكم، وقد وضعت من ذلك كتابا مختصرا موعيا شافيا وجعلته أصلا للعالم الأديب، والعالم الأريب، مما أمكنني حفظه واطرد لي تأليفه»[9].

وعلى هذا فخرافة النمر والثعلب من حيث بناؤها الفني لا تكاد تختلف عن أحد أبواب كليلة ودمنة، بالخصوص في طريقة السرد المعتمدة على الحوار كوسيلة لإلقاء الحكم والمواعظ والآراء في شتى ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية.

---

9) سهل بن هارون : كتاب النمر والثعلب 8.

شخصية سهل في كتاب النمر والثعلب :

والفارق الأساسي بين خرافة سهل بن هارون هذه وبين كليلة ودمنة يقترن ببروز شخصيةالمؤلف في كتاب النمر والثعلب،لأنه من إنشائه وتخيله فهو مرآة تفكيره ومصب روافد ثقافته في كل ما اشتمل عليه من أفكار تلتقي فيها المعارف الأدبية لهذا العصر، وهكذا اشتمل الكتاب على.

أ ـ طوابع الثقافة الإسلامية.

وهي مؤشر على تمسك سهل بعقيدته التي لا تشوبها شائبة وعلى معرفة جيدة للتراث الإسلامي عامة، تتجلى في الألفاظ والتعابير القرآنية المبثوثة في مقدمة النص وفي صلبه، كما تظهر من خلال أقوال السلف المستشهد بها أحيانا بطريق مباشر أو غير مباشر. ففي خطبة الكتاب نقرأ الحمد لله الذي فطر العباد على معرفته وأوكل الألسن على عز صفته، وحسم الخلائق عن إدراك كيفيته، وخلق الملأ خلقا نوريا وكون الآدميين ماشاء أطواره وركب البروج وأدار الأفلاك وخلق الليل والنهار، فتبارك الذي بان في ملكوته، والملك الحاكم في بريته، وتعالى الحي الدائم الذي لا يموت، وسبحان المهين القدوس الذي لا يتوارى عنه مارق من مخلوقاته في ليل داج، ولا في سماء ذات أبراج، ولا في أرض ذات فجاج، ولا في بحور ذات أمواج، ولا في ظلم ذات ادعاج، يعلم الخفي وفوق الخفي ودون الخفي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي لا تشتبه عليه الأصوات بضروب اللغات، والعالم بمكنون الخفيات، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده

ورسوله، ونور فلق به الظلمات، وأتم به الكليات، وأوضح به الدلالات، وأقام به الرسالات، وختم به النبوات[10].

ومن أول وهلة نرى الطريقة التي سلكها سهل في حمد الله وتوحيده وإدراك عظمته من خلال ما يتراءى من مخلوقاته تقتفي إثر النص القرآني، فكل عبارة تحيلك على آية من آياته لفظا ومعنى، فتركيب البروج وإدارة الأفلاك وتعاقب الليل والنهار تستدعي قوله تعالى : ﴿**والسماء ذات البروج**﴾[11] وقوله : ﴿**ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين**﴾[12] وقوله : ﴿**وكل في فلك يسبحون**﴾[13] و﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾[14] وكذلك الأمر في فجاج الأرض وأمواج البحر وظلماته وكذا النعوت المتصلة بالذات الإلهية كالحي الدائم الذي لا يموت، والمهين القدوس، والعالم بما تكنه الصدور... إلى غير ذلك مما هو واضح لا يحتاج إلى إحالة.

وبالإضافة إلى استمداده من القرآن يورد سهل في كتابه نماذج من أقوال السلف الحكمية اعتدادا بها، فمما جاء على لسان الثعلب الحكيم منسوبا إلى عمر بن عبد العزيز قوله رحمه الله : «من اهدى لنا عيوبنا»[15].

ومن هذا كله نرى صدور المؤلف عن تفكير إسلامي فيما يتعلق بالإطار الفكري العام الذي يحيط بكتابته ويوجهها، وهو بهذا يتميز عن ابن

---

10) نفس المصدر 7.

11) سورة البروج 1.

12) سورة الحجر 16.

13) سورة يس 40.

14) سورة آل عمران 90.

15) نفس المصدر 8.

المقفع في كليلة ودمنة وغيرها حيث لا ذكر للإسلام ولا للقرآن ولا لأقوال أعلام المسلمين.

ب - التراث الأدبي العربي :

تستوقفنا أيضا في كتاب النمر والثعلب ظاهرة حضور التراث الأدبي العربي نظما ونثرا، فكثيرا من الأمثال والحكم التي ضمنها سهل خرافته عربية بعضها من عيون الشعر الجاهلي والإسلامي الذي نسبه إلى قائليه، وبعضها غير منسوب. فمن حكم الجاهليين ورد قول طفيل الغنوي :

إن النساء كأشجار نبتنا معا   منهن مر وبعض المر مأكول

إن النساء متى ينهين عن خلق   فإنه واجب لابد مفعول[16]

وقول الأعشى :

شباب وشيب وافتقار وثروة   فلله هذا الدهر كيف ترددا[17]

ومن حكم الإسلاميين ذكر قول القطامي (+ 101 هـ / 720م) :

وخير الأمر ما استقبلت منه   وليس بأن تتبعه اتباع[18]

وقول أبي الأسود الدؤلي (+ 69 هـ / 688م) :

وليس الرزق عن طلب حثيث   ولكن ألق دلوك في الدلاء

يجيئك بمليها طورا وطورا   تجيء بحمأة وقليل ماء[19]

---

16) نفس المصدر 11.

17) نفس المصدر 31.

18) نفس المصدر 11.

19) نفس المصدر 14.

بالإضافة إلى أبيات أخرى أغفلت نسبتها، ومنها :

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الظلام ظلام[20]

أما المنثور فإن أبرز ما يلفت النظر منه نصوص من الرسائل الديوانية ساقها سهل في إطار الصراع الذي نشب بين السلطان (النمر) وواليه (الذئب)، فقبل المواجهة العسكرية بينهما بدأت معركة أدبية كانت المكاتبة وسيلتها في إقامة الحجة على الوالي المتمرد، وفي هذا الصدد جعل سهل نماذج مما اشتهر من رسائل بني أمية وبني العباس معبرة عن واقع الحال في خرافته، ولكون هذه الرسائل غير منسوبة إلى كاتب معين ـ لأن سياق القصة يقتضي ذلك ـ فالدارس لا يستطيع بيسر تبين ما هو مضمن مما هو مبتدع من وضع المؤلف نفسه، خصوصا وان ما وقع بأيدينا من كتابة سهل في هذا المجال لا يفيد في تحديد خصائصها الأسلوبية.

فمن الرسائل الأموية المشهورة التي وردت في الكتاب على لسان النمر تلك التي كان بعثها يزيد بن الوليد إلى مروان بن الحكم في صدر الدولة الأموية، ونصها «أما بعد فإني رأيتك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا نظرت في كتابي هذا فاعتمد على أيها شئت، فإن كنت سلما فاقبل والا فإذن بحرب والسلام»[21].

أما الرسائل المطولة فلاشك أنها تمثل النماذج السائدة في أيام سهل وأحسب إنها من وضع المؤلف نفسه، فمن المستبعد إلا يضمن كتابه شيئا من ترسله مع طول باعه في هذا الميدان، خصوصا تلك التي ساقها في نطاق

20) نفس المصدر 33.

21) سهل بن هارون كتاب النمر والثعلب 28 وقد وردت الرسالة منسوبة إلى صاحبها عند القلقشندي في صبح الأعشى 391/4.

التهديد والوعيد، إذ تخير لها صور التعبير المثأثورة في ذلك مع التزام السجع والازدواج، وهكذا نقرأ في إحداها «أما بعد فإنك لم تمر بقتل وثاب، صوب سحاب، ولا استدررت به عذب شراب، بل مريت به سوط عذاب، وكأس سلع وصاب[22] لو قد رأيت حلق الحديد مضاعف التشديد، وخوافق البنود[23] محفوفة بالجنود، وبوارق السيوف تضحك إلى الزحوف، وتفتر عن الحتوف، والقنا يتحطم، واليلب يتهشم، والأسنة ترعف[24] والقلوب ترجف، والفرائض ترعد، والسواعد تخضد[25] والهام تتفلق، والرقاب تتعلقم إذن لاستبدلت بفرحك ترحا، وبسرورك ضرحا وباغتباطك ندامة، وبتفريطك ملامة، وبجذلك إيلاسا[26] وبطمأنينتك إنحاسا...[27] والرسالة طويلة تزخر بصور التهويل على هذا النمط.

وفي نفس الموضوع أيضا نقرأ في رسالة أخرى صورا من التعبير والازراء مصحوبة بالفخر والاعتداد بالبطولة في عبارات متتالية تحيلنا على باب المفاخرات القديمة، فنجد «يا ابن اللكيعة وعبد العصا، أبالحرب تخوفنا، ونحن فلق جوانها[28] ومراضع البانها، ومثير عجاجها ورهجها، وخائضوا أغمارها ولججها، وسحائب الدماء بسيوفنا تنهل، وبروقها من

---

22) السلع والصاب : شجران مر طعمها وبها ضرب المثل في ذلك، قال حسان ابن ثابت :

فإن في حربهم فاترك عداوتهم   شرا يخاض عليه الصاب والسلع

23) البنود جمع بند وهو الراية.

24) اليلب الدروع أو خوذة من جلد، وترعف : تقتل.

25) تخضد تكسر.

26) الإيلاس هنا التوجع.

27) سهل بن هارون : كتاب النمر والثعلب 35.

28) الجوان : بمعنى الظلمة وهي بضم الجيم، وفي النص الجوان بفتح الجيم ولا وجه لها.

صفائحنا تنكل[29]، فنحن أبناء الحقوق، وفضلات السيوف، ما نجم قرن فتنة إلا حددناه، ولا سعى علينا فيها باغ إلا أبرناه...[30].

ويهمنا من هذا أن نشير إلى أن التراث الأدبي العربي له حضوره الواسع في كتاب النمر والثعلب فيما أورده سهل من أشعار ورسائل السلف، وحتى فيما نحسبه من وضعه نراه يستلهم فيه الأساليب المشهورة في الموضوع الذي يطرقه.

وأخيرا هناك ظاهرة أخرى تضاف إلى المناخ الفكري العربي الذي يسود في هذه الخرافة وهي أن أبطالها من الحيوان يحملون أسماء وألقابا عربية، فالثعلب سمي مرزوقا، وكني أبا الصباح، وصديقه دعي طارق وكني أبا المغلس، والذئب الذي لقيه في الجزيرة اسمه مكابر وكنيته أبا الفراء، وملك النمور خلع عليه لقب المظفر بن منصور، وهكذا يجد القارئ لهذا الأثر الأدبي أنه أمام نص عربي توفرت له كل خصائص بيئته الفكرية والحضارة فجاء مستجيبا لشروط إبداعه.

جـ - المعارف العقلية :

بالإضافة إلى هذه الملامح من التراث العربي الإسلامي التي تبرز في كتاب النمر والثعلب، اشتمل أيضا على شذرات من المعارف العقلية تتصل بالمجالين الأخلاقي والسياسي على غرار ما رأيناه في كليلة ودمنة.

ففي المجال الأخلاقي نجد سهل بن هارون يصدر في تفكيره عن ثنائية متكاملة وواضحة المعالم، فالأخلاق عنده تقوم من جهة على أسس إسلامية

29) أنكل البرق : لمع وأضاء.

30) نفس المصدر 32.

تبدأ من خشية الله واجتناب ما نهى عنه مع مسحة من الزهد، يتضح ذلك على سبيل المثال في هذا الحوار بين الثعلب والنمر إذ سأل هذا الأخير «من صغرت الدنيا في عينيه ؟ قال من كرمت عليه نفسه. قال فمن اعظم الناس قدرا ؟ قال من لا يبالي بالدنيا عند من كانت. قال أي الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم قال أي الناس أعلم ؟ قال أشدهم لله خشية»[31].

ومن جهة أخرى نرى المؤلف يجعل للعقل مكانته الهامة في تحقيق إنسانية الإنسان على المستويين الفردي والاجتماعي، فقد سئل الثعلب الحكيم «أخبرني عن الإنسان وحاله ونقصانه وكماله ؟» فأجاب «معنى الإنسان العقل، إذا رزقه استحق اسم الإنسان، وإذا عدمه فقد نقص ولا يلزمه إلا اسم الصورة»[32] ويتطابق مفهوم العقل عند سهل مع مفهومه في أدب ابن المقفع، فالعقل أداة لجلب المنافع ودرء المضار، فهو المرشد والهادي إلى سبل الخير العام، ومن الأقوال التي وردت في ذلك «العاقل موفق للرشد في كل أمره، ولا تلقاه إلا ناصحا للولاة موقرا للرؤساء، منقادا للفقهاء، موفيا للإخوان، متحرزا من الاعداء، غير حاسد للأصحاب ولا مخادع للأخيار ولا متحرس بالأشرار ولا مشارب على الناس... ولا بخيل في الغناء، ولا ذليل في الفاقة، ولا جالح في الغضب، ولا منقاد للهوى ولا مكذب بالقضاء، ولا متكل عليه، ولا متكلف مالا يطيق، ولا يسعى لما لا يدرك، ولا يعد إلا بما يقدر عليه»[33] فالعاقل على هذا الأساس هو المستفيد من الظروف، المحقق لكل شروط التجاوب مع بيئته.

---

31) نفس المصدر 66.

32) نفس المصدر 47.

33) نفس المصدر 61.

ولا شك أن هذه الثنائية في الفكر الأخلاقي عند سهل بن هارون مصدرها ثقافته المتنوعة المستوعبة للتراث العربي الإسلامي المرتبط بعقيدته الدينية القوية، وللمعارف العقلية التي أصبحت تكون رافدا مهما من الروافد الفكرية للعصر. ثم أن أسلوب سهل في تناول بعض القضايا يكشف عن نزعة منطقية جلية نستشفها من مثل هذا الحوار الذي تناول طبيعة العقل ومراتبه وحظ الناس منه قال فأخبرني عن العقل أهو شيء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه، أم الناس في نيله مستوون أم متفاضلون ؟ قال: بل متفاضلون. قال : فكيف دعي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الكبير فقيل لهما عاقلان وهما في العقل متباينان، فهل يقع اللقب الواحد على ذوي الدرجات الشتى ؟ قال نعم، وليس ذلك بخطإ من القائل، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن تدعو كل ذي درجة من درجات الجنس بلقب غير لقب الآخر، ولو كلفت اللغة ذلك لطال الكلام في غيره لتوزع المعنى المستوجب للاسم، ولكنها شملت كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد. قال فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد ؟ قال بالتمييز وكشف المعرفة، ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت إذ يقال : بناة ونجارون وتجار وخياطون ولكل واحد منهم على صاحبه في الصناعة فضل أو عليه له فضل. فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل، وهم فيما أوتوا منه متفاضلون أحدهم فيه أكثر حظا منه»[34].

34) نفس المصدر 47.

فمثل هذه المناقشة لعلاقة الفكر بالواقع وتدخل اللغة في تصنيف الأشياء وتحديد صفاتها إشكاليات لا يتأتي الخوض فيها واستنباط النتائج منها إلا لمن له قدرة على التجريد مع إحرازه على ثقافة منطقية أحسب أن هذا النص يكشف عنها للقارئ بكل وضوح.

وفي المجال السياسي رأينا أن موضوع خرافة النمر والثعلب يتناول سياسة الملك، وينصب على ظاهرة من الظواهر اللافتة للنظر في أيام سهل بن هارون، وهي استبداد الولاة وطموحهم إلى الاستقلال عن سلطة خلفاء بغداد، إذ بدأت بوارد ذلك منذ أيام هارون الرشيد حين استقلت بعض الدويلات في الغرب الإسلامي كدولةالأغالبة في برقة وبني رستم فىالمغرب الأوسط والعلويين الأدارسة في المغرب الأقصى، وقد أشير إلى ذلك في مدخل هذه الدراسة. وعلى هذا يكون المضمون السياسي للخرافة - في إطاره العام - وصفا لواقع قائم ولكنه من حيث الصورة التي يقدمها عن الملوك وسيرهم ينطبق مع االآراء التي بسطها ابن المقفع في كليلة ودمنة والأدب الكبير، فجو الاستبداد يطالعنا منذ مدخل الخرافة في الجزيرة التي نزل بها الثعلب مرزوق، حيث سأل الذئب مكابرا عن سر الحرمان الذي يعاني منه سكان الجزيرة مع وجود خيرات بها عبر عنها بكثرة الضباء وبقر الوحش، فأجاب مكابر «ها هنا نمر يقال له المظفر بن المنصور قد تملك على هذه الجزيرة وغلب عليها، وهو من شراسته وبخله وضيق خلقه على ما قد عرفت من صفة الحور، وإني لأكلمك وما آمنه فرقا أن يخرج فيرانا :(35) وهكذا يكون الاستئثار بالمنافع أول مظهر من مظاهر جبروت الخلفاء

35) نفس المصدر 12.

الذين يرمز إليهم المظفر بن منصور ونتيجة لهذا الوضع غير العادل فإن ولاة الأقاليم كذلك يتحينون كل فرصة سانحة للتنكر لولي نعمتهم والتمرد عليه، وهو ما فعله الذئب مكابر.

وفي حوار آخر جرى بين الذئب ووزيره الحكيم الثعلب نجد وصفا لأخلاق الملوك ينطبق مع ما قدمه ابن المقفع في هذا الباب. قال الثعلب : «أيها الأمير، إن النمر وإن كان من الأخلاق الضيقة على ما قد عرفت وعرفنا، فقد تردى برداء الملك ودعي باسمه وسار بسيرة نظرائه، والملك صبي الرضى كهل الغضب، يأمر بالقتل وهو يضحك، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزج، يخلط الهزل بالجد ويتجاوز في العقوبة قدر الذنب، وربما أحفظه الأمر اليسير، وربما أعرض صفحا عن الخطب الكبير، أسباب الموت والحياة معلقة بطرف لسانه، لا يعرف ألم العقوبة فيبقي، ولا يؤنب عن بادرة فينتهي، يخطئ فيصوب، ويصيب فيفرط، مفتون الهوى فظ خليقة، أخرق العقوبة، لا يمنعه من ذي الخاصة به ما يعمله من حرمه وعنايته وطول صحبته أن يقتله لخطرة من خطرات موجدته، ولا ينفك أن يخطب إليه مكانه، وينافس الرجال موضعه، فلا الثاني بالأول يعتبر ولا الملك على ما فرط منه يزدجر...»[36].

ومن هنا نستنتج أن الرافد المشترك في كل من كليلة ودمنة وكتاب النمر والثعلب هو ما يتصل بالفكر الأخلاقي والسياسي الذي برزت فيه نقط التلاقي بينهما، وهو شيء إن لم يكن من تأثير أدب ابن المقفع في سهل فهو يدل على الأقل على وحدة المنبع الذي استقيا منه في هذا المجال.

---

36) نفس المصدر 24.

والـذي نخلص إليـه من كل مـا سبـق في هـذا الفصـل أن الكتـابـة القصصية في القرن الثاني أخذت اتجاهين متميزين :

1 - أولهما عربي خـالص يعـد استمرارا للقصص القـديم الجـاهلي والإسلامي الذي يأخذ مادتـه من القيم العربيـة في كل مـا يتعلق بـالوقـائع التاريخية والأعراف الاجتماعية، وفي فهم البطولة والمغامرة والحكمة...الخ.

2 - ثانيهما من نتـائج حركـة النقل والترجمة والاتصـال بـالأمم غير العربية، حيث أصبحت المادة القصصية من جملـة مـا نـال اهتمام أدبـاء هـذا الجيـل، فتم نقـل نمـاذج من القصص غير العربي ونـال القصص الخرافي أكبر نصيب من ذلك الاهتمام لدواع فنية وسيـاسيـة أشرنـا إليهـا وقـد ترتب عن هذين الاتجاهين وجود ثلاثة أساليب متميزة صيغت فيها هـذه الأقـاصيص : الأول اعتمـد النهج العربي الخـالص في أدوات التبليـغ والتصـوير من امثـال واشعار وغيرها، كما رأينا في قصص الجاحظ وأضرابـه. والثـاني ينم عن روح شرقية عـامـة في العرض المسهب لعنـاصر الحكايـة، ومـا يتردد فيـه من حكم وعظات كما اتضح في كليلة ودمنة. وثـالثهما زاوج بين الأسلوبين وأفـاد منهما كما هو الشأن عند سهل ابن هارون.

فاس　　　　　　　　　　　　محمد حماد

مقاصد التربية الموسيقية

عبد العزيز بن عبد الجليل

لا نستطيع أن نتحدث اليوم عن التربية الموسيقية بمعزل عن التربية بمفهومها العام كبناء متكامل تندرج في محتواه عملية إعداد كامل للفرد تشمل الجوانب العقلية والخلقية والجسدية والجمالية، كما لا نستطيع أن نستوفي جوانب التربية الموسيقية ما لم نتناول الحديث عنها من زاوية أوسع تشمل سائر الوسائل التعبيرية التي ندرجها فيما يمكننا تسميته بالوسائل الجمالية الاسطيقية.

واعتبارا لهذا وذاك، تشكل التربية الموسيقية ركنا أساسيا في تشييد الصرح القويم لتكوين الإنسان.

ولقد شكلت الموسيقى ظاهرة طبيعية وفطرية عرفها الإنسان منذ عهوده البدائية، واتخذ منها وسيلة للتعبير عن حاجاته، ثم تطور استخدامه لهذه الوسيلة مع تطور ملكاته العقلية ومهاراته اليدوية، لتتحول من صورة

بدائية للغناء إلى صور فنية متطورة تتضافر فيها عناصر الأداء الآلي والصوتي، ولتغدو بفضل ما تمتلكه من وسائل مستحدثة للتعبير والتصوير أقدر على ترجمة المواقف واستجلاء المشاعر والأحاسيس.

ولأهمية التعبير الموسيقى بكل ما تمتلكه اللغة الموسيقية، من خصائص كامنة في الإيقاعات والألحان والأصوات، باتت العناية بتهذيبه وتوجيهه أمرا ضروريا، وبات الاهتمام بتنشئة الناشئة تنشئة فنية صالحة من آكد واجبات المربين، حتى لقد ذهب أحد هؤلاء إلى القول بأن الطفل الذي يعرف كيف يغني لا يعرف الكذب.

والحق أننا إذا عرفنا كيف نستغل ميل الطفل للموسيقى وشغفه بالغناء أمكننا أن نحقق فوائد تربوية جلى، لعل أهمها :

1 - تربية الذوق الموسيقى الجميل، وهو في نظرنا يعني التأهل الجمالي والفني للتمييز بين ضروب الألحان، واستعداد النفس للتجاوب معها بكيفية فعالة، ثم القدرة على استيعاب الآثار الفنية وإدراك ما تعبر عنه من الانفعالات والمواقف سواء كانت هذه جلية السمات يمكن ترجمتها بالكلمات أم كانت خفية لا تترجمها الكلمات.

ولكي يصبح المرء قادرا على التمييز، فلا بد أن يتوفر على عناصر المقارنة والموازنة، وهذا يعني أن يتسلح بالخبرة الفنية، ويعود نفسه على سماع الآثار الموسيقية الرائعة. ومتى عودنا الطفل على سماع الموسيقى النظيفة يسرنا له سبل التعلق بها ووهبناه الحصانة ضد رخيص الأنغام فيما يستقبل من أيامه. ومن هنا تتجلى أهمية الدور الذي على كل من الأسرة والمدرسة أن تلعبه في هذا المضمار.

وكما أن التعرف على فنون الشعوب والاطلاع على وجوه ثقافتها مما يزيد في فهم عقليتها ـ إذ لا تستطيع الإلمام بعقلية الشعب الياباني مثلا ما لم تلم بالمعطيات الثقافية والفنية لهذا الشعب ـ فإن تنمية الذوق الموسيقي لدى المواطن وإطلاعه على نصيب وافر من التراث الموسيقي العربي عامة والمغربي خاصة لممّا يطبع شخصيته بالطابع الأصيل ويكسبه خصائص المواطن الحق.

2 ـ تنمية الفضائل الخلقية، ذلك أن الغناء ـ وخاصة منه الجماعي ـ يؤثر في سلوك الأطفال تأثيرا ملموسا، فيعودهم الجرأة في القول والشجاعة في المبادرة، وينظم حركاتهم تنظيما يحفزهم إلى الأقدام ويصونهم من شائبات التردد. فالطفل بخضوعه لحركات المعلم وإشاراته بالغناء آنا والصمت تارة أخرى ورفع الصوت آنا والهمس آنا آخر، والسرعة طورا والبطء طورا آخر، يتلقى بطريقة تلقائية دروسا عملية في النظام، كما أنه باشتراكه في الانشاد مع مجموعة الأطفال يتعود على فضيلتي التعاون والتضامن.

وينبغي أن تنطلق عملية التربية الموسيقية منذ السنوات المبكرة من عمر الطفل، وذلك استجابة وإرضاء لميوله نحو الموسيقى والغناء والتي تكشف عن نفسها بشكل ملموس وواضح. فإننا نلاحظ أن الطفل قلما ينقطع عن الترنم بما يسمع أو ترجيع ما تختزنه ذاكراته، ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على العلاقة المتينة التي تربطه بالموسيقى كما تربطه باللهو واللعب. ومن يدري، فلعل الغناء أن يكون في عرف الأطفال ضربا من ضروب الألعاب التي يمارسونها.

والواقع أننا نلاحظ اندفاع الطفل نحو الغناء بدوافع مختلفة : فهو آنا يترنم بكيفية تلقائية لا شعورية. وهو آنا آخر يقبل على الانشاد بعزم ورغبة، كما أنه قد يُدفع إليه دفعا. ويمكننا ملاحظة هذه الحالات في ثلاثة أطفال، يبدو أولهم منهمكا في بناء حصن من حصى الرمل، وهو خلال عمله يتغنى، فغناؤه إذن تلقائي لا إرادي. ويبدو ثانيهم منهمكا في الرقص والترنح، فغناؤه اختياري جنح إليه بمحض إرادته لمصاحبة رقصه. أما الطفل الثالث فقد مثل أمام معلمه الذي طالبه بأداء نشيد ما. وهو إذن في هذه المرة يمارس الإنشاد بشكل اضطراري. والطفل في الحالة الأخيرة أكثر اضطرابا، وموقفه أشد حرجا، فهو تحت تأثير الإلزام كثيرا ما يقع في ارتباك ينعكس على طريقة أدائه.

ومن هنا تبدو عملية التعليم صعبة وشاقة، تستدعي حنكة بيداغوجية ممتازة، كما تقتضي أن يتسلح معلمو الموسيقى باتخاذ الحيطة في الاضطلاع بهذه المهمة.

وليس يعني ذلك أن نعمد إلى حرمان الطفل من التعليم الموسيقي، عملا بالمثل السائر : كم حاجة قضيناها بتركها. ذلك أنه من الأكيد أن ذاكرة الطفل ستظل خلوا من معارف معينة طالما لم تقدّم إليه. غير أن هذه الحقيقة لا تنطبق على الآثار الغنائية المسموعة. ولبيان هذا أقول : إنك تستطيع أن تلغي من برامج التعليم - مثلا - مادتي التاريخ والجغرافية فتسد بذلك أمام المتعلم باب النهل من معارف هاتين المادتين، ولكنك مهما تماد في إلغاء مادة الأناشيد بالمدارس فلن تستطيع الحيلولة دون أن تتسرب الألحان والأنغام إلى أسماع الأطفال وقلوبهم وترسخ في ذاكرتهم، عبر أجهزة الإذاعة المبثوتة أينما حلوا وارتحلوا خارج جدران المدارس والمعاهد.

لكن يبقى أمامنا ـ فقط ـ أن نتساءل عن نوعية ما تتلقاه أسماع هؤلاء الأطفال وتلتقطه، وعن انعكاسات ذلك كله على سلوكهم وأخلاقهم.

وإذن، فلا بد من مواجهة مسؤولية تعليم الموسيقى للأطفال، ولابد من البحث عن وسائل مغالبة صعابها.

وتعتبر مرحلة ما بين السنة الثانية والسنة السادسة من أخطر مراحل عمر الطفل فيما يخص تلقيه للمحفوظات الغنائية. وذلك أنها ـ باعتبارها مرحلة التلقي والخزن ـ تستلزم تصنيفا مسبقا للمادة الفنية وتحديدا دقيقا لنوعيتها، كما تستلزم تحديد طريقة استعمالها وترديدها، وبالتالي إعداد معلمين أكفاء لتلقينها.

ومثل هذا العمل المجهد والمضني يفرض مراجعة شاملة للأناشيد والأغاني التي تروج في أوساط ناشئتنا من أجل فرزها وتصفيتها من الشوائب الفنية، وكذا تنحية ما كان منها صعب المنال، ثم من أجل إغناء خزانتنا الفنية بالألعاب الموسيقية التي تستجيب لرغبة الأطفال في الحركة والنشاط وتعودهم على النظام والانضباط.

كما أن هذا العمل يتطلب أن نتسلح بالشجاعة الكافية لمحاربة ظاهرة تحويل الأغاني الإذاعية إلى أناشيد مدرسية بمجرد استبدال كلماتها، وتلك ظاهرة خطيرة طابعها العام تشويه الألحان من جهة وتمييع أخلاق ناشئتنا من جهة أخرى.

وأخيرا، فإن هذا العمل يستلزم أن ينكب المهتمون بهذا الميدان على تأسيس لجن مختصة يعهد إليها تنظيم ندوات لتكوين الملقنين وإصدار بطاقات فنية دورية تحدد مفهوم الأناشيد المدرسية ومقاييس تأليفها نظما

ولحنا وإيقاعا، وحث ذوي الخبرة على الإنتاج والنشر والتدوين والتسجيل، بهدف خلق خزانة للأناشيد تساير مراحل النمو لدى الطفل. ومن الأنسب أن ننطلق في تعليم الموسيقى من السهل إلى الصعب، ومن الملموس إلى المحسوس، وذلك بتعداد فرص الغناء أما الأطفال وإعدادهم لتذوق جمال الألحان منذ نعومة أظفارهم، حتى تصبح الموسيقى بالنسبة إليهم متعة وتسلية، وهذا يعني أن نتحاشى تقديم القواعد النظرية إلى الأطفال الصغار. وكبديل عنها تتجه التربية الموسيقية نحو اعتماد أناشيد تتصل موضوعاتها بمحيط الأطفال، وركوب وسائل الترفيه من حركة ولعب، وتعريفهم على آلات النقر المعروفة بالباند (كالدف والطبل والجلاجل والمثلث المعدني) وتعويدهم على أن يميزوا بين النغمات الحادة الغليظة وبين أصناف الإيقاعات، ثم بين مصادر الأصوات البشرية منها والآلية بسائر أنواعها.

الابتكار الموسيقي والتأليف الموسيقي :

يعتبر الابتكار ـ على حد تعبير أحد أساتذة الموسيقى ـ ذروة التربية الموسيقية، ويكاد المربون يجمعون على أن من الحقائق المسلّم بها أن الأطفال طبعوا منذ صغرهم على الميل إلى ابتكار الألحان الموسيقية، نلاحظ هذا فيهم حين يعتزلون الناس ويختلون بأنفسهم، ونلاحظه في عزف صغار الرعاة على الشبابات وكأنما يستلهمونها الألحان المعبرة لتؤنسهم في المراعي الفسيحة. ولا بأس أن تهيأ للأطفال فرص للارتجال من حين لآخر، فلعل ذلك أن يقوي ثقتهم واعتزازهم بأنفسهم ويخلق في بعضهم روح الابتكار، ويبث فيهم فضيلة الشجاعة الأدبية. ولا يعني ذلك في شيء أن نطالب الطفل بإنجاز عمل فني مكتمل تتناسق فيه الأنغام وفق أسلوب إنشائي تحليلي دقيق المعالم،

وإنما هي ألحان بسيطة بعيدة عن التصنع والتكلف، يرتجلها الأطفال دونما سابق إعداد أو تفكير، نهتم بجانبها التعبيري ولا نكاد نكترث بجانبها الشكلي.

فالابتكار إذن لعبة، تقود الطفل إلى أن يغني بحرية مثلما تقوده المحادثة إلى الكلام بحرية. وحتى تظل هذه اللعبة محببة إلى نفس الطفل، ينبغي أن تتوفر على عناصر التشويق، وأن يطبعها التسامح والتساهل في الالتزام بقواعد التلحين حتى لا ينقطع خيط الابتكار البدهي وفطرية الوحي والالهام، وأن يسودها جو من التفتح الحر والثقة المتبادلة بين الملقن والمتلقّي.

ومما لا ريب فيه أن الاستماع المستمر إلى الآثار الفنية الرائعة، والاستعانة بذوي الخبرة على تحليلها وتجلية جوانبها الفنية لما يساعد المتعلم الدارس للموسيقى على تهذيب ذوقه وشحذ قريحته وتنمية ملكته، فإذا هو أقدر على ابتكار الألحان وارتجالها، مثله في ذلك كمثل النبع الفياض الذي يتدفق ماء.

وعندما يمارس المؤلف المبدع الكتابة الموسيقية فهو يبدو وكأنه يأتي أمرا طبيعيا لا يختلف عن الأعمال العادية التي يأتيها. وهذا يعني أنه يجد نفسه مقبلا على التأليف كلما أحس في نفسه ميلا إليه، وليس بالضرورة كلما عقد العزم عليه. وذلك أن امتلاك الوسائل التقنية لتركيب الألحان وصوغها قلما ييسر وحده سبل التأليف الجيّد أمام الملحن ما لم يسعفه الوحي والالهام.

وهنا يكمن الفرق بين مؤلف محترف يجهد نفسه الأيّام الطويلة في صوغ الألحان وكتابتها، وبين مؤلف آخر يقبل على التأليف في بعض الأحيان بوحي من الميل إليه. ومن هنا أيضا ندرك الفرق بين أعمال تبرز فيها القدرة على استعراض الأساليب التقنية والتركيبات المعقدة، وبين أعمال أخرى تطبعها البساطة وتخلق المتعة والانشراح لدى المستمع.

وهنا يحضرنا قول الناقدة جيزيل بروليه «نستطيع أن نميز بين نمطين من المؤلفين الموسيقيين : أول النمطين هؤلاء الذين يبدعون تحت سلطان الاعتبارات الشكلية، وثانيهما أولئك الذين يخضعون لحاجتهم إلى التعبير. وعلى ذلك يمكن تحديد الابداع نفسيا أو شكليا».

كما يحضرنا قول الموسيقار ليست «ان المؤلف الموسيقي المندرج تحت النمط الموسيقى البحت والذي يعنى عناية خاصة بالتركيب الشكلي للمادة اللحنية، هذا المؤلف لا يملك القدرة على أن يضيف إلى الموسيقى أشكالا جديدة أو أن ينفخ فيها قوى جديدة».

ولقد ظل تشايكوفسكي زمنا غير يسير - وهو في طريق استكمال خبرته الثقافية في عالم التأليف - يسخر من الموسيقيين الذين لا يقبلون على الكتابة والتأليف إلا حين يواتيهم الالهام ويسعفهم الوحي : فكان يرى أن الموسيقي المؤلف بما يملكه من وسائل تقنية للكتابة الموسيقية في وسعه أن يعمل بصورة منتظمة، مثله كمثل الاسكاف على حد تعبيره.

ولئن كان تشايكوفسكي قد عاد فيما بعد ليدرك الخطأ الكامن في محاولة «لقاء الالهام في منتصف الطريق» وليدرك أيضا خطر أن يؤول الأمر بالفنان إلى أن يصبح مجرد آلة للتأليف، فكثيرا ما كان يقع تحت

سلطان العادة المتحكمة فيه، فيقبل على الكتابة والتـأليف، وذلـك مـا يعلل وقوعه في مزالق فنية لم يغفرها له النقاد، ومن هذه المزالق افتتـاحيـة ألفهـا احتفالا بذكرى افتتاح المعرض الفني والصناعي لموسكو، فقد وصفهـا النقـاد بأنها صاخبة جدا، غير أنها خالية من أي حماس ولا تحمل قيمة فنية.

والواقع أن المـؤلف عنـدمـا يـواجـه بـالسـؤال عن طـريقتـه في وضـع الألحان قلما يوفق إلى الإجابة بما يكون نهائيا وحـاسما، ذلـك أنـه لن يعـدو أن يضع بين أيـدي السـائلين بعض التوجيهـات والنصـائـح التي يمكنهم من خلال العمل بها الوصول إلى البناء الشكلي والهيكلي للحن الموسيقي. فليست إذن هناك طريقة معينة بالذات لتـأليف الألحـان الموسيقيـة، كما أنـه ليست هناك طريقة معينة لنظم الشعر، وإلا لجاز لنا أن نسأل فحول الشعراء عن طريقتهم في نظم الشعر وأن نســـأل بيتهـوفن ومـوزارت وشـوبرت عن طريقتهم في تأليف الألحـان الموسيقيـة، ثم نحـذو حـذو هؤلاء وأولئـك لنزج بأنفسنا في زمرة الشعراء والملحنين.

إن الإنتاج الفني الصحيح وليد المعانـاة النفسيـة والتجربـة الصـادقـة، وإن صلتـه بمجـالي الـذوق والخيـال لهي أشـد وثوقـا منهـا بمجـالات الفكر والمنطق والتأمل. وهو إلى ذلك مرتبط بمدى ما للفنان من قدرة وملكة في الصناعة الفنية، ودراية بأســاليب التـأليف، وحس إنســاني مرهف، وموهبـة خلاقة مبـدعـة. ثم هو بعـد ذلـك مرتبـط بمدى تعـامل الفنـان المبـدع مع المقتضيات المستحدثـة في دنيـا التـأليف وتوظيفـه للقيم الموسيقيـة التي تؤدي ضرورات التعبير إلى اكتشافها، وبالتالي مدى قدرته على إنجاز اكتشاف مـا في عالم الاحسـاسات اللحنية.

وهـذا هو مـا يفسر ظـاهرة تنـاول الموضوع الـواحـد من طرف عـدة فنـانين، دون أن تقـع أعمـالهم في عيـوب المحـاكاة أو التقليـد. يقـول شـافنير Schaffner في المجلـة السيكـولـوجيـة لسنـة 1926. ان فـاجنيروديبـوسي وسترافنسكي لم يكتبوا «تريستـان» و«بليـاس» و«طقوس الربيع» على التـوالي إلا حين أصبحت هناك تآلفات جديدة صالحة للسمع تمام الصلاحية.

وعنـدمـا نقف على أبي تمـام وهو يـذكر الأوقـات المفضلـة إليـه لنظم القريض، أو نقف على بتهوفن وهو يتحدث عن لحظات الالهام فـإن الـذي ينبغي أن نستلخصه لا يتجاوز تحـديـد الجو النفسي أو الإطـار الفني الـذي يغريها بالإنتاج.

سئل كلوك. وهو من مـوسيقيي القرن الثـامن عشر ـ عن طريقتـه في التلحين، فأجاب : إنني أبدأ بتخيل الصورة البنائية لتـأليفي، ثم انظر إليـه من خلال هذه الزاوية الخيالية وكأنـه أثر جـاهز قـائم الـذات، غير أن هـذه العملية التحضيرية تتطلب مني في العادة سنة كاملة من العمل الشاق الذي ينتهي بي في الغالب إلى فراش المرض.

تربية الإحساس السمعي :

ولقد تبين لنا مما سبق أن النظريـات الموسيقيـة والقراءة الصولفـائيـة ليست غـايـة لـذاتهـا، وإنمـا هي بعض من وسـائل تعلم الموسيقى. وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن أول ما يجب الاهتمام به في هـذا المضمار العمل على تنميـة الإحســاس السمعي لــدى المتعلم. أمـا التسرع في عرض النظريـات وتحليلهـا فكثيرا مـا كان سببـا في فشل عمليـة «تربيـة الأذن»، كما كان وراء عوامل نفور الناشئة من الأقسام الأولى بمعاهد التعليم الموسيقى.

يقول روبير شومان في رسالة وجهها إلى بعض تلامذته : «إن تربية الأذن لهي الغاية القصوى من تعلم الموسيقى، فعوّد نفسك منذ الصغر على التمييز بين النغمات والقرارات، واختبر الأصوات التي يحدثها النقر على الأجراس والقارورات... ان الشيء الأساسي لهو التوفر على أذن موسيقية ذواقة ولن يتأتى لك أن تصبح موسيقيا بإقبالك على الدراسات النظرية التقنية فحسب، بل باكتشافك عالم الموسيقى في جميع أشكاله وصوره».

ويقول هايدن : «كلما أحسست بجمال قطعة موسيقية كان معنى ذلك أنها تروق أذني وقلبي أكثر مما هي تستجيب لمقتضيات القواعد المدرسية الجافة».

ولعلنا نستخلص من هاتين المقولتين أن حاسة السمع تلعب دورا أساسيا في تحقيق الأغراض التي تتوخاها التربية الموسيقية، وأن الاهتمام بها أمر ضروري يفرض اتخاذ الوسائل الكفيلة بتنمية الإحساس السمعي لدى الأطفال.

ولن يتأتى ذلك إلا بواسطة الإكثار من فرص استماع الأطفال إلى الآثار الموسيقية الرائعة عن طريق الأشرطة المسجلة العزف الحي، وكذا تدريبهم على حسن الاصغاء، واثارة شوقهم إلى الغناء، على أن تكون النماذج الموسيقية المقترحة عليهم من النوع المعبر الحي والذي يناسب مستواهم ويساير نمو إدراكهم.

ولئن كان قد تهيأ لبعض الناس أن يخطوا الألحان على الأسطر بواسطة الرموز الموسيقية المتداولة، وأن يخضعوها بذلك لرؤية العين، فيجعلوا طريقها إلى القلب قرائية بصرية، فلقد كانت الموسيقى وما تزال

لدى أغلب الناس ألحانا مسموعة لا خطوطا مرئية، كما كانت الأذن وما فتئت طريقها إلى القلب والروح قبل غيرها من الطرق، فإن طريقة السمع أصل في الإنسان من سائر وسائل الوعي الأخرى، وإنها أقرب إليه تناولا، تأتيه عفوا دونما تكلف وتأتيه غريزة دون إجهاد فكر. ولقد أوتي كل أمرئ هذه الطاقة السمعية، إلا من حرمته الحكمة الإلهية نعيمها. ولكن الذي تختلف حظوظ الناس فيه هو مقدار ما يتفهمه كل امرىء ويتجاوب معه مما يسمع. وهذا أمر لا يرجع إلى السماع كحاسة مجردة، ولكنه يرجع إلى حظ الفرد من الثقافة الموسيقية، ومدى استعداده لاستيعاب ما تلتقطه أذناه والقدرة على تحليل ما تسجلانه. وتلك ملكات لا نغالي في القول إذا ذكرنا أن حظوظ الناس منها ضئيلة، اللهم إلا فئة قليلة ممن أسعفتهم الموهبة الوقادة والقريحة الخلاقة والعبقرية المبدعة. وما أقل أن يجود الدهر بهؤلاء.

ونحن عندما نتناول عملية الاستماع ذاتها بالتحليل فسنلاحظ أن الناس جميعا يمارسون الاستماع على ثلاثة مستويات اسماها بعض المهتمين بالأسماء التالية : المستوى الحسي، والمستوى التعبيري، والمستوى الموسيقي البحت.

وكما لمسنا ـ من قبل ـ الفرق بين درجات التغني لدى ثلاثة أطفال، تختلف مستويات اهتمامهم وانشغالهم بالغناء، ما بين غناء لا شعوري وآخر إرادي وثالث اضطراري، فإننا نلمس من جديد أن مستويات الاهتمام بالأثر المسموع هي بدورها تتفاوت بين الأنماط الثلاثة المطروحة للعرض فيما يأتي :

1 ـ **الاستماع الحسي** : تنحصر مقاصد الاستماع الحسي في مجرد حصول التمتع بالأصوات الموسيقية ذاتها. فالمستمعون في هذه الحالة يستسلمون

للاستماع دون إجهاد فكر في محاولة منهم للوقوف على وجوه التعبير الموسيقي أو استكناه مرامي المؤلف. ولكنهم يبدون منشغلين عن كل ذلك بانهماكهم في أداء عمل آخر. وتندرج تحت هذه الفئة مجموعة كبرى من المستمعين، وحتى ممن قد يعتبرون أنفسهم من ذوي الدراية بالموسيقى والشغف بها. وطبيعي أن هؤلاء المستمعين يسيئون استخدام المستوى الحسي للسماع حينما يغشون حفلات الموسيقى ودور العرض بدعوى أنهم يريدون نسيان أنفسهم، أو يطمحون في استعمال الموسيقى كوسيلة للتعزي عما يصادفهم في الحياة من مشاق أو يعترضهم من صدمات، أو أنهم يهربون عبرها من أعباء الأعمال المضنية. ومن ثم فأنت تراهم خلال حصة السماع منشغلين في أحاديث صاخبة، تتحول بهم أحيانا إلى مجادلات حادة، كما تتحول بهم أحيانا أخرى إلى ضرب العقود أو فك الالتزامات.

ولكن بعيدا عن هذه الأنماط من المستمعين، نجد جماعة من الناس، يستهويهم الاستماع الحسي فيحرك فيهم حساسية نحو بعض الجوانب التي تكشف عن درجة مرموقة من الوعي الموسيقي لديهم، وذلك مثل المادة الصوتية ذاتها، وكتباين أساليب استعمالها وطرق استخدامها بين مؤلف وآخر، وهم يهتدون نسبيا إلى معرفة أهم الخصائص الفنية التي تميز هذه الأساليب عن بعضها، كما يقفون إلى حد على طرق توظيف تلك الأساليب في التعبير الموسيقي، وذلك بهدف ربط تواصل أوثق مع الأثر الفني وتحقيق متعة نفسية أعمق من خلال سماعه، ومن ثم فهم يقيمون الدليل على أن الاستماع الحسي لا يخلو من وعي بالجمال الموسيقي وإن يكن هذا في مستوى أولي.

2 ـ **المستوى التعبيري :** يأتي المستوى الثاني الذي يقوم عليه الاستماع الموسيقي، وهو ما أسميناه سابقا بالمستوى التعبيري. ويراد بهذا المستوى محاولة تفسير اللغة الموسيقية واستجلاء المعاني التي تعبر عنها والحالات النفسية التي تصدر عنها.

وسوف نلاحظ منذ البداية أن الاستماع من هذا المستوى يستدعي توفر المستمع على مجموعة من القدرات والمزايا الفنية في مقدمتها حصيلة لا بأس بها من الثقافة الموسيقية، وقدرة بينة على تركيز الانتباه إلى الأثر المسموع، وخيال خصب قمين بالغوص في ثنايا الإنتاج الموسيقي والكشف عن وجوه جماله وتحليل مسار ألحانه.

وسوف نلاحظ بعد ذلك أن تضافر هذه القدرات لدى المستمع سينتهي به إلى توظيفها فيما يمكن أن نسميه بعملية التحليل الاستطيقي للإنتاج الموسيقي، وذلك من خلال الكلمات التي يوظفها فيما يستوحيه من تصورات ويستلهمه من معاني.

والواقع أن الموسيقيين يقفون إزاء هذا النوع من التحليل مواقف تطبعها السلبية غالبا. ذلك أن بعضهم يؤثر القول بأن الموسيقى لا تحمل أي معنى مجرد، بل يذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فيقولون : إن الموسيقى إطلاقا ليس لها من معنى إلا معناها الموسيقي البحت. وهم يريدون بذلك أن معنى الموسيقى «وهم أو هو كالوهم. وهو إن تكشف أمامك يوما فلن يتأتي لك التعبير عنه في كلمات محدودة». وإذن فمن العبث في نظر هؤلاء تجسيم الموسيقى فيما يذكرك بصوت القطار أو قصف الرعد، أو يوحي إليك باستعراض مواكب المهاجرين أو جحافل الجيوش

المنتصرة أو فلول الجيوش المهزومة. وإنما تلك تصورات صنعها الخيال، لا تمت إلى الواقع بصلة، وليس لها من أثر في الرفع أو النقص من قيمة العمل الفني ذاته.

وهم يرون بعد ذلك أن الموسيقى التي تحمل بكيفية دائمة شيئا واحدا لا يتغير، أو توحي بإحساس لا يتجدد، تنتهي بالمستمع إلى الملل في حين أن التي تتغير تركيباتها وتتجدد ألوانها تظل دائما حية، ولذلك فهم يفضلون موسيقى سانفونيات بتهوفن مثلا على لوحات تشايكوفسكي. والواقع الذي لا يسعنا إنكاره هو أنه لا سبيل إلى تبين المعنى المقصود في أية قطعة موسيقية بشكل نهائي حاسم يرتاح إليه كل الناس. ومع ذلك فمن باب الاقرار بالحق القول بأن للموسيقى قدرة خارقة على التعبير، وأن من وراء ألحانها معنى أو شعورا أو حالة نفسية، ثم القول بأن الكلمات غير قادرة على تحديد ذلك المعنى أو تشخيص هذا الشعور، وبأنها تزيد قصورا وعجزا كلما كانت الألحان الموسيقية مشرقة وجميلة. فإن أنت أسعفتك الكلمات مرة بوصف أو تفسير تطئمن إليه نفسك فلن يبلغ هذا الوصف من نفوس الآخرين ما بلغه منك، ذلك لأن اللحن الواحد قد يوحي بمشاعر متنوعة تختلف من شخص لآخر، كل حسب طبيعة انفعالاته وتبعا لصنف مزاجه، واعتبارا لظروفه.

3 ـ **المستوى الموسيقي البحت** : يدركنا الآن المستوى الثالث. ونعني به الاستماع الموسيقي البحت الذي يمثل قمة مستويات الاستماع، والذي قلما يدركه جمهور المستمعين. ويتجه الاستماع من هذا المستوى إلى استجلاء العناصر المكونة للبناء الموسيقي في عملية تحليلية تستهدف سبر

أغوار تلك العناصر ومعرفة طبيعة تركيبها وبنائها والوقوف على مواطن قوتها أو ضعفها، وطريقة المؤلف في توظيفها لخدمة فكرته.

وهكذا نجد المستمع من هذا المستوى منغمسا في تقصي قضايا ذات طبيعة تقنية بحت، مثل صنوف الإيقاعات التي استخدمها المؤلف، أو منهمكا في تقصي أسلوب التأليف العلمي لديه، أو مستعرضا التوافقات التركيبية التي التجأ إليها، أو متتبعا طريقته في هرمنة الألحان الموسيقية.

وطبيعي أن عملا من هذا القبيل لن يتأتى إلا لمن خبر القواعد الموسيقية وكان على دراية عميقة بقواعد وأساليب التأليف الموسيقى، كما كان على درجة لا بأس بها من الوعي بمواطن الجمال في التعبير الفني، وتوفر على حظ غير قليل من القدرة على التحليل والمقارنة.

أما المستمع العادي فإنه مهما بلغت درجة تركيزه عند الاستماع فلن يتجاوز حدود إسقاطات سطحية تقف عند وصف هامشي لعناصر البناء الموسيقى، فيرى مثلا أن هذا اللحن جميل أو غير جميل وينعت هذا الإيقاع بأنه باهت أو خافت، وذاك بأنه مثير أو حثيث، على حين يسلم في سهولة مفرطة بقضايا الهارموني والطابع الصوتي والقالب الفني وغير ذلك من الأمور التقنية التي قلما تخطر له على بال.

وعلى الرغم من هذا التقسيم لمستويات الاستماع، فإن الذي ينبغي إدراكه هو أن المستمع الواحد قلما يستقر لفترة طويلة من الزمن عند مستوى معين من مستويات الاستماع الثلاثة التي أتينا على ذكرها آنفا بل هو يتنقل عبرها في غير انتظام ودونما جهد عقلي يبذله : مثله كمثل الرجل

المقيم في شقة تتكون من مرافق متعددة تحمله الضرورة والعادة معا على أن ينتقل عبرها في غير انتظام كذلك.

وإذن، فالمستمع النموذجي هو ذلك المرء الذي تستهويه المادة الصوتية لذاتها، فتخلق لديه إحساسا بالمتعة والاطمئنان، أو يسمو به الاستماع إلى مستوى أعلى، فتولد فيه الألحان مشاعر الألم أو مشاعر الفرح، أو يرقى به الاستماع إلى مستوى التعامل مع المسائل التقنية التي استخدمها الموسيقي في تأليف عمله، وهذه هي مراتب الاستماع التي تتفاوت فيها درجات التفاعل مع الأثر الفني الواحد.

ونعود الآن لتناول اللغة الموسيقية من وجهة أخرى، ونعني بها وجهة العناصر التي يتألف منها الأثر الموسيقي وكذا المقومات الأساسية التي ينبني عليها، ليأخذ صورته الفنية الكاملة.

وبالفعل، فلقد حظي هذا الموضوع في مختلف العصور بعناية الفلاسفة والمنظرين، كما كان وما يزال المحور الرئيسي لأعمال النقاد الموسيقيين، الذين اتخذوا من هذه العناصر المقياس الأساسي لتقييم الإنتاج الموسيقي، وذهبوا في تحليلها مذاهب شتى، حتى ليوشك الدارس الذي يستعرض آراء هؤلاء بغية تلخيصها أو التوفيق بينها أن يتنكص عن هذا السبيل لما يعترضه من عقبات كأداء يولدها اختلاف الرأي وتشعب وجهات النظر.

فقد كان أفلاطون يرى أن الأثر الموسيقي يقوم على عناصر ثلاثة هي الكلمات واللحن والإيقاع، وكان بمقتضى هذا التحديد يربط الموسيقى بالأمر الشعري، بل إنه يكاد يسخر عنصري الإيقاع واللحن لخدمة الكلمة.

ومن ثم جاءت الكلمات في رأي أفلاطون في مقدمة المقوّمات التي تقوم عليها اللغة الموسيقية.

أما ابن خلدون فقد لخص النظريات السائدة على عهده في مقدمته لكتاب العبر فذكر أن عناصر اللغة الموسيقية ثلاثة أيضا «هي التناسب البسيط، والتناسب المركب، والتقدير بالعدد» فأما التناسب البسيط، فيكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه إلى تعلم ولا صناعة. وهو إذن اللحن المنفرد الذي تتعاقب عبره النغمات المنفردة في انتظام واتساق. «وأما التناسب المركب فليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم، وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى». وواضح من كلام ابن خلدون عن التناسب المركب أنه يعني الهارموني أو أسلوب ائتلاف مجموعة من الألحان في جملة موسيقية واحدة أو ما نسميه البوليفونية. وأما التقدير بالعدد فهو عند ابن خلدون ما يدل على الإيقاع. وشبيه بقوله فيه قول فانسان داندى (1850 ـ 1931) في كتابه «دروس في التأليف الموسيقي» : الإيقاع يعبر عنه بالأعداد، وهو يتصل بعلم الارتماطيقي.

واننا لنلاحظ أن عناصر اللغة الموسيقية عرفت نوعا من التحول مع ابن خلدون، فهو أولا ـ عدل بالمرة عن ذكر الكلمات كعنصر أساسي من عناصر الموسيقى، وبذلك خالف وجهة نظر أفلاطون، وهو ثانيا أضاف عنصرا جديدا وهو الأنغام المركبة أو ما عنى به أسلوب تركيب الألحان في صورته البوليفونية المبسطة. ولئن كان ابن خلدون يعترف في عبارة تنم عن أمانة المؤرخ الصادق بأن الناس لا يستوون جميعا في معرفة التناسب المركب، كما لا توافق سائر الطباع أصحابها في العمل بمقتضاه إذا هي توفر

لديها العلم به، فإن حديثه عنه وادراجه ضمن العناصر المكونة للأثر الموسيقي لما يكشف بوضوح عن حقيقة علمية راسخة، وهي أن العرب اهتدوا إلى الكونتربوان والهارموني وتناولوا تحليلهما من الوجهة النظرية البحت، غير أن أذواق العامة فيما يبدو لم تكن لتستسيغ الألحان في صورتها المركبة كما لم تكن لتفضلها على سماع الألحان المنفردة.

وفيما كان جان جاك روسو (1712 ـ 1776) يحصر عناصر الموسيقى في اللحن والهارمونيه والحركة، مؤكدا بذلك ما استعرضه ابن خلدون من قبل، نجد هكتوربرليوز (1803 ـ 1869) يذكر هذه العناصر ذاتها ويضيف إليها عناصر أخرى يعتقد أنها ضرورية لبناء أي عمل موسيقي. هذه العناصر هي : التعبير، وتحوير المقامات، والتوزيع الآلي ومراكز انطلاق النغم، ودرجة شدة الأنغام وثروتها، وقد حملت هذه الإضافات فانسان داندي على القول من بعد : إن العناصر الموسيقية الثلاثة ـ أي اللحن والهارموني والإيقاع ـ لا تستطيع وحدها إدراك التأثير الفني والتعبيري ما لم يتوفر الأثر الموسيقي على عنصر الحركة.

وسيظل الحديث عن عناصر اللغة الموسيقية أمرا قائما باستمرار، كما ستزيد الكشوفات المستحدثة في مجالات أساليب التأليف في إغناء وإثراء هذا الموضوع، بل ان المفاهيم الموسيقية ذاتها ستعرف تحولا كبيرا وخطيرا، ليصبح الحديث عن الموسيقى مدعاة إلى الحديث عن تلك العقول الالكترونية التي تقوم مقام المؤلف بدور التأليف الموسيقي، بمجرد أن تزود بمعطيات نوعية خاصة، ولتصبح الرسوم والأشكال السمترية قائمة مقام الرموز الموسيقية وأشكالها وعلامات التحويل وغير ذلك من المفاهيم التي لا تزال المعاهد الموسيقية وحتى في أكثر دول العالم تقدما متمسكة بتلقينها.

وما من شك في أن البحث في عناصر اللغة الموسيقية يفضي بنا إلى النظر في الطريقة التي تودي بها هذه اللغة. ونقصد بذلك عنصرا جديدا هو الأداء، أي أداء الأثر الموسيقي سواء كان قطعة مغناة أو كان معزوفة آلية. وهو عنصر يفرض شخصا وسيطا تظل بدونه الألحان الموسيقية بكماء خرساء لا تملك سبيل انتقالها إلى الآذان. مثلها كمثل تصميم هندسي خط على الورق ولم يأخذ بعد طريقه إلى الإنجاز.

فالأداء إذن عنصر ضروري لبلورة العمل الموسيقي، ويمكن اعتباره بمثابة القالب الذي يعرض فيه ذلك العمل، عن طريق الصوت البشري أو بواسطة الآلة الموسيقية. ومن ثم فهو لا يقل أهمية عن الكلمات التي يضطلع بنظمها واضع الأغنية، ولا عن الألحان والإيقاعات التي يصب فيها الملحن تلك الكلمات. بل ان الأداء يتحكم في درجة نجاح الأثر المسموع ويحدّد مدى تأثيره في السامعين، فكم من عمل عبقري مسخ ملامح جماله أداء مستهجن بارد، وكم من عمل ساذج أضفى عليه الأداء الحي والجميل ملامح الروعة والجلال. ولذلك فنحن لا نعجب إذ نقف على أكثر من تسجيل للعمل الموسيقي الواحد، كما لا نعجب حينما نرى حرص زبناء الأسطوانات على اختيار ما سجلته أجود الاركسترات وأوسعها شهرة وأطوعها لقضيب مايسترو حنكته الخبرة الطويلة الأمد. كما لا نعجب بعد هذا وذاك لكثير من المستمعين إذ تسألهم عن مؤلف وملحن مقطوعة موسيقية واسعة الشهرة، فإذا هم ينسبونها لمغنيها. فهذه الأطلال لأم كلثوم، وهذه قارئة الفنجان لعبد الحليم حافظ، وهلم جرا.

وإذ يتحكم الأداء في درجة نجاح الأثر الموسيقي ومدى تأثيره في المستمعين، فإن من اللائق أن يتم على الوجه الأفضل حتى يكون كالمرآة

الصافية التي تنعكس عليها مقاصد الفنان الملحن. فالألحان التي يريد بها الملحن التعبير عن جمال الطبيعة تستدعي أداء لينا متواصلا يتسلسل فيه اللحن بيسر وينساب برفق كما تنساب المياه برفق من بين الحجارة، ويمتد خلاله النفس ليعبر عن اغتباط النفس وانشراحها بروعة الطبيعة. والألحان الحماسية التي تخاطب همم الناس وتهيب بهم إلى العمل والنشاط تستدعي أداء مرحا يعبر عن خفة الروح وعن استعدادها للعمل ويبعث الحيوية في المستمعين. وهكذا تتبلور طرق الأداء وتتنوع أساليبه بتنوع المواقف والظروف.

ولما للإيقاع من أهمية قصوى في بناء العمل الموسيقي، إذ بدونه تظل الموسيقى مجموعة غامضة لنغمات التقطت عفوا وعلى غير نسق معين - على حد تعبير روسو فسوف أخصه فيما يلي بمزيد من الشرح دون غيره من عناصر اللغة الموسيقية.

إن الإيقاع عنصر أساسي في الموسيقى، فهو يضبط حركاتها ويسكب فيها الحياة، ولولاه لظلت الألحان هيكلا لا روح فيه، ولكان الفن الموسيقي مبعثا للملل والضجر.

عرفه برليوز فقال : إنه تقسيم متساو للأزمنة بواسطة النغمات. وتحدث عنه روسو فقال : هو بالنسبة للألحان كالإعراب بالنسبة للحديث، وهو الذي يضمن سياق النغمات ويميز بين الجمل.

ولعل مما يؤكد أهمية الإيقاع في الموسيقى أنه يربطها بعلم الرياضيات وبذلك فهو يسمو بها إلى مصاف العلوم العقلية.

وليس الإيقاع بدعة أحدثها الموسيقيون، ولكنه ظاهرة طبيعية تعددت مظاهرها في الحياة، وتجلت في كثير من حركات الإنسان والحيوان والنبات. فالرياح التي تعصف تحدث صوتا موقعا، وخرير الماء وحفيف الشجر، وهدير البحار، كل ذلك أصوات موقعة تشهد بأصالة الإيقاع في الطبيعة. وحركات النجوم وتوالي الفصول وتعاقب الليل والنهار كأنما توقع على وتر الزمان حركات رتيبة الوزن. أما الكائن الحي فكل شيء فيه إيقاع من تنفس وخفقان قلب ونبض عرق وحركة لسان. فالإيقاع أساس لحياة أجسامنا، نعيش مادام خافقا متحركا، فإن هو توقف يوما كان ذلك إيذانا بالفناء.

ويجمع الباحثون على أن الإيقاع كان أسبق عناصر اللغة الموسيقية إلى الوجود، وأنه كان في طليعة ما اهتدى الإنسان البدائي إلى استعماله كوسيلة من وسائل التعبير : تعقب خطوات البهائم، فوجدها ثنائية أو رباعية عند سيرها الوئيد أو المعتدل. ثلاثية عند جريها السريع، واصغى إلى دقات قلبه فألفاها منتظمة آنا مضطربة آنا آخر.

ومن جهة أخرى لعب الإيقاع دورا حاسما في تطور الموسيقى الآلية، إذ بفضله تحررت الموسيقى من سيطرة الكلمة، وأصبح لها بناؤها الإيقاعي المستقل الذي ساعد على خلق إنتاج موسيقي خصب يخضع لقوالب معينة ويسمح بتعدد الأصوات وتلاحم الأنغام. وهو بحكم طبيعته النظامية وسماته الرياضية خلق الميزان الموسيقي وبذلك قسم الألحان وأفرغها في قوالب معينة.

والإيقاع بعد ذلك ينفرد من بين عناصر اللغة الموسيقية بكونه شائع الاستعمال في سائر الفنون من رقص ورسم وشعر ونحت، كما يمكن وضعه على رأس العوامل المساعدة على خلق التذوق الفني وتقوية الإحساس بالتجاوب بين الفنون بما فيها الفنون الأدبية : فإن القصيدة الشعرية بمقاطعها وتفعيلاتها وقوافيها تساعد بصورة حية على تحقيق التفاعل المنشود مع المستمع. وليست هذه الظواهر إلا مظاهر مشكلة من مظاهر الإيقاع الحي.

وعلى الرغم مما قيل ويقال عن عناصر اللغة الموسيقية، فإنها في واقعها تظل عناصر متكاملة، يكمل بعضها بعضا، ولا يمكن النظر إليها منفصلة إلا من زاوية نقدية أو بدافع من الرغبة في تقييمها وتحليلها. ومثل هذه العناصر في تكاملها وتآلفها كمثل اللوحة المرسومة التي تتضافر فيها الفكرة والألوان والخطوط والظلال لتخلق منها وحدة فنية متكاملة.

وكما بدأنا هذا الموضوع بالحديث عن علاقة الطفل بالموسيقى نجد أنفسنا مقبلين على انهائه بالعودة إلى نفس ما بدأنا به لنؤكد مرة أخرى وثوق الصلة التي بينهما، وفي هذه المرة من خلال ظاهرة طبيعية بارزة فيهما معا، هي ظاهرة الحركة.

فالحركة من أبرز خصائص الموسيقى، إذ كل شيء فيها يتحرك : الأنغام تنتقل على المدارج صاعدة آنا ونازلة آنا، والإيقاعات تتوثب متباطئة حينا ومتسارعة حينا، والأصوات بدورها تظل في تنقل ما بين عنف الأداء وليونته، والآلات نفسها أدوات متحركة تحت أصابع اليد وخيوط الأقواس.

وإذا كانت الحركة قرينة بالموسيقى، فكيف لا تكون قرينة بالطفل وهو هذا الكائن الحي، سباق إلى الألعاب، ميال بطبعه إلى ترجمة أحاسيسه بكل ما أوتي من حركات هي أفصح أحيانا من سحر البيان، وكأنما يعبر من خلال تلك الحركات وهذه الألعاب عن وجوده ويبرهن على حيويته.

فالطفل والموسيقى إذن توأمان تؤاخي بينهما الحركة، ومن مظاهر هذه الوحدة الحركية ما نلحظه من تحريك الطفل ليديه وسائر عضلات جسمه كلما انغمر بصوته في الغناء، فهو إذا رفعه عاليا رفع معه يديه إلى الفضاء، وقد يستقيم واقفا على قدميه، بل على رؤوس أصابعه، وكأنما يحسب أن حدة الصوت تستلزم رفع الجسم إلى الفضاء الأعلى. ثم هو إذا انخفض بصوته إلى درجات الغلظة تدلت إلى الأسفل ذقنه ويداه، وحدقت في سطح الأرض عيناه، فإن خفض من صوته وكبح قوته ضم إلى صدره راحتيه، وكأنما يعبر عن تضاؤل الصوت وخفوته، حتى إذا أطلق عنانه ليرتفع ويقوى انفتحت الراحتان وانكشفتا عن صدر واسع رحب.

مكناس **عبد العزيز بن عبد الجليل**

أنواع الأدب الشعبي بالمغرب
-2-

مالكة العاصمي

الغناء :

قد تعرف كل مدينة على حدة بنوع خاص من أنواع الفنون أو الغناء تتميز به. ولا تعرف غيره، عدا ما تقلد بـه مـدنـا أخرى بحكم سهولـة تنـاقل الفنون بين الجهات المختلفة داخل الوطن أو خارجه.

ولكن مدنا أخرى قد تعرف تنوعـا في تراثهـا المحلي وغنى يجعل أشكالا من الغناء والإبداع الفني تفرض نفسها في حياة المجتمع في أوجه من نشاطه.

والمـدن التي لعبت دورا هـامـا في تـاريخ البلاد، عرفت وفـادات من أقاليم أخرى. ومن اصقاع أخرى أمدتها بنماذج كثيرة من ثرات هذه الأقـاليم، يستقر ويزدهر ويأخذ ملامح جديدة في بيئته الجديدة.

مراكش مثلا شكلت عاصمة الخلافة الإسلامية الواسعـة خلال فترة غير قصيرة. بذلـك وفـد من إقليم الأنـدلس إلى عـاصمـة الامبراطوريـة المرابطيـة والموحدية النموذج الأندلسي. كما وفد إليهـا من افريقيـا على عصر السعـديين

النموذج الإفريقي / ووفد إليها من أقاليم المغرب النموذج الهواري من أقاليم السوس وفنون الرواس - والعيطة من الساحل - والعروبي من الأحواز / وإنشادات الصحراء.

ثم بحكم نشاطها كعاصمة امبراطورية عظيمة، وبحكم تنوع عناصرها فقد انتجت داخليا أشكالا فنية أخرى. أنتجت أنواعا من الزجل تغنيه الشيخات، وأنواعا أخرى يغنيها الأشياخ / وابتدعت أهازيج الدقة / وأغاني وإيقاعات متجاوبة ومتوازنة / وابتدعت أنواعا من الأغاني الدينية / ولتنوع الطوائف الدينية فيها فقد ابتدعت كل طائفة لنفسها نموذجا غنائيا خاصا، منها ما تغنيه النساء / ومنها ما يغنى للرجال / أو في حلقات الذكر وما أشبهها.

هذا زيادة على ما ابتدعه المجتمع لإمتاع نفسه في أفراحه ومسراته ومجالسه ونزهاته، وخلال أوقات عمله، وما ابتدعه لتعزية نفسه ومواساتها عند المام المكاره.

الأغنية الشعبية تحكي قصة شعب تشكل في التاريخ عبر زمن غير قصير، وتقلب في أحداث. حقق انتصارات، وخضع لهزائم، وعانى صراعات. صراعات داخلية مع الإقطاع والرأسمال ومع العناصر الفوضوية وصراعات خارجية مع الأجناس والاتجاهات والإيديولوجيات الوافدة.

وهي في أحيان أخرى تحكي تفاعل الإنسان مع الطبيعة، وانشغاله معها، واندماجه فيها. تحلم بنجوم السماء، وأحلام الفجر في الليالي الصائفة، وتهلل لسقوط المطر، وامتلاء الأنهار والغدران. وتغني لقدوم الربيع،

برعرع النبت والـزرع، وتبرعم الثمار. كما تشكو إنحباس المطر، وحلول الجفاف، وتشكو الأيام القائضة ومواسم الجليد.

وفي تاريخ الأمة يوجد قواد وأبطال وحكماء وعلماء، تمجدهم الأمة والقبيلة لما لعبوه من دور في تاريخها وحياتها، فتغني لهم وتجتمع إليهم، وتقيم لهم المواسم أحياء وأمواتا، وتنتج لهم أدبا شعريا ونثريا.

هذا طبعا عدا ما تعبر عنه الأغنية الشعبية من عواطف مشاعر إنسانية فردية مما يتفاعل بين الناس من حب وتعلق ولقاء. أو هجران وتباعد وحرمان. ومن كرم وهجاء ونفور. ومن تقدير واحترام. أو من اعتراف بالجميل وإشادة. أو ما سوى ذلك.

المشكل أننا لم نعد قادرين في الوقت الحاضر على استيضاح خلفيات هذا التراث، وظروف نشأته. وما يعبر عنه من أقاصيص، وأحداث ومواقف. خاصة وأنه تراث غاص بالحركة التي تكمل اللغة وتعبر عما لا تعبر عنه اللغة، وغاص بالألحان التي تحمل مدلولات الحب والكره، والحرب والسلم، والفرح والحزن، والألم والمسرة. كثير من النماذج الأدبية في بعض الأقاليم لا تزيد فيها القصيدة عن البيت الواحد، أو البيتين تتردد بهم وألم فائقين، وتتبعها أنواع من التعبير الجسماني بالرقص، والانتفاض، والصراخ، وكل ما يمكن أن يعبر عن الألم والثورة.

ونماذج أخرى تعبر عن موقف عكسي بالفرح والزغاريد الجماعية والتهليل وأشكال من الحركات الإيقاعية والبهلوانية والتقافز، وتغير الألحان، وتبادل التصفيق، مما يعبر عن قصة فرح جماعي، أو حدث هام خلق تعبيرا جماعيا بالفرح والنصر.

هناك أنواع من المواويل والبكائيات يتجاوب فيها أعضاء الفريق، ويتشاكون فيا بينهم مما وجدوه من عناء، ونزل بهم من ضيم، وينقلك اللحن والصوت إلى جو من الحزن ثقيل ممض.

وأحيانا يجتمع الناس في حلقات ويتراجعون الأصوات والأنغام الحزينة في نوع من التباكي الجماعي قبل أن يقرروا القيام برد فعل إيجابي والنهوض للتعاون على تنفيذ القرار.

ونجد أنواعا أخرى من الغناء تعتمد على الإشارات والإيماءات الخفية بدل الحركات الواضحة، بحيث تتحرك العين والأصبع واليد والرأس وتتناقل إشارات وإيماءات ورموزا خفية لا يدرك العدو مقاصدها، كمصطلحات قومية، أو كرموز منتقلة من الثرات الإنساني، كحركة الأصابع فوق الرأس، أو أمام الجبهة، أو أمام الوجه، أو حركة الرأس نفسها، مما يمكن أن تلتقي فيه مع الثرات البابلي أو الأشوري أو الفرعوني.

والذي يزيد في غموض خلفيات الأدب الشعبي، أنه أدب غير مباشر في تناول موضوعاته، بل هو أدب رمزي، يجعل اللغة تحيلك على الموضوع كما يحيلك اللحن، وتحيلك الحركة.

والسبب في ذلك أن المجتمع يجرد الحدث من صبغته الفردية الجزئية ويدخله في إطاره الفكري العام، كحدث له جذور وأسباب ومسببات وأن علاجه مرتبط بالموقف العام من القضية، وتصحيح مسارها. وهي قضية مبدئية عادة، ليس ما يحدث في المجتمع من ظواهر ومشاكل إلا خلفيات لها. وإذا نظرنا في ديوان سيدي عبد الرحمان المجذوب مثلا أو أخذنا نماذج من الشعر البربري أو الشعر الصحراوي أو الحوزي أو سواه لكشفنا هذا المظهر

الرمزي الغالب على الأدب الشعبي، والذي يساهم عبر الزمن في طمس الأصل التاريخي لهذا الأدب، ويخفي ما يحمله في تناياه من قصص وحكايات وأساطير وأحداث.

☆ ☆ ☆

واحتاج بالمناسبة أن أثير موضوعا طالما تناولناه ضمن ما نطمح إلى تصحيحه من أخطاء في مسيرة شعبنا الجديدة، هو موضوع مهرجان الفولكلور، الذي يقام سنويا في مراكش، بهدف كشف ثراتنا الغنائي خاصة، وحفظه، والتعريف به.

ولا بأس كذلك في إطار وضع الأمور في نصابها وتصحيح المواقف التي قد تكون منحرفة أن نعترف بأن مهرجانا كهذا تشرف عليه وزارة السياحة، بسبب طبيعة الدور المنوط بهذه الوزارة وهو دور التعريف، والفرجة، وعرض النموذج وتقديمه.

غير أن هذا النموذج قبل أن يعرض للفرجة أو للتعريف به، وتقديمه، يجب أن يخضع لأنواع من التهييء، والتحضير، والدراسة، والبحث، والمعالجة، والتصحيح، وهو ما يجب أن يقع في تهييء مهرجان الفولكلور السنوي، أو هو ما يجب أن يقع يوميا فيما ينمو من عناصر الفولكلور، وما يكاد يتلاشى من مظاهر ثقافة شعبنا وثراته الزاخر. وهذا أمر ليس من اختصاص وزارة السياحة، ولكنه عمل ثقافي صرف، ويجب أن يسند إلى الجهة المهيأة بحكم طبيعتها لتناوله، والإشراف عليه، بالتعاون مع الهيئات الشعبية، في كل

إقليم على حدة، لما لها من قدرة على استكناه التراث في إطاره البيئي والاجتماعي، والحضاري. واستحصار الأشكال والانماط التي اختفت مع الزمن أو تلاشت، أو تغيرت معالمها، وتكميل الصورة ورسم إطارها العام.

طرب الآلة

من الضروري الاجابة أولا عن سؤال بشان شعبية هذا اللون من الطرب أو عدم شعبيته، وقد تناولنا في نطاق بحثنا في مفاهيم الأدب الشعبي مدلولات هذا الأدب.

طرب الآلة لغويا هو أدب عربي في أغلب أشعاره، لكنه لم يأت على نمط الشعر العربي المعروف، بل ابتدع لنفسه نهجا خاصا في الأدب سمي الموشح، فهو إذن لا يشبه الأدب الشعبي في لغته العامية، بل أن لغته فصيحة في الغالب، وهي لغة النخبة المثقفة.

وطرب الآلة يستلزم إطارا يتميز بنوع من الفخامة من جهة والوقار من جهة ثانية، لذلك فهو يعزف ويغنى في الحفلات الرسمية، في بلاطات الملوك والأمراء، ورجال الدولة، وأعيان البلاد، ولا يغادر إطاره الرسمي إلا في القليل، ويروى أن المرحوم البريهي عندما دعى للغناء في الإذاعة أول تأسيسها رفض ذلك، لأن المذياع يغني في دكان الخراز والشكايري وهذا امتهان له ولفنه.

وموسيقى الآلة لم تنقل شفاهة، ولكنها ضبطت ووقع التاريخ لها وتدوينها ونشرها في الأندلس والمغرب خلال فترات متقدمة.

كما أن مؤلفي أشعارها، وواضعي طبوعها معروفون في الغالب كشعراء أو فنانين نسبت إليهم إنتاجاتهم.

هذه العناصر تبعد موسيقى الآلة عن أن تكون موسيقى شعبية لا على مستوى اللغة، ولا على المستوى الطبقي للفئة التي تتداولها وتنتج لها. ولا على المستوى التاريخي.

مع ذلك فموسيقى الآلة امتزجت بوجدان الشعب، وتناقلها في تراثه المحلي، المتميز عن باقي تراث العالم العربي، فأحرى باقي العالم، وقد ازدهرت أيما ازدهار في عدد من المدن المغربية، وتعاطتها فئات الشعب وأحبتها.

ومن هذه الوجهة فقط سنعتبرها بتجاوز كبير ضمن إطار الأدب الشعبي وإن كانت في حقيقتها أدبا رسميا نخبويا.

إذا كان الشعب قد تبناها واستقرت في تراثه الأدبي والفني، فلماذا لا ننسبها له ولماذا ننسبها إلى الأندلس.

الموسيقى «الأندلسية» كما يسميها المصطلح العربي يسميها المجتمع المغربي طرب الآلة أو موسيقى الآلة، ولعل في مثل هذه التسمية ما يوحي بعدم موافقة المجتمع على هذا التمييز أو هذه النسبة.

كانت الأندلس والمغرب تتناقل تراثا فنيا وموسيقيا موحدا، لأن الطريق إلى الأندلس كان يمر عبر المغرب بحيث قام المغرب بدور الوسيط في نقل الحضارة واللغة، والفكر العربي إلى الأندلس.

غير أن مؤرخين آخرين يؤكدون أن الموسيقى الأندلسية هي إبداع فرد معين في بيئة معينة، ومنها انتشرت إلى باقي البلاد. فهي إنتاج زرياب

أحد تلامذة إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وقد هجر من بغداد على إثر اعجاب الرشيد به مما أثار غيرة أستاذه فطلب منه أن يغادر البلاد. فجاء واستقر في الأندلس، وابدع نوبات خاصة، وأسس مدرسة، وتناقل أبناؤه وتلامذته هذه النوبات، وهذا النمط الموسيقى، فذاع في الأندلس وصار فنها الخاص وطابعها.

أما انتقال هذه الموسيقى إلى المغرب فجاء في ركاب الوافدين من الأندلس بعد الهجرة الجماعية خلال مراحل الصراع المؤذنة بسقوط الدولة وخاصة ابتداء من العصر المريني في أوائل القرن السابع. ويقول الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل في كتابه مدخل إلى تاريخ الموسيقى العربية أنه «هاجرت إلى العودة المغربية جموع غفيرة من مسلمي بلنسية، وكانت مدن المغرب وبخاصة فاس الوجهة الأولى لهؤلاء المهاجرين فنشأ عن ذلك أن تلقى المغرب أسلوب التأليف البلنسي».

ويظهر لي أن الالتزام بمثل هذا الرأي هو قراءة للتاريخ من نهايته. لأن الهجرة بين الأندلس والمغرب ظلت متبادلة منذ فتح الأندلس سنة 91 هـ وأن الموسيقى المغربية انتقلت إلى الأندلس كما انتقلت الموسيقى الأندلسية إلى المغرب منذ أيام الفتح الأولى وقد أعجب المغاربة بشبه الجزيرة الإيبرية فرحلوا إليها وتنقلوا في مرابعها وتغنوا بفنونهم وموسيقاهم خلال هذه الرحلات بل لقد ألحق شمال المغرب بالحكم الأموي في الأندلس زمن عبد الرحمان الناصر في القرن الرابع ولو لفترة وجيزة. وأن طريق الأندلسيين إلى الشرق وفكره وحضارته وثقافته، وإلى مكة مركزه الديني، أو مصر وبغداد ودمشق مراكزه السياسية، كانت تمر عبر المغرب. وشكل العنصر البربري نسبة مهمة من سكان الأندلس، كما أن جزءا من ثقافة

المغرب وفنونه وعلومه وحضارته انتقلت إلى الأندلس عن طريق مدينة سبتة التي لعبت دورا هاما في علاقة المغرب بالأندلس وفي تاريخ المغرب الحضاري مما يفسر ماهية اللون الذي نجازف ونطلق عليه اللون الأندلسي وتنبه إلى أصوله الشرقية والاسبانية وتنسى أصوله البربرية.

وبالمقابل فلقد اتصل المغرب بالتراث الأندلسي منذ أيام الفتح الأولى وظلت الأندلس تمد المغرب بعناصر من تراثها وأتوقع أن تكون موسيقى زرياب ونوباته ومدرسته قد انتقلت إلى المغرب في فتراتها الأولى ضمن حركة المبادلة بين العدوتين. ولقد بدأت الهجرة المضادة من الأندلس إلى المغرب على الأقل بعد استيلاء أمويي الأندلس على ثغور المغرب الشمالي أو على الأقل بعد قيام الامبراطورية المرابطية الكبرى في العقد الثامن من القرن الخامس 479 هـ. وأن هذه الموسيقى جاءت مع الوافدين من الأندلس بعد الهجرة الفردية إلى عاصمة الدولة زمن المرابطين والموحدين وبعد الهجرة الجماعية اثر سقوط الأندلس وأن هذه الموسيقى استقرت في المدن التي استقرت فيها أفواج الأندسيين أو في المدن التي عبروا منها في طريقهم إلى العاصمة مراكش. وهو بالفعل ما يبرر وقوف هذه الموسيقى في حدود المدينة من الجنوب لكونها كانت هدف الرحلة ومنتهاها كعاصمة للدولة قبل سقوط الأندلس وبعدها. بل أن المغاربة أنفسهم نقلوا ألوانا من هذه الموسيقى خلال رحلاتهم وجولاتهم في الأندلس.

بذلك سيكون من باب التمحل اعتبار هذا اللون من الموسيقى لونا أندلسيا وسلخة عن أرضه وبيئته المغربية، خاصة وأنه ليس فيما ترسب لدى المجتمع من معارف ما يثبت صحة هذا الانتماء، وأن الواقع التاريخي لا يبرره ولا يستسيغه، بل يؤكد وجود كيان وهوية مغربية قبل فتح المغرب،

وبعده، قبل فتح الأندلس وبعده، وأن هذا الكيان تشكل خلال التاريخ واندمج وتطور ونما، ولكنه لم يمت أبدا ولم يسلم لحضارة وافده أن تستوطن على حساب وجوده وهويته، مما يؤكد أن موقفا كهذا يجانب منطق التاريخ الحضاري والتاريخ الاجتماعي للشعوب في علاقاتها التاريخية الحضارية.

ومنطق التاريخ يفرض علينا اعتبار الانماط الموسيقية الأولى التي شاعت في الأندلس وفي المغرب ذات أصول موحدة وتاريخ مشترك ومسيرة مشتركة مع اعتبار نوع من الاختلاف لا يزيد عن الاختلافات التي تقوم عادة بين ثرات الأقاليم المتباعدة أو المتجاورة بفعل الرواسب البشرية والفكرية والحضارية، وبفعل مكونات البيئة الجغرافية علما بأن القرن العاشر لم يكن فترة تبادل فكرا وحضارة، ولكنه كان فترة تقوقع الحكم المغربي داخل أراضيه وضعفه عن حمايتها، وحماية وجوده وتخبط دولة بني الأحمر، وملوك الطوائف بالأندلس، واجترار المجتمع الأندلسي لهزائمه، مما شكل اللون الغرناطي المتميز.

مراكش — مالكة العاصمي

وَصِفُ القُدُس

في القرن الخامس الهجري

من رحلة: خسرو قبادياني

تقديم وترجمة:
المرحوم د. عبد اللطيف السعداني

الحديث عن القدس، هو حديث عن جراح دامية في عقيدة ملتهبة... وكل حديث اليوم عن هذه البقعة المقدسة من أرض الله هو تعبير عن الحقيقة الصارخة في أذهان أهل التوحيد بما لحق هذا المكان وأهله من ظلم، وما عمل فيه الإنسان الظلوم الجهول من زيف وتزوير... وشهادة لأولئك الذين حملوا عقيدة التوحيد بصدق وأمانة، ودافعوا عنها مجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله، أولئك هم المسلمون. وهم، هم اليوم الذين ينهضون لنجدة القدس من مشرق بلادهم إلى مغربها... وفي هذا المغرب تركزت جهود المسلمين في «لجنة القدس» التي يرعاها ويرأسها جلالة الملك الحسن الثاني فبارك الله لهم ووفق...

ـ كانت الروح المهينة على مدينة القدس روح الاطمئنـان والسكينـة تأخذ بقلوب الزائرين لها وتخط في ذكرياتهم صورا دقيقة كاملة لمعالمها. فلا تمحي رغم مرور الأيام والأعوام، كأنما تحتفظ هذه المدينـة الوديعـة في هـذه الذكريات الأمينة، بطابعها الديني الإسلامي فيا عسى أن يلحقـه من تغيير أو تشويـه أو محو لآثـار الشخصيـة الإسلاميـة. وقـد حـدث ذلـك ويحـدث اليوم...

ـ كذلك وجـدتني بعـد مرور ستـة عشر عـامـا على زيـارتي للقـدس الشريف، وكأنها بالأمس القريب، والمغاربة في طريق حجهم «يقدسون» بل و«يخللون» بدءا أو ختاما فيرون في ذلك أن عمل الصالحات قد تم لهم...

ـ وكذلك وجدت الرحالة الفارسية أبا معين حميـد الـدين نـاصر بن خسرو القبادياني المروزي (394 ـ 481 هـ) وهو يقف بـالقـدس في طريقـه للحج يوم الخميس خامس رمضان سنة 438 هـ. فيطيل وصف هذه المدينـة كما كانت في القرن الخامس الهجري في رحلته المفيدة البديعة الأسلوب المسماة ب : «سفسرناسه» رحلة.

ـ ولئن قامت الصهيونية بمحاولـة محو الآثـار، فعبثـا تحـاول... وهـذا النص الذي أنقله عن الفارسية وأوضعه بين يدي القارئ «القدس» دليل على ذلك : وإني لأرجو أن ينفع الله به كما كان قصد كاتبه، وكما هو القصد عنـد مترجمه غيرة على العقيدة الإسلامية السمحاء. وذكرى للوفـاء لمكرمـة أحملهـا في نفسي لعمدة القدس المنضال المجاهد الأخ روحي الخطيب.

في الثالث من رمضان غادرنا «الرملة» فوصلنا قريـة تسمى «خـاتون» ومن هناك قصدنا قرية أخرى يقـال لهـا «قريـة العنب» وقـد شـاهـدنـا في

الطريق الفيجين الغابوي كثيرا قد نبت فوق الجبال وفي البرايا، ورأينا في هذه القرية عينا طيبة تتفجرّ من الحجر. وهناك بنيت اصطبلات وأنشئت العمارة.

- ذهبنا صعدا من هناك، وقد خيّل إلينا أننا نتسلّق الجبل حتى إذا انحدرنا من الجانب الآخر أدركنا المدينة. فلما ارتفعنا قليلا تجلت لنا صحراء عظيمة : بعضها حجري وبعضها ترابي. وفوق الجبل أقيمت مدينة «بيت المقدس».

ومن طرابلس - المدينة الساحلية - إلى بيت المقدس، ستة وخمسون فرسخا. ومن بلخ إلى بيت المقدس، مئة وستة وخمسون فرسخا.

- خامس رمضان، سنة ثمان وثلاثين وأربع مئة حللنا ب «بيت المقدس» فتمّت بذلك سنة شمسية. منذ أن غادرت بيتي كنت خلالها في سفر مستمر. فلم نقم في أيّ مكان، ولا نلنا فيها راحة كافية.

- يسمي أهل الشام وتلك الأصقاع بيت المقدس «قدسا» ومن لم يستطع الذهاب إلى الحج من أهالي تلك الأقاليم. فإنه يحضر القدس في ذلك الموسم نفسه، ويقف بالموقف، ويذبح أضحية العيد، كما هي العادة. وربما يحضر هناك في السنّة، في أوائل ذي الحجة، أزيد من عشرين ألف نسمة يأخذون معهم أبناءهم، ويذبحون الأضحية.

- ويقصد ذلك المكان من ديار الروم والبقاع الأخرى جميع الرهبان وكثير من اليهود لزيارة الكنيسة والبيعة اللتين يوجدان هناك. وستوصف الكنيسة الكبيرة هناك في المكان المخصص لذلك.

- سـواد بيت المقـدس وقراه كلهـا منطقـة جبليـة. والـزراعـة وشجر الـزيتـون والتين جميعهـا بـوريـة. والنعم كثيرة ورخيصـة. ومن العمـد من يدخر الواحد منهم في الآبـار والأحواض خمسين ألف منّ من زيت الزيتون يحملونها من هناك إلى أطراف العالم.

- ويقال إن أرض الشام لم تعرف القحـط قـط. وسمعت من الثقـات أن شخصـا رأى في منـامـه الرسـول عليـه الصلاة والسـلام يقـول لـه أحـد الكبار : «يا رسول الله ! أعنا على المعيشـة» فـأجـابـه الرسول عليـه السلام قائلا : أنا مكفل بخبز الشام وزيتها».

- والآن أصف مدينة بيت المقدس.

- هي مـدينـة أقيمت فوق جبـل. لا تسقى إلا بمـاء المطر. في قراهـا عيون ولكن المدينـة خـاليـة منهـا إذ أنهـا أنشئت فوق حجر. وهي مـدينـة كبيرة، فقد كان بها لما عايناها عشرون ألف نسمـة، حسنـة الأسواق، عـاليـة البنـاء فرشت أرضهـا كلهـا بقطـع حجريـة. وحيثمـا كان جبـل، وأينا كان مرتفـع. نحتـوه وسـووه حتى إذا نـزل المطر صـارت الأرض كلهـا نظيفـة، والصناع في تلك المدينة كثيرون. لكل جماعـة رواق على حـدة. ومسجـدهـا الجامع نـاحيـة المشرق وسور المـدينـة الشرقي هو سور المسجـد الجـامع. فـإذا تجاوزت المسجد الجامع، فهناك صحراء كبيرة غايـة في الانبسـاط يقـال لهـا «الساهرة» ويقال إنها البرية التي ستكون بها القيامة، وأن الناس سيحشـدون هناك. لأجل هذا قدم إليها من أطراف العالم خلق كثير واتخـذوهـا مقـامـا آملين الموت هناك. فإذا جاء وعد الحق سبحانه وتعـالى كانوا حيث الميعـاد.
- «إلهي ! كن في ذلـك اليوم الملجـأ بعبيـدك» اللهم إنـا نسـألـك العفو آمين يا رب العالمين.

- وبجانب تلك الصحراء توجد مقبرة عظيمة وهي أماكن مبجلة كثيرا فالناس يصلّون فيها ويرفعون أيدي الضراعة، فيقضي الله سبحانه وتعالى حاجاتهم. «اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين».

- وبين المسجد الجامع وصحراء الساهرة، هذه واد عظيم الانحدار. وفي ذلك الوادي الذي هو أشبه ما يكون بخندق بنايات كبيرة على طريقة القدماء. رأيت قبة عظيمة قد نحتت موضوعة فوق بيت، فلا أعجب منها، فكيف بأمر نقلها ! وكان يتردد على الألسن أنها بيت فرعون وأن ذلك الوادي هو وادي جهنم، سألت : من لقب هذا المكان بهذا اللقب ؟ فقيل : في أيام خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عسكر بالجند في صحراء الساهرة. فلما أبصر ذلك الوادي قال : هذا هو وادي جهنم. وأما عوام الناس فيقولون : إن كل من قصد ذلك الوادي، يسمع صراخ أهل النار يتعالى من هناك. ولقد ذهبت هناك، ولكني لم أسمع شيئا.

- وبعد قطع مسافة فرسخ ونصف من المدينة، والنزول في منحدر. عين تنبع من حجر تسمى عين سلوان. شيدت فوقها عمارات كثيرة. وينساب ماء تلك العين نحو قرية كثرت بها العمارة، وخطت فيها البساتين ويقال : إن كل من غسل وجهه وبدنه بذلك الماء تزول عنه الآلام والأمراض المزمنة وقد حبست على تلك العين أوقاف كثيرة.

- ولبيت المقدس مستشفى حسن وله أوقاف كثيرة، تمنح فيه للناس الكثير من الأشربة والدواء. ومن الأطباء هناك من يأخذ راتبا من الوقف. ويقع ذلك المستشفى والمسجد الجامع كليهما في طرف المدينة الشرقي. وأحد

أسوار المسجد الجامع بجانب وادي جهنم فإذا رؤي ذلك السور المحادي للوادي من خارج المسجد.الجامع كانت المسافة مئة ذراع وسوره قد بني بأحجار عظيمة لا أثر للطين والجبص خلالها. والجدران بداخل المسجد الجامع كلها مستقيمة.

- وبسبب «الصخرة» التي هناك بني مسجد في نفس المكان وهذه الصخرة هي التي أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة. فلما نزل هذا الحكم واتخذها موسى قبلة لم يعش طويلا، ومات على إثر ذلك إلى أن آل الأمر إلى أيام سليمان عليه السلام، إذ كانت القبلة جهة الصخرة فبني مسجد حولها بحيث تقع الصخرة وسط مسجد، وتكون محرابا للناس. وإلى عهد نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله أنها كانت القبلة أيضا هي الصخرة تولى الوجوه شطر تلك الناحية فتؤدى الصلاة إلى أن قال الله تبارك وتعالى : ﴿**إن القبلة هي المسجد الحرام**﴾، وسيأتي وصفه في مكانه.

المرحوم : **د عبد اللطيف السعداني**

نحن والطيور

محمد العلوي الصوصي

في صباح يوم من أيـام الربيع وجـدت طـائرا صغيرا في حجرتي دون أن أعرف كيف دخلها. فبدا المسكين حائرا، مرتعشا، قلقـا ـ لا يعرف قرارا ولا يجد هدوءا ـ أرهبه ضيق المكان ـ وأغشى عينيه الظلام ـ فحبس أنفاسه. يريـد الـوقـوف فـلا يستطيـع. لأنـه لا يلمس إلا الغليـظ الخشن في بيتي الضيق. ولكن قلقه لم يطل لأني أشفقت عليـه وأسرعت بفتح النـافـذة على مصراعيهـا ليخرج بسـلام. فـأسرع كالسهم واستروح الهـواء الطلـق فلحـق بإخوانه الجماعة الطائرة ناسيا محنته ـ كأن شيئا لم يقع ـ.

دفعني هذا الحادث البسيط إلى تتبع حركات ذلك السرب الطائر وهو يرسم خطوطا في الهواء، ويخطط صورا رمزية برقصاتـه البهلوانيـة معرجـا ذات اليمين وذات الشمال باسطا أجنحته في هذا الفضاء الذي لا حد لـه ولا

نهاية. ثم يقبل ويدبر، يشتبك ويتفرق كأنه يشخص أهازيج فلكلورية. والكل في نشوة وزهو وسرعة جنونية.

فأي معنى يا ترى لهذه الحركات وهذا الطيران المتحرر من كل قيد، وأي معنى لهذه العربدة ؟

إنها الحرية ! إنها فرحة الإحساس بالوجود ونشوة العافية. وكانت تنطلق الصيحات من السرب الهائج وتعلو الأصوات ثم تتفرق الجموع ويبدأ البحث عن القوت وبناء الأعشاش وتفقد الفراخ والدفاع عن الحياة. وتمضي الساعات ويلتئم الجمع من جديد ليستأنف جولاته مستمتعا بهذا الأفق الواسع وهذا الفضاء الرحب الذي يزنه الزمن المخصص للفرد بالنسبة للأبدية. أجل، إن في كل هذا الذي رأيت دروسا تلقننا إياها هذه المخلوقات. يلقننا إياها الزيز الذي يقضي لياليه في اللهو والغناء، وتلقننا إياها هذه الطيور المختلفة المتنوعة.

فلغة الطيور أقرب شيء للغة الإنسان من أي مخلوق آخر. فالطائر يعبر عن شخصية الفرد.

وإذا حاولنا أن نفهم أو نسجل أنغام الطيور ومقارنتها بلغة الإنسان فسنجد «ولا شك» أن تعبير الإنسان أشبه بما يحكيه العالم المجنح. وما علينا إلا أن ننصت باهتمام وتأن وصبر إلى لغة الحمامة أو اليمامة أو الزرزور أو «الحداد»، إنه يخيل إليك أن لغتها لا تخلو من معنى، بل من معان كثيرة وأنه يعبر عن أحوال وهواجس وأفراح واتراح. وكم يتاح لنا مرارا أن نستمع إلى بعض الطيور وهي بين المروج وفوق الأغصان وعلى جنبات الأودية

وضفاف الغدران. فإذا تمعنا وهي تشدو فسنجد في صوتها «نوطات» متوالية النغمات لا تتبدل ولا تتغير.

فهذا، يرسلها صيحات متوالية أو متقطعة، وآخر، يرددها أوامر من أعالي الشجر ويرعد ويتوعد ويهدد - وثالث، راقه الظهور وطغى عليه الإعجاب وعشق الفخر، فهو يرسلها صيحات مندفعات طويلة النفس تصم الآذان، وآخر، يتعشق الهزل وتعجبه الفكاهة فيقضي أوقاته في المزاح والثرثرة والضحك بلا سبب - ثم تجد الصب الولهان يهمس بأسراره وكوامنه إلى الطبيعة ويبثها ضناه وأساه ثم يسكت طويلا ينتظر شيئا ثم يعود ليكرر أنشودته.

وبعده يفاجئك الثرثار الذي لا يعرف السكوت. فينطلق غير مبال اسْتُمِع إليه أم لا، وكثيرا ما تختلط عليه الأمور حتى لا يعي ما يقول. وهناك الشاعر المرتل للقوافي، وهناك الخجول الذي يتمتم ولا يستطيع الإفصاح عما به، فيتمتم ويسكت. ثم هناك المخبر الذي يفاجئك بكلام طويل في صوت عال ثم يذهب ولا يعود - وتسمع أيضا المتكبر المتبجح الذي يرسلها قهقهات عاليات وضحكات صاخبات.

ثم هناك الأستاذ الوقور يحسب أنه وسط هالة من الطلاب فيدأب على توضيح المواد وتفسير الأقوال وحل المشاكل. ثم هناك الأستاذ المتدرب المعيد يرتل درسه في رتابة مضنية.

ثم تسمع المتخاصمين اللجوجين يصيحون فترتفع أصواتهم في جلبة هائلة. وهناك المتناجون بقول الأول فيستمع الثاني ويجيب. ثم هناك الأب الحازم صاحب الكلمة العليا والقول الفصل وصاحب الحل والعقد، ثم

الأمهات القلقات المستعطفات الراعيات، وهناك المسبحون بحمد رب الملك والملكوت صاحب العزة والجبروت.

وجميع هذه الأصوات تشكل سنفونية نسقتها قوة الإحساس بالحياة وحب التغني بسعادة العيش والاستفادة من متع الدنيا وزينتها وشكر رب النعم، وكل هذا لا يلهيهم عن العمل الجاد في السعي وراء الرزق ورعاية الأسرة والدفاع عن الوكر وتربية النشء والدفاع عن حوزة العش بجد وعزيمة وإيمان قوي لا يعرف الوهن.

ثم يأتي الغروب ـ فتراها جماعات تعقد جموعها حسب الأهواء ثم تتكون دائرة أو دوائر في أعلى الأشجار تتبادل الحديث. ولربما تعقد محكمة أو محاكم مؤلفة من ذوي النباهة والمعرفة أو مؤتمرا لتدارس شؤون البيئة أو شؤون الطير.

ثم يخيم الظلام ـ فتروح لتلوذ بأعشاشها ويسكت كل شيء ويسود الهدوء الكامل ـ وتطبق الآية الكريمة : ﴿**وجعلنا الليل سباتا والنهار معاشا**﴾.

فهلا استفاد الإنسان من دروس هذه الأمة الطائرة، واقتبس من استعمال أوقاتها. فلو فعل لجمع بين محاسن الدنيا وثواب الآخرة وطبق مصداق الآية الكريمة.

يحكى أن أحد الطغاة كان كثيرا ما يترك دنياه ويزهد في الكرسي والجاه والمحاسن والجمال لينقطع مدة من الزمن يقضيها بين الطبيعة بعيدا عن الضوضاء ليستكين إلى نفسه ويستمع إلى غناء البلبل الساعات الطوال. فتلين أعصابه ويراجع نفسه وضميره فيستغفر وينيب.

فهل يوجد منا من يتفرغ للطبيعة ومحاسنها ويختلي بنفسه مناجيا ضميره شاكرا ربه.

وكم ألوم نفسي على غفلتها، وكم تؤاخذني الحسرة بعدم اقتناء بعض الأوقات لأتفرغ إلى نفسي للاستمتاع بالطبيعة وجمالها والطيور وأنغامها والجداول وخريرها والسماء وصفائها والزهور وعبيرها ومخلوقات الله وعجائبها.

وإذا كانت للطيور لغة فإن ما يقوله العندليب فوق كل نغم. لقد ألفناه في طفولتنا وشبابنا واستأنسنا به وكانت أغاريده تطربنا ونهوى في كل مناسبة الإنصات إليه، مما يذكرنا بقول الشاعر جميل صدقي الزهاوي في البلبل :

شدا فوق فرع مورق بلبل الوادي	فياحبذا الوادي وياحبذا الشادي
فقلت له زدن بربك إنني	إلى نغم حلو ترجعه صادي
أفدن بأسرار المحبة خبرة	فأنت عليم بالخفي وبالبادي
ضللت طريقي في هوى من أحبه	وإنك فيوادي الهوىوحدك الهادي

أذكر أنني كنت ذات يوم مع رفاق لي في أحد سفوح الأطلس المتوسط وكنا حينذاك في معركتنا التحريرية بعد نفي بطلها ملكنا المفدى محمد الخامس قدس الله روحه، فكانت الأخبار تحمل إلينا وقائع أحداث المعركة بناحية تادلة كإسقاط طائرة القائد العام لجيوش الاحتلال بالمغرب. كما كانت تصلنا أخبار امتداد المعركة بين إخواننا وجيوش الاستعمار.

فبينما نحن جلوس تحت دوح عظيم تنتابنا الهواجس إذا بالعندليب يرسل أغرودته، وإذا بنا جميعا منصتون في صمت رهيب إلى ألحان هذا الطائر الصغير، فخيل إلينا أنه جاء ليفرج عنا، أو ليشاركنا همومنا، أو ليقوي من عزيمتنا، أو يبشرنا بقرب الانتصار. والغريب أنه لم يفارقنا اليوم كله حتى غابت الشمس.

ولقد سعدت بسماعه بعد ذلك في مناسبات شتى. فهو لا تلهيه مشاكل الدنيا، ولا تثني عزيمته صروف الزمان. فكان لي حقا نعم الأنيس - وسارت الأيام، وقلت فرص الاستماع إليه. وكيف السبيل إلى ذلك وقد طغى الضجيج وتلوث الهواء الذي كان صافيا، وقطعت الأشجار، وغاضت العيون، ونبضت الآبار، وذبلت الأزهار، واختلطت الفصول وانتشر الأسمنت والحديد، وتحجرت القلوب، وخشنت الطباع، وأهينت الفضيلة، وحلت الكآبة محل المرح، والحزن محل الفرح، واليأس محل الامل، والشره محل الرضى بالحال، واندفعت الناس مع تيار العالم المتمدن، فلا نسمع إلا صوت الآلات وهرير الحديد وخرير المروحات النارية ولا نتنسم إلا الدخان الخانق، ولا نلمس إلا الغليظ الخشن، ولا نأكل إلا ما لا يلذ ولا يطيب، وإذا بنا نذهل عن كل شيء وصرنا لا نفرق بين الغث والسمين.

ومما يزيد في الأسى أن بعض الدراسات حول البيئة انتهت إلى أن عددا من أنواع الطيور سينقرض عما قريب. وأن العندليب من المهددين بصفة خاصة. يا له من خبر ! ووا أسفاه على هذه الكارثة الكبرى - التي ستقضي على مخلوق كان بهجة الدنيا وزينتها - وهل يا ترى درى ما ينتظر بني جنسه من فناء ؟ وهل علم أن هذه الأرض التي كانت له مرتعا وكان

لها بهاء لم يعد له فيها نصيب، لعدم تبصر بني آدم وضعف تفكيرهم في عواقب ما يصنعون ؟

وبعد هذه التأملات القاتمة، جالت بفكري مقطوعة الشاعر شفيق جبري في العندليب :

دع العندليب على غصنه ... يردد على الغصن ألحانه
فلم أر في لحنه كلفة ... تهجي أن ناح ألحانه
لئن دون الناس أشعارهم ... لقد جعل الروض ديوانه
وان قيد الوزن أفكارهم ... لقد أطلق الشدو أوزانه
كتمت السجون عن العندليب ... فراح يبتك أشجانه
وأخفيت عنه دموع الجفون ... وقد بلل الدمع أجفانه
فهل شط عن وكره جاره ... فأصبح يندب جيرانه ؟
أم الصقر أودى بخلانه ... فودع بالنوح خلانه
أم الريح هبت بأفنانه ... فزلزلت الريح أفنانه
فيالك من ممعن في الحنين ... ألم يشهد الناس امعانه ؟
أتبكي العنادل أوطانها ... ولا يندب المرء أوطانه ؟

فما أتعسنا إن ضحينا بما تمدنا به الطبيعة من أزهار وطيور ورياحين ومناظر لا تحلو بدونها الحياة.

الدار البيضاء

محمد العلوي الصوصي

الأستاذ علي الصقلي ومسرحيته الرائعة

"المعركة الكبرى"

محمد بن عبد العزيز الدباغ

الجمال هبة من الله يضعها في الكون، لتكون جاذبية لنفوس المرهفين، وأرواح العاشقين، ترشدهم للخير، وتهديهم للتي هي أقوم.

وإن مظاهر الجمال تنصب على الطبيعة في خلقها، فتستميل العيون بما يبدو عليها من توازن في ألوانها، أو في صورها، ومن ثم ملكت الزهرة بشكلها وأريجها من يبصرها أو من يتلقى شذاها، وملك الطائر المغرد من يستمع إلى موسيقاه، وملكت نجوم الليل من يستأنس بنورها، ومن يوازي بين ضيائها وما حولها من ظلام.

ولم تكن هاته المظاهر مقتصرة على الطبيعة في مفهومها العام، بل وهب الله للإنسان أيضا قدرة جعلته، هو بنفسه، يمثل أنواعا شتى من أنواع الحسن، ويتقمص أشكالا من أجناس الجمال، ويتدخل في تنسيق الألوان،

وتبديل الألحان، وإبداع الصور الجذابة التي تستبد بالنفوس، وتستميلها وتجعلها دائرة في فلكها.

إن هذه الموهبة الجمالية، التي وضعها الله في الإنسان، جعلت من بعض الأفراد شعراء قادرين على الإبداع، يملكون زمام اللغة، ويتصرفون في كيفية ترتيبها نظما، وفي كيفية شحن ألفاظها إيحاء، فإذا بالذي يسمع ويتأمل، لا يدري كيف أصبحت اللغة غير اللغة، والإيحاء غير الإيحاء.

إن الشاعر الحق يصبح في الكون ممثلا لأشكال الجمال، ومجسدا لمحاسن الطبيعة، فهو الزهرة الشاذية، والطائر الغريد، والنجم الثاقب، إنه باقة معنوية تتكون من سحر البيان، ومن تمازج الألحان، يختال في موسيقاه اختيال الظافرين، ويتحكم في تنسيق ألفاظه الشائقة، وفي توليد معانيه الرائقة، فلا ترى ولا تسمع إلا ما يثير البهجة في النفس، وما يبعث على التأمل في الكون، وما يدعو إلى المعرفة بحقيقة الحياة.

ولقد عرف العرب قيمة الشعر فاعتزوا به، وجعلوه فنهم السائد، وديوانهم الخالد الذي سجلوا فيه حروبهم وأفكارهم وفلسفة حياتهم وبنوه على أصول فنية، ما زالت إلى الآن تستهوي الآذان، وتستميل الأذواق.

وهم في احتفائهم هذا، لم يكونوا بعداء عن التقييم الصحيح الذي ينبغي أن يكون للشعر في الحياة، لأن الشعر فن تمتزج فيه الفنون، بل هو أسمى ما بلغ إليه الفن البشري، لأنه يضم أشتاتا مختلفات من ألوان الإبداع، فهو رنات موسيقى، وتوازن أنغام، وتحليق خيال، وتوليد معان، وترابط صور... إنه الدم الذي يسري في شرايين الحياة، إنه الخفقة التي ينبض بها الكون، إنه الدفء الذي يمثل حنان الوجود. ومن ثم أصبح للشعراء الدور

الأساسي في توجيه الناس نحو الحق والفضيلة، فإذا أخلوا بهذه الغاية فقد حرفوا هذا الفن عن مقصده، وأبعدوه عن غايته، لأنهم حينئذ سيكونون قد شوهوا جماله الظاهري بقبح محتواه. وهذا هو السر في الاختلاف الموجود بين الذين كانوا يربطون الفن بالأخلاق، وبين الذين كانوا يرون استقلال الفن ووجوب الاعتداد به لذاته، لا لما يدعو إليه من مبادئ وقيم.

والغالب أن أكثر النقاد في هذا العصر، هم الذين يرون الالتزام مبدأ يجب أن يتبع، بحيث لا تبقى لأصحاب الفن حرية في أن يكون أدبهم ذاتيا محضا، يعبرون به عن إحساساتهم العاطفية، أو يدعون فيه إلى ما لا ارتباط له بالمصلحة العليا للإنسان.

إن الأدب لا يكون أدبا عند هؤلاء إلا إذا كان في خدمة الشعوب، وفي إبراز قضاياها الأساسية، وهو رأي إن لم يستطع الإنسان أن يطبقه تطبيقا كاملا، نظرا لوجود بعض النوازع الذاتية أحيانا، فهو، على الأقل، يجب أن يمثل الجانب الأقوى في الاستخدام الفني، لأن الإنسان لا يحيا لنفسه الأنانية وإنما يحيا في إطار اجتماعي، متماسك متبادل المصالح، فلا استمرارية فيه لأصحاب الأثرة، الذين يفقدون الرحمة والنظرة التعايشية الشاملة.

إن استغلال الأدب لأهداف إنسانية سامية، وجعله مذكيا لعواطف الناس نحو الخير والكرامة والعزة، لما أصبحت الضرورة تدعو إليه، فليس هناك أخس من الانقياد إلى الهوى، ومن الانسياق إلى العبث. فالإنسان لم يخلق للملذات العابرة، وإنما خلق ليكون داعية للخير، ومرشدا للفضيلة.

وحيث إن هذه المبادئ لم ترتبط في العصر الحاضر بالشعر وحده، نظرا لمزاحمته أنواعا أخرى من الأدب، كالقصة والمسرحية، فقد حاول بعض الشعراء أن يوظفوا الشعر في المجال القصصي، والمجال المسرحي، عساهم بذلك أن يبقوا عليه بين مزاحمات الفنون الأخرى. وهنا كانت المشكلة معقدة، حيث أصبح الشاعر مقيدا بقيود مختلفة. فهو مطالب بقوانين الشعر، وقوانين القصة والمسرح جميعا. ومن المعلوم أن الجمع بينهما يحتاج إلى براعة فنية، وإلى شروط متداخلة، قل أن تجتمع عند شخص واحد. وهذا هو السر في أن الشعر القصصي لم يصبح إلا في قصص الأطفال، المكتوبة لهم بأسلوب بسيط، والمتعلقة، في الغالب، بالأمثال الناطقة على ألسنة الحيوانات، وأن الشعر المسرحي لم ينجح إلا عند الذين اضافوا إلى الملكة الشعرية قدرة على التركيز، والحوار، واختيار الأحداث المناسبة.

ولقد كانت الريادة في هذا النوع من الشعر عند العرب لأحمد شوقي، كما هو معلوم، وسار على نهجه في ذلك شعراء من مختلف الدول العربية، ومن بين الذين تقدموا إلى هذا الميدان فوفقوا الشاعر المغربي الأستاذ علي الصقلي الذي يعد من ألمع شعرائنا، وأقدرهم على الجمع بين سلامة المضمون، ورونق العبارة. لقد اختار حادثة من أشهر الحوادث في المغرب، فجعلها موضوع مسرحيته الهادفة إلى إذكاء الوعي الوطني، وإلى إشعار المغاربة بضرورة الالتحام حول الحق، وبضرورة مواجهة الاستعمار في أي مظهر من مظاهره، وبضرورة الاحتفاظ بالقوة الوطنية لحماية البلاد، وحماية حدودها من أي نوع من أنواع التدخل الأجنبي، لقد سمى مسرحيته، المكونة من ثلاثة فصول، بالمعركة الكبرى، ويعني بها معركة وادي المخازن، التي انتصر فيها المغرب على البرتغاليين انتصارا باهرا، وذلك يوم الإثنين، منسلخ

جمادى الأولى من سنة ست وثمانين وتسعمائة هجرية، الموافق للرابع من غشت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية.

وتعتبر هذه المعركة مجالا خصبا لإذكاء الروح الوطنية والدينية، لما لها من المفعول القوي في تثبيت روح المقاومة، وإرساء جذورها في النفوس التواقة إلى المجد، الراغبة في العزة، ولهذا اختارها الشاعر علي الصقلي، لتكون موضوع مسرحيته الرائعة، التي تعتبر تصويرا لمرحلة من المراحل العصيبة، التي كان المغرب يعيش فيها بين البحث عن إثبات وجوده، وحفظ استقلاله، وبين الرضوخ إلى قوى أجنبية، تريد أن تتحكم في مصيره، وأن تعبث بوحدته، سواء كانت هاته القوة إسلامية، كالدولة العثمانية، أو كانت نصرانية، كدولة البرتغال.

وكان التدبير السياسي يقتضي البحث عن قائد وطني، يستطيع أن يحمي الكيان، وأن يحافظ على الوحدة والاستقلال، دون أن يستسلم لهؤلاء أو لأولئك، وهي مهمة شاقة، تحتاج إلى الحذق والفطنة، والذكاء والدهاء، والحنكة والمرونة، وقد جمعت هاته الصفات في أخوين اثنين، هما عبد الملك السعدي، وأحمد المنصور، اللذان فكرا في خلق علاقة ودية بينهما، وبين العثمانيين، لا تصل إلى حد السماح لهؤلاء بالاستيلاء على المغرب، ولكنها، في الوقت ذاته، لا تجعلهم أعداء، يبيتون ضده المؤامرات، ويحيكون الدسائس، كما كانوا يفعلون من قبل، لذلك كان همهما الأول هو التوصل إلى حكم المغرب، وإبعاد ابن أخيهما محمد المتوكل، المعروف بالمسلوخ، عن العرش لأنهما كانا يحسان بضعفه عن المقاومة، وبعجزه عن حماية البلاد من الواجهتين المذكورتين، لكن المتوكل هذا، لما أحس بدهائهما وخطتهما، ارتأى أن يحتمي بالبرتغاليين، وأن يرتمي في أحضانهم، فتعاهد معهم على أن يحموه من عميه،

مقابل التنازل لهم عن ثغور البلاد المغربية، وهو تناول أزال هيبته، وجعل الهيئة الوطنية في البلاد تثور عليه، وتنساق مع الأخوين المذكورين، بل دفعت الثورة أهل الحل والعقد أن يخلعوا من ربقتهم بيعة المتوكل، وأن يقلدوها لعبد الملك، لما له من القوة والحزم، ولما يبدو عليه من العزم الصادق على تثبيت أركان الإسلام بالمغرب، ومحو آثار كل مظهر من مظاهر الاستعمار.

ولقد احسن الأستاذ الصقلي في بلورة هذه الجزئية الدالة على أنه يومن بقيمة هاته الهيئة المثقفة، وبأثرها في توجيه الرأي العام، وفي الإطاحة بالأراجيف والأكاذيب، مبرزا شعور الحاكمين بهاته الهيئة التي تستشار في مصير الدولة، وفي أخذ القرارات الخطيرة المتعلقة بمستقبلها، في سلمها وفي حربها، ولهذا جاء في المسرحية على لسان عبد الملك قوله للعلماء ولقواد الجيش : ص 133.

قد دعوناكُم مصابيحَ الهدى	والوغَى نقبسُ منكم أجمعينْ
ليس كالفكرة والسيف معا	إذ يسيران، خدين وخدينْ
فإذا النصرُ على خطوهما	سائرٌ في الركب، للخطو قرينْ
قد دعوناكم وفي النفس أسى	كاد منا شرُّه يَفري الوتينْ
نحن من يوم عبوس كالدجى	قابَ قوسينِ، عن الشر مُبينْ
كغرابٍ ناعقٍ مِن حولنا	في صداه الشؤمُ محموم الرنينْ
منذرٍ بالويل ممن بيتوا	غزونا، ويلهمو، دنيا ودينْ
الصليبيون وُحداناً غَدوا	وزَرافاتٍ إلينا ينفِرونْ
وبنا طرا تواصوا، جنفا،	وتناجوا بالأذى جم الفنونْ...

وما ان سمعت الهيئة العلمية والقيادية قوله، حتى أعلنت عن اتحادها والتحامها من أجل الدفاع عن الإسلام، وعن الوحدة الوطنية، وهنا قال الملك مرة أخرى متوجها إلى العلماء الأجلاء. ص 137.

ليس لي أن أكونَ في مثل هذا ... أنا، بالرأي دونكم مستبدا
لا ! ولا لي أن أحمل العبء وحدي ... حاصدا حسرة النّدامة حصدا
ليس أدعى للظلم حقا وأدنى ... من ولي يمارس الحكم فردا
علماءَ البلاد، يامن، لزاما، ... بهمو يستضاء حلا وعَقدا
سنةُ الحكم تلكمو في بلادي ... لستُ منها أرضى لنفسي بُدّاً
مذ حَملتُّم رسالة العلم حُمِّلـ ... ـتم ثقيلا من الأمانة إدا
وعليكم من السماء رقيب ... أن تكونوا أوفى وأوفر عهدا
أنتمُ الشعب مقلةً وضميرا ... ولسانا به إلى الحق أهدى
وبكم يستغيث، ما عظم الخطـ ... ـب، وما ظله على الخلق مدا
ولذا قد دعوتكم فاستجبتم ... ولأنتم، في حومة الرأي، أجدى
ولَعلي بكم على الدرب أمضي ... سالكا أفضل المناهج قصدا

وهنا تتردد الألسنة بالدعاء، وتبين، بصدق، ما يجب أن يتخذ من الحيطة للكفاح، من أجل محاربة هذه الحملة الصليبية، ومحاربة ذاك الداعي الخائن الذي استسلم لنزواته المغامرة، فانساق إلى البرتغال، دن أن يبالي بالأخطار التي سيوقع فيها وطنه، ولهذا تعالت الصيحات من هؤلاء العلماء المستشارين، الذين عبر الأستاذ الصقلي عن آرائهم، بصدق، فبين ما يحتدم في نفوسهم من إيمان، وما تجيش به خواطرهم من صمود وتحد لكل مظاهر الذل والخذلان، فقال على لسان أبي المحاسن يوسف الفاسي ص : 152.

الجهاد، الجهاد، مولاي ولنـــــــض جميعا في ركبك المخفور

ويعد هذا المشهد، وهو الثامن والأخير من الفصل الثاني، من أطول المشاهد الممهدة للمعركة، التي خص لها الفصل الثالث بمشاهده كلها، ولعل الحبك الفني كان يقتضي ذلك، لأن الأمر يتعلق بتصوير مدى اهتمام عبد الملك بالمسؤولية، وبتصوير مدى الالتحام الذي كان بين هيئة الحكم الثوري وبين الممثلين للشعب من علماء وقواد.

ولقد اختار المؤلف عددا من العلماء المشهورين، ليكونوا منطلقا للحوار، من بينهم أبو المحاسن يوسف الفاسي، والفقيه أحمد المنجور، والعالم علي السكتاني.

وإذا كان العالمان الأولان لا خلاف في إمكان مشاركتهما في هذا الحوار، فإن عليا هذا لا نعلم أنه كان حيا في هاته الحقبة، فهو قد توفي قبل ذلك بكثير، إنه قد قتل مع أبي عبد الله محمد المهدي، المعروف بالشيخ، بن الأمير عبد الله، القائم بأمر الله، وذلك في عهد السلطان سليمان العثماني، الذي أرسل جماعة من الأتراك، الذين تآمروا سرا، وعملوا على اغتيال أبي عبد الله الشيخ، وقتل معه، أثناء تنفيذ المؤامرة، علي السكتاني، والكاتب أبو عمران الوجاني حسب ما في كتاب الاستقصا للناصري.

وهذا الخلاف الزمني لا يؤثر في الناحية الجمالية التي تمتاز بها المسرحية، ولا في الهدف الرمزي الذي يسعى الأستاذ الصقلي إلى تحقيقه من خلال مسرحيته، بل كان يتعمد، أحيانا، تحوير بعض الحقائق، لخدمة فنه، ويتجلى ذلك في تسجيل نهاية سبستيان ملك البرتغال، الذي لم تجعله المسرحية قتيلا من بين قتلى المعركة، ولكنها جعلته يقف حيا أمام أحمد

المنصور، الذي أراد أن يعفو عنه، رغم مواقفه، لكن سبستيان ينتحر وهو يقول :

دمي فـداؤك يـاعرشي ويـاوطني العفو أقتل لي من قبضة الهون

ومما يمتاز به الصقلي دقة ملاحظاته، وحسن تصرفه في بعض الإشارات التاريخية العابرة، فهم يذكرون أن المعركة حين اشتدت وقربت من النهاية، كان فيها عبد الملك محتضرا، بسبب مرض ألم به، لكن حاجبه لم يعلن عن هذا المرض، فكان يدخل خباء الملك يستشيره في توجيه المعركة، وفوجئ، في إحدى دخلاته، بالفاجعة، حين رأى الملك ميتا وأصبعه على فمه، كأنه يشير إليه أن اكتم خبر موتي على الجيش وقواده، ليلا يضعفوا أو يضطربوا.

ويشخص الشاعر هذا الموقف، ويستنطقه على لسان الحاجب رضوان، الذي يتوجه إلى الملك، بعد أن لاحظ تلك الأصبع على فمه، فيقول : ص 186 :

فصيـح أنت، حتى في الممات !	كأنْ مـازلت في عـز الحيـاة
حريص أنت، حتى حين تـودي	على أخـذ بـأسبـاب الحصـاة
ورب إشـارة أغنت، فكانت	ـ بمـا قـد أوضحت ـ أوفى أداة
لقـد حـاذرت أن ينهـار جيش	وينقلب النظـام إلى شتـات
إذا مـا قيـل : مت، وأنت ذخر	لنصر نرتجيـه على الغـزاة
ومـا ألهـاك أنـك أنت مـاض	إلىالفردوس تعرج في ثبـات
فمـا بـارحت حتى كنت تـدعـو	وتـوصينـا بكتمـان الـوفـاة
يقينـا منـك أن النصر رهن	بسر فضحـه رأس الهنـات

وأختار هذا الوزن المتلائم مع الموضوع المنتقى، وجعل تلك التاء في الروي معتمدة على ذلك الردف المعطي للصوت موسيقى تجعل الإيقاع جذابا مؤثرا.

وتنتهي المسرحية بعد إعلان البيعة لأحمد المنصور الذي يقول معقبا على الانتصار ص 208.

أيها الناس هاهنا قد حفرنا	بيد الحق للصليب ضريحا
وأقمناه شاهدا أن للظلـ	ـم انهيارا وإن تعالى صروحا
فليبشر عدونا، ما أتانا،	أن قبرا له هنا مفتوحا
وبأنا عند اللقاء كرام	للمعالي نجود جسما وروحا

وهكذا يمكننا من خلال الأبيات المنتقاة أن نستشف القدرة على التعبير الملائم للموضوع، فمن الأوزان المتنوعة، إلى الكلمات الواضحة، إلى التوازن الصوتي في الجرس الداخلي، والإيقاع الذي تنتهي به كثير من القوافي، كما يمكننا أن نستشف من خلالها الروح الوطنية العارمة، التي تنبثق من نفس الشاعر، ليجعل هذه المسرحية داخلة في الأدب الالتزامي الموجه.

إن الأديب الصقلي في مسرحيته هاته، قد حرص على الجمع بين أصول المسرح وأصول الشعر، فكانت الإيحاءات التصويرية، والمقابلات الصوتية. والنغمية، ممزوجة بأحداث القصة، وبحركة المواقف التي تبعث على تجسيد الواقع، وتشخصه تشخيصا يجعل القارئ لا يعيش الأوهام، وإنما يعيش الحقيقة، وكأنها واقع يمارس، لا تاريخ يحكى ويروى. وإني اعتبر هذا النوع

من المسرحيات، رغم كونه يعتمد على الإيقاع، لقادر على التأثير السمعي أكثر من غيره، نظرا لامتزاج فنين، واشتراكهما في السعي وراء اظهار سلسلة من الأحداث، تعين كلا من المشاهد والقارئ على التعمق في معرفة الأشياء، وعلى تمثل الظواهر الاجتماعية، والوقائع التاريخية، وعلى الاستفادة من الإيحاءات المقصودة التي يكون الغرض منها رفع المستوى الوطني، والأخلاقي، وتربية الذوق الاجتماعي، والسياسي، بصورة تبعث على المتعة، وتستغل عناصر الجمال.

فاس : **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

ردٌ على نقد (*)

الحاج هاشم محمد الرجب

اطلعت في مجلة «المناهل» الزاهرة (ص 326 ـ 346) العدد 30 لسنة 1984 على كلمة نقد وجهها الأستاذ أحمد عيدون لبعض ما ثبتته من الأبعاد الموسيقية في كتاب (الأدوار) لصفي الدين عبد المؤمن الأرموي البغدادي المتوفى سنة (693 هـ ـ 1294م) وهو الكتاب الذي قمت بتحقيقه وشرحه، وقد توهم الكاتب الناقد بأن ما ثبتته في هذه الأبعاد لا ينطبق على مايراه هو. وإني في الوقت الذي أقدم فيه شكري وتقديري للكاتب الفاضل على تتبعه لمثل هذه الأبحاث، في الوقت الذي أصبح فيه الذين يهتمون ويبحثون في مثل هذه الأمور (الموسيقى القديمة) قلة في العالم الآن حيث أن عددهم ـ كما اعتقد ـ لا يتجاوز عدد الأصابع لكنني أجد أن الناقد الفاضل لم يكن موفقا في نقده للأسباب التالية.

(*) أطلعت مجلة «المناهل» السيد أحمد عيدون على هذا النقد فأجاب عنه بتعقيب، يجده القارئ بعد هذا الرد. (المناهل).

إن الأستاذ عيدون متفق معي في جميع نسب الأبعاد للأرموي إلا في نسب أبعاد البقيات الثلاث الذي يحتويه البعد الطنيني إذ أنه يعتقد أن نسب هذه الأبعاد هي نفس نسب الأبعاد البقيات الثلاث التي يحتويها البعد الطنيني عند فيثاغورس وهذا غير صحيح كما سأبرهن على ذلك.

وقبل أن أدخل في الموضوع أود أن أثبت ما يلي :

لقد اعتبر الأرموي :

أولا - بعد البقية - وهو البعد الذي يحتوي على نغمتين محصورة بينهما بعدا واحدا وأطلق عليه حرف (ب) فكل نغمتين هو بعد بقية.

ثانيا - بعد المجنب - هو البعد الذي يحتوي على ثلاث نغمات محصورة بينهما بعد أن - وأطلق عليه حرف (ج) فكل ثلاث نغمات هو بعد مجنب.

ثالثا - بعد الطنيني - هو الذي يحتوي على أربع نغمات محصورة بينها ثلاثة أبعاد وأطلق عليه حرف (ط) فكل أربع نغمات هو بعد طنيني.

إن نسب الأبعاد للبقيات الثلاثة الذي يحتويه البعد الطنيني عند الأرموي تختلف عن نسب الأبعاد عند فيثاغورس وذلك بالدليل التالي.

إن نسبة البقية الأولى من البعد الطنيني عند فيثاغورس وعند الأرموي (آ،ب) هي نسبة واحدة وهي ($\frac{256}{243}$). أما نسبة البقية الثانية فعند فيثاغورس هي نفس نسبة البقية الأولى ($\frac{256}{243}$) ولكن عند الأرموي نسبتها ($\frac{135}{128}$) بدليل أن نسبة المجنب الأول (آ، ج) عنده كل وتسع كل ($\frac{10}{9}$) فإذا طرحت نسبة البقية الأولى ($\frac{256}{243}$) من نسبة المجنب الأول يبقى ($\frac{135}{128}$) والعملية هكذا $\frac{10}{9} - \frac{256}{243} = \frac{135}{128}$ وهي

نسبة البقية الثانية (ب، ج) عند الأرموي بقي عندنا نسبة البقية الثالثة (ج، د).

فعند فيثاغورس نسبتها ($\frac{531441}{524288}$) وهي ناتجة من :

$\frac{256}{256} + \frac{256}{256} = \frac{65536}{59049}$. وعند طرح هذه النسبة وهي نسبة البقيتين الأولى والثانية من نسبة البعد الطنيني الذي نسبته كل وثمن كل $\frac{9}{8}$ فما يبقي هو نسبة الكوما الفيثاغورية والعملية هكذا.

$\frac{9}{8} - \frac{65536}{59049} = \frac{531441}{528288}$ وهي نسبة الكوما الفيثاغورية وتساوي $\frac{74}{72}$ تقريبا أما نسبة الكوما عند الأرموي فنسبتها ($\frac{81}{80}$) والعملية وهكذا :

$\frac{256}{243} + \frac{135}{128} = \frac{10}{9}$ وهي نسبة المجنب الأول $\frac{9}{8} - \frac{10}{9} = \frac{81}{80}$ وهي نسبة الكوما الأرموية.

وعلى هذا الأساس إذا توالى مجنبان في بعد ذى الأربع (التتركورد) يكون نسبتها كما يلي :

الأول - كل وتسع وهو ناتج من $\frac{256}{243} + \frac{135}{148} = \frac{10}{9}$ نسبة المجنب الأول.

الثاني - كل وجزء من خمسة عشر وهو ناتج من $\frac{256}{243} + \frac{81}{80} =$ $\frac{16}{15}$ نسبة المجنب الثاني.

وإذا توالت ثلاثة مجنبات في بعد ذى الأربع الواحد كما هو في القسم السابع من الطبقة الأولى عند الأرموي فتكون نسبة المجنب الثالث $\frac{2187}{2048}$ والعملية هكذا :

$\frac{135}{128} + \frac{81}{80} = \frac{2187}{2048}$ (الابـوتـوم) وهي نسبـة فضـل الطنيني على البقية.

وأدناه مخطط إيضاحي بالمجنبات الثلاثة

	المطلق	الزائد	المجنب	السبابة	وسطى الفرس	وسطى زلزل	البنصر	الخنصر
النسب بين الدساتين	$\frac{256}{243}$	$\frac{135}{128}$	$\frac{81}{80}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{135}{128}$	$\frac{81}{80}$	$\frac{256}{243}$	
الحرف	أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح
النسبة	(0)	$\frac{256}{243}$	$\frac{10}{9}$	$\frac{9}{8}$	$\frac{32}{27}$	$\frac{5}{4}$	$\frac{81}{64}$	$\frac{4}{2}$

خط

ربع الوتر (التتراكورد) كل وثلث كل ($\frac{4}{2}$ -)

المجنب الأول ($\frac{10}{9}$) المجنب الثاني ($\frac{16}{15}$) المجنب الثالث ($\frac{2187}{2048}$) البقية ($\frac{256}{243}$)

وقد ذكرت هذا بصورة مفصلة في الصحيفة (19، 57) من كتاب (الأدوار).

أما قول الأستاذ عيدون في الصفحة (344) (وأظن شخصيا أن سبب هذا الخلط بين الأنظمة النظرية عند المحقق عن ما ورد في الجنس السابع من الطبقة الأولى حيث تتوالى ثلاثة أبعاد من صنف (ج)) فليس لي أن أقول فيه طالما موجود جنس بهذه الأبعاد (ج.ج.ج.ب) إذن أين الخلط يا أستاذ.

هذا وقد ناقض الأستاذ عيدون نفسه بنفسه إذ أنه ينفي وجود الكوما الأرموية التي نسبتها $\frac{81}{80}$ حيث ذكر في الصفحة (341) ما يلي :

(وحتى لو أكملنا العملية على كل الدساتين السلم فلن نجد الكوما التي يقول عنها المحقق إنها أرموية وان نسبها ($\frac{81}{80}$).

ثم في الصحيفة (343) يثبت وجود هذه الكوما في سلم الأرموي حيث يقول (ويتميز هذا النظام بوجود بعدين طنينين كبير ونسبته ($\frac{9}{8}$) وصغير ونسبته ($\frac{10}{9}$) بفارق ضئيل يسمى كوما البعدين ونسبته ($\frac{81}{80}$). وهكذا نسي عيدون أنه توصل إلى ذات الرقم لكنه لم يتأمل جيدا هذه القضية. ومهما يكن فإن ملاحظات عيدون تأخذ طابع المحاورة لكتاب مهم في تاريخ الموسيقى والأنغام... وأسجل احترامي لعيدون وآمل أن تتواصل المحاورات بين الباحثين.. فنحن نعرف في العراق أن أحمد عيدون يجتهد في جهده الموسيقي، وعسى أن نلتقي مرة أخرى على صفحات مجلتكم الغراء أو على صفحات مجلاتنا العلمية.

هذا ما اردت بيانه والله من وراء القصد.

بغداد **الحاج هاشم محمد الرجب**

السلم الموسيقي عند صفي الدين الأرموي ومحتوى طبقات الأدوار

أحمد عيدون

إني أشكر للأستاذ الحاج هاشم محمد الرجب إثارة انتباهي ثانية إلى مسائل نظرية ما كان ليتسع لها بحثي السابق حول كتاب الأدوار، وأعتبر ما جاء في رده وجيها في أغلبه، إلا أن نقطة الاختلاف بيننا تكمن في أسلوب التعامل مع كتاب الأدوار : يعتبر أستاذنا الرجب كتاب الأدوار حقيقة مطلقة لا تستوجب النقد وبالتالي يحاول التوفيق، على طريقته، بين منطلق المؤلف (طريقة تقسيم الوتر) ونتائجه (تكوين الطبقات في السلم النغمي)، بينما أعتبر شخصيا أن الأرموي قد انتهج طريقتين مختلفتين بالنسبة للفصل الثاني (تقسيم الوتر) والفصل الخامس (تكوين الطبقات)، وكان دقيق الوصف والحسابات في المسألة الأولى غامضه في الثانية. لذلك، إلحاقا بما سبق أن بينته من تطابق النظامين (نظام الأرموي ونظام فيتاغورس)، سأحاول في مبحثي هذا أن أبرز كيف أن الأرموي نفسه قد

ابتعد عما سطره لنفسه في بداية مؤلفه، وكيف أن تحليله، لطبقات بعد ذى الكل يشكو من وجود أجناس لا توافق الأبعاد الأولية، وانعدام وجود أجناس أخرى أغفلها المؤلف رغم أنها توافق مبادئ التأليف الملائم وتجتنب الأسباب الموجبة للتنافر. وبعد التطرق إلى موقع الأرموي في التاريخ الموسيقي العربي، وتحليل منهج الحاج هاشم الرجب في تحقيق كتاب الأدوار وخصوصا ما يتعلق منه بالسلم الموسيقي وبطبقات الأدوار، سأحاول أن أبرز القطيعة بين الفصل الثاني والفصل الخامس من المخطوط قبل أن أخلص إلى تقدير نسب الأبعاد المحصورة في نطاق البعد الطنيني ومن ضمنها بعد ج.

1 - موقع الأرموي وحدود إسهامه النظري فيما يخص تركيب الطبقات :

اتبع الأرموي في مؤلفه خطة علمية مثيرة للإعجاب ولا غرو أن يسميه هـ.ج فارمر بإمام المدرسة المنهجية، تلكم المدرسة التي وصل صيتها إلى مغربنا العربي وطغت روحها على كل الكتابات العربية في الموسيقى بعد الارموي. اعتمد صفي الدين على تسلسل منطقي وتبويب ينطلق من البسيط إلى المركب، من النغمة كصوت منفرد إلى موقعها، إلى تآلفها وتنافرها إلى تكوين الطبقات ثم الأدوار إلى كيفية استخراج هذه النغمات والأدوار من أوتار العود، وذلك قبل أن يتطرق للعنصر الثاني وهو الإيقاع وعيا منه بأن الموسيقى أساسا هي نغمة وإيقاع إذا اعتبرنا جانب التأليف فقط، ثم هي إحساس جمالي وهذا ما يبرر الفصل الرابع عشر (تأثير النغم)، ثم ممارسة طويلة وذكية، لذلك جاء الفصل الخامس عشر والختامي خاصا

بمباشرة العمل، كما أرى أن طريقته في تكوين السلم (بعد ذى الكل) بديعة وتربوية وأحسن بكثير من طريقة تتابع العقود الرباعية المتبعة في النظرية الغربية (وربما ستتاح لي الفرصة للاستطراد في هذا الجانب الوضاء من نظرية الأرموي بمناسبة مقام آخر) أما ما يخص تركيب الطبقات فقد أتى الأرموي بأبعاد لم تذكرها قسمته للدساتين وبالأصح لم تصنفها بحرف واحد.

2 ـ منهج الحاج هاشم محمد الرجب :

يتطرق المحقق إلى الفصول الثلاثة الأولى من المخطوط بالشرح والتوضيح والرسوم البيانية وحساب النسب بين نغمات السلم، قبل أن ينتقل إلى الفصل الرابع الخاص بالأسباب الموجبة للتنافر ثم الفصل الخامس حيث سيظل حبيس تفسير غير صائب لطبيعة أبعاد ج الثلاثة، وهكذا، وانطلاقا من القسم السابع من الطبقة الأولى ونسبة دساتينه ج ج ج ب يبدأ التباين بين تفسير المحقق الفاضل وبين ما أراه شخصيا موجبا لمزيد من التمحيص والنقد، فهذا القسم يضم 4 أبعاد محصورة بين 5 نغمات، وبما أن أبعاد ج الثلاثة لا يمكن أن تكون بالنسبة التي أظهرها تقسيم الوتر في الفصل الثاني أي $\frac{65536}{59049}$ لأن مجموع نسب هذا القسم سيتعدى نسبة ذى الأربع، يرى المحقق في نطاق المنهج الذي اتبعه أن يميز بين ثلاثة أنواع من بعد ج ($\frac{10}{9}$، $\frac{16}{15}$، $\frac{2187}{2048}$) وسيكون بالطبع حاصل ضرب هذه النسب مع نسبة البقية ب هو $\frac{4}{3}$ أي نسبة بعد ذى الأربع، ويمكن استعمال نفس القياس للأقسام 7،8،9،10،11 في الطبقة الثانية وكلها تتضمن ثلاثة أبعاد ج.

أما كيف وجد المحقق النسب الثلاثة وعلى أي فقرة من المخطوط يعتمد، فهذا مالا يفصح عنه ومالا يقدم عليه أي دليل، وحبذا لو أمدنا بأساس استنباطه للبقيات الثلاث التي يذكرها في الإشارة 17 من الصفحة 57، وهو في رأيي استنباط ان لم يستند إلى صراحة نص المخطوط يجب أن نجد له مبررا في الفصل الثاني (أقسام الدساتين). وقد بينت بما يكفي أن قسمة الوتر لا تعطى النوعين الأولين من بعد ج.

3 ـ بين الفصل الثاني والفصل الخامس :

انتهيت في مقالتي السابقة إلى أن البعد الطنيني يتضمن ثلاثة أنواع من الأبعاد :

بعد الفضلة أو الكوما الفيتاغورية بنسبة $\frac{531441}{524288}$

بعد البقية (ب) بنسبة $\frac{256}{243}$

بعد ج بنسبة $\frac{65536}{59049}$

وهناك بالطبع بعدان آخران هما :

- الأبو طوم وهو طرح بعد البقية من البعد الطنيني ونسبته $\frac{2187}{2048}$
- والبعد الطنيني ويتكون اما من بعدين (ب) + كوما.
  أو بعد ج + كوما أو بعد (ب) + أبو طوم ونسبته $\frac{9}{8}$

وقد اكتفيت بتحليل الفصل الثاني دون الانتقال إلى سواه حتى أدقق الحسابات واستخلص كل النتائج المكنة، أما الفصل الخامس فلا أرى إلا

أن الأرموي قد أغفل التمييز بين عدد من الأبعاد سماها في القسم السابع للطبقة الأولى بأبعاد ج وما كلها ببعد ج كما سبق ذكره في الفصل الثاني من المخطوط وسنبين ذلك في حينه، لذلك جائت بعض أقسام الطبقات المذكورة عند الأرموي غير متفقة مع تقسيم الوتر وغير شاملة لكل أنواع الأقسام، فهناك في نفس الوقت افراط وتفريط :

أفراط في وجود الأقسام المعتمدة على تتابع 3 أبعاد ج وتفريط في عدم وجود أقسام تلتزم بموجبات التلائم وتجتنب كل موجبات التنافر. كان يمكن مثلا أن نضيف إلى أقسام الطبقة الثانية (بعد ذى الخمس) ثلاثة أقسام أخرى :

ج ط ط ج.

ط ط ج ج.

ط ط ط ب.

وهي الأقسام التي ستمكننا من إيجاد سلم الراست الحالي وسلم العجم والسلم الصغير اللحني الذي ترفع فيه العلامتان السادسة والسابعة صعودا، وتبيان ذلك في الجدول الآتي :

الطبقة الأولى / الطبقة الثانية	ط ط ب	ط ب ط	ط ج. ج
ط ط ج ج			راست
ط ط ط ب	عجم	صغير لحني صاعد	

ومع الإشارة إلى أن المقامين الآخيرين ربما لم يستعملا في زمن الأرموي، لكن ملاحظتي تهم تكوين الطبقات فقط. ليس لنا إذا أن نعتمد على الفصل الخامس لتفسير الأبعاد وخصوصا أبعاد ج والكوما الأرموية كما لا يمكننا الاعتماد على تقديرات تقريبية موجودة في الفصل الثالث من المخطوط، وفيه (... وأما نسبة (أ) إلى (ج) فنسبة المثل وثلث الخمس **بالتقريب**، وأما نسبة (أ) إلى (ب) فهي كنسبة المثل وجزء من تسعة عشر **بالتقريب** ويسمى بعد بقية وأما بعد (أج) فلم أجد له اسما بين أرباب هذه الصناعة، فلنسمي بعد (أد) بعد (ط) وبعد (أج) بعد (ج) وبعد (أب) بعد (ب)...) وهذه النظرة التقريبية هي اللتي تحتم علينا كباحثين أن نرجع إلى أدق فصل وهو الفصل الثاني الذي اعتبره مفتاح طبيعة الأبعاد ودليل نسبتها الحسابية وما دمنا في صدد مراجعة الفصل الخامس فلنرجع إلى النص لنعرف حقيقة أبعاد ج الثلاثة.

القسم السابع من الطبقة الأولى ج ج ب نغماتها أ ج هـ ز ح :

القسم السابع من الطبقة الثانية ج ج ب ط نغماتها ح ي يب يديه يح.

القسم الثامن من الطبقة الثانية ط ج ج ب نغماتها ح يايج يه يزيح.

القسم التاسع من الطبقة الثالثة ج ط ج ب نغماتها ح ي يج يه يزيح.

(في الكتاب ص 68 خطأ مطبعي على ما أظن لذلك جاء.
هذا القسم خلاف ما هو موجود في نسخ المخطوط هكذا :
ج ط ج ج ج ب نغماتها ح ي يج يه يويح).

القسم العاشر ج ب ط ج ج نغماتها ح ي يايد يو يح.

القسم الحادي عشر ج ج ب ط ج نغماتها ح ي يب يج يو يح.

القسم الثالث عشر ط ج ب ج ج ونغماتها ح ي يج يد يو يح.

وقد اتضح لي بعد مراجعة النغمات المذكورة أن أبعاد ج المشار إليها فعلا من 3 أنواع ولكن لا توافق كلها بعد (ج) المذكور في الفصل الثاني والفصل الثالث، ولا علاقة لها كذلك بأبعاد ج التي يذكرها المحقق، وذلك راجع إلى الخلط بين بعد ج الحقيقي والذي يمثله بعد (أ - ج) والأبو طوم الفيتاغوري وهو تمام البقية إلى البعد الطنيني. ونجد في الجدول الآتي موافقة لنص الأرموي ونغمات أقسامه مع الأبعاد المحصورة في البعد الطنيني (ط) البقية (ب) بعد (ج) الأبو طوم (م) والكوما (ك).

القسم	الطبقة	الأبعاد في النص	النغمات	الأبعاد الحقيقية
7	1	ج ج ج ب	أ ج هـ ز ح	ج. م. م. ب
7	2	ج ج ج ب ط	ح ي يب يد يه يح	ج. م. م. ب. ط
8	2	ط ج ج ج ب	ح يا يج يه يزيح	ط. ج. م. ج. ك
9	2	ج ط ج ج ب	ح ي يج يه يزيح	ج. ط. م. ج. ك
10	2	ج ب ط ج ج	ح ي يايه يويح	ج. ك. ط. ج. م
11	2	ج ج ب ط ج	ح ي يب يج يويح	ج. م. ب. ط. م
13	2	ط ج ب ج ج	ح يايج يه يويح	ط. ج. ك. ج. م

(بالقسم الثالث عشر خطأ مطبعي في النغمات اقرأ يا عوض ي).
وقد استخرج هذا القسم الأستاذ هاشم الرجب.

إذن بعد قراءة متأنية للفصل الخامس تبين لي أن الأرموي قد أغفل التمييز بين بعد ج والأبو طوم وبين بعد البقية والفضلة أو الكوما، وقد اعتمد المحقق على هذا الفصل رغم نقصه وأضاف من عنده خطأ آخر في تقدير نسب أبعاد (ج) الثلاثة.

4 - بعد (ج) وتقدير نسبته :

لقد حصل الاتفاق بيني وبين الحاج هاشم الرجب على حساب البعد (ب) الذي نقدره ب $\frac{256}{243}$، لذلك سأتم الحساب إلى أن أجد نسبة بعد (ج)، وأعتمادا على الفصل الثاني من كتاب الأدوار نجد :

«... ثم نقسم (ب،م) أربعة أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول منه (ط)، ثم نقتسم (ط،م) أربعة أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول منه (يو)، ثم نقسم (يو،م) بقسمين متساويين ونضيف إليها قسما آخر مساويا لأحد القسمين من جانب الثقل ونعلم على نهايتها (و)، ثم نقسم (و،م) ثمانية أقسام ونضيف إلى الأقسام قسما آخر ونعلم على نهايته (ج)».

ولنقدم في ما يلي رسما توضيحيا للعلاقات الأربعة المذكورة أعلاه :

192	م	ب
256	م	ب
192	م	ط يو
216	م	و........
243	م	ج و........

وما دمنا قد اتفقنا على أن طول الوتر من المشط (م) إلى دستان (ب) هو $\frac{243}{256}$ من طول المطلق، فيمكننا إنجاز العمليات حتى إيجاد طول الوتر المحبوس عند دستان (ج) :

$$\text{ط} = \frac{3}{4} \times \text{أ} \frac{243}{256}$$

$$\text{يو} = \text{ط} \times \frac{3}{4}$$

$$\text{و} = \text{يو} \frac{3}{2}$$

$$\text{ج} = \text{و} \frac{9}{8}$$

إذن فالوتر المحبوس عند (ج) طوله.

$$\frac{59049}{65536} = \text{أ} \frac{243}{256} \times \frac{3}{4} \times \frac{3}{4} \times \frac{3}{4} \times \frac{3}{2} \times \frac{9}{8}$$

أي أن نسبة اهتزازه إلى اهتزاز المطلق (أ) هي $\frac{65536}{59049}$ وليس $\frac{10}{9}$، كل وتسع كل، كما ورد في الحاشية 7 صفحة 47 من كتاب المحقق.

واعتماد نسبة الكل وتسع الكل هي التي أدت إلى اختلاف أنواع بعد البقية عند المحقق والعملية عنده هكذا : بما أن البعد الطنيني (أ،د) تقابله نسبة $\frac{9}{8}$ وبعد البقية (أ،ب) تقابله $\frac{256}{243}$ وبعد (أج) هو $\frac{10}{9}$(وهنا الخطأ) فبعد (ب،ج) هو الفرق بين (أ،ج) و(أ،ب) والفرق في حساب النسب نترجمه كسرا والنتيجة تأتي $\frac{10}{9} \times \frac{243}{256} = \frac{135}{128}$. وكذلك الفضلة أو الكوما التي يسميها المحقق أرموية فرق بين البعد الطنيني وبعد (أ،ج) أي $\frac{9}{8} \times \frac{9}{10} = \frac{81}{80}$ وبما أننا أثبتنا عدم وجود نسبة $\frac{10}{9}$ يمكننا بكل سهولة أن نثبت خطأ نسبتي $\frac{135}{128}$ و $\frac{81}{80}$ ولم أتناقض مع نفسي حين قلت في الصفحة 343 من مقالتي السابقة أن هذه النسبة الأخيرة هي عنصر من عناصر النظام الارسطوكسيني وبالتالي فالكوما $\frac{81}{80}$ ليست أرموية ولا وجود لها عند الأرموي. وصلت فعلا إلى ذات الرقم، ولكن في نظام آخر غير

نظام الأرموي أوردته هنا للمقارنة ليس الا. وأود أن أعطي للأستاذ الرجب مبررا آخر لعدم اعتبار ما جاء به الأقدمون (أو على الأصح ما وصلنا منسوخا عن علمهم) شيئا مطلقا، قضية دساتين آلة العود المذكورة في الفصل الثامن وفي هذا الفصل بعض الأخطاء فحدة بنصر البم ليست هي مجنب الزير - كما ورد في الصفحة 94 - بل زائده، وكذلك بنصر المثلث ليس هو مجنب الحاد بل زائده.

والمسألة لا تعدو أن تكون خطأ عند الأرموي نفسه واما أن دستان المجنب يسبق دستان الزائد إلى المطلق وبالتالي سيفهم نص الأرموي ويطابق حقيقة تكوين السلم كما يلي :

		خنصر	بنصر	وسطى زلزل	وسطى فرس	سبابة	زائد	مجنب	مطلق	
	حاد	لو	له	لد	لج	لب	لا	ل	كط	
	زير	كط	كح	كن	كو	كه	كد	كج	كب	
المشط	مثنى	كب	كا	ك	يط	يح	يز	يو	يه	الأنف
	مثلث	يه	يه	يج	يب	يا	ي	ط	ح	
	بم	ح	ز	و		د	ج	ب	أ	

ولنـا عودة للمقـامـات والأدوار ستلح فيهـا الضرورة على اتبـاع نفس المنهج النقـدي للوصول إلى نتـائج ملمـوسـة. على كل حـال فكتـاب الأدوار بحجم ما يزخر به من معلومـات سيطلب منـا أكثر من وقفـة وقـد كنـا في هذا المقال بصدد الحديث عن نقطة واحدة منه وهي نسب الأبعاد، أبـديت فيها رأيي ثانية بمحاورة قصدهـا الافـادة والاستفـادة، ولا شـك في انني أكن للحاج هاشم محمد الرجب أصدق التقدير لاسهاماته العـديـدة ولمـا استفـدتـه شخصيا من تحقيقاته العلمية وأبحـاثـه في المقـام العراقي وفي التـاريخ وفي علم المصطلحات العربية وأتمنى لأستاذنا المزيد من العطاء.

أحمد عيدون

الإعلام الثقافي

نص خطاب
السيد وزير الشؤون الثقافية
الأستاذ محمد ابن عيسى
في حفل افتتاح
مهرجان فاس للموسيقى الأندلسية
(12 إلى 14 ابريل 1985)

بسم الله الرحمان الرحيم

حضرات السادة :

إن من دواعي الغبطة والحبور أن نلتقي من جديد فوق أرض مدينة فاس، عاصمة العلم والنور، ومستوحى إلهام الفنانين المبدعين، لنحيي مرة أخرى «مهرجان فاس للموسيقى الأندلسية»، ولنؤكد مرة أخرى على قوة تمسكنا بهذا الجانب الأصيل من المقومات العريقة التي بلورت شخصيتنا الثقافية، ولنبرز المميزات التي طبعت مكوناتها الأصيلة.

ولا يفوتني في بداية هذه الكلمة أن أنوه بكل الذين ساهموا من قريب أو من بعيد في إعداد هذا المهرجان، ويسروا له سبل النجاح بما قدموه من مساعدات جمة مشكورة، وما اتخذوه من بوادر وتحركات فعالة، انعكست إيجابياتها على سير المهرجان. وأخص بالذكر في هذا المجال سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم فاس، ورجال السلطات المحلية، وأعضاء المجلس البلدي. كما لا يفوتني أن أبارك جهود «جمعية بعث الموسيقى الأندلسية» التي ما فتئت تسعى إلى نشر الوعي بهذه الموسيقى، والرفع من مستوى التعامل معها كتراث وطني حي، جدير بالعناية وقمين بالتقدير.

حضرات السادة :

لقد أصبح الحديث عن التراث الأندلسي المحفوظ، من أهم ما يشغل بال المهتمين بهذا القطاع. والواقع الذي لا يجادل فيه اليوم أحد، أن هذا التراث بخير، وأن أكثره إن لم نقل جله أصبح في حمى من الضياع، بعدما تم تسجيله على الأشرطة والأسطوانات بفضل أقطاب الفن الأندلسي الذين برهنوا في سائر المناسبات عن مستوى كبير من الوعي، والذين بذلوا من أنفسهم ما أبان عن مثالية هي بحق جديرة بالتقدير والإجلال.

على أنه بالرغم مما أسفرت عنه عملية التسجيل من إيجابيات في هذا المجال فما تزال الحاجةً ماسةً إلى تقصي الصنعات النادرة، المتفرقة في صدور حفظة الموسيقى الأندلسية وشيوخها. وهذا أمر يستدعي وضع خطة محددة المعالم للتعرف على أولئك الحفظة، كما يستدعي استنطاق الأوساط الفنية، وفي مقدمتها ولا ريب أوساط المادحين ورواد الزوايا الذين استطاعوا أكثر

من غيرهم حفظ التراث الأندلسي، بل وأسهموا في إغنائه بما أضافوا إليه من براول وأزجال.

ولم يكن أمر التدوين اللحني للموسيقى الأندلسية بأقل من تسجيلها على الأشرطة. فلقد اتجهت جهود شابة إلى هذا المجال، تحدوها نفوس شغوفة بهذا التراث، مؤمنة بأهميته التاريخية والفنية، وتساعدها على ولوجه دراية واسعة بطرق التدوين، وأذنٌ واعية بانعراجات اللحن وتموجاته.

ونحن إذ نحيي هذه الجهود الحميدة، ونزكي تلك المساعي المشكورة، فإننا لنرجو أن يتجه الاهتمام إلى النظر في طرق استثمارها لفائدة طلبة المعاهد الموسيقية ببلادنا.

حضرات السادة :

تضطلع اليوم بعض المعاهد التابعة لوزارة الشؤون الثقافية بأمر تلقين الموسيقى الأندلسية للناشئة حسب برنامج مدقق، تستغرق أسلاكه الدراسية تسع سنوات. وقد توجه الاهتمام بالفعل إلى مراجعة هذه المادة وضبط برامجها على ضوء التوصيات المنبثقة من أعمال الندوات التي احتضنتها المهرجانات السابقة وان الأمل لمعقود على ما ستسفر عنه الندوة العلمية التي تنعقد بصفة موازية لهذا المهرجان الذي نعلن اليوم عن افتتاحه، وهي ندوة ستسطر على مائدة النقاش جملة من القضايا، من بينها قضية تعليم الموسيقى الأندلسية، وما يعترضه من مشاكل، ولئن كنا ـ بحكم طموحنا إلى تبني الأساليب المستحدثة في التعليم ـ نجنح ولا ريب، إلى الأخذ بالطرق الحديثة، ويستهوينا بريقها الأخاذ، فإن الحكمة لتقتضي منا ـ ونحن بصدد البحث عن الوسائل الكفيلة بتحسين أوضاع تعليم الموسيقى الأندلسية بالمعاهد ـ، أن نحذر المزالق ونتحاشى الهفوات، وألا يغيب عن أذهاننا أن

هذه الموسيقى تشكل امتداداً لحضارة عريقة الأُصول، عميقة الجذور، وأنها استطاعت الوصول إلينا عبر أساليب، مهما قيل عنها، فإنه من باب الإنصاف الإقرار لها بأنها أثبتت جدارتها. ومن ثم فإن رغبتنا في تطوير تعليم الموسيقى الأندلسية لا يهدف في شيء إلى استئصال الأساليب التقليدية المتبعة في تلقينها، فنحن في حاجة أكثر إلحاحا إلى بعث الأُصول الأُولى لثقافتنا، ولكنها تهدف إلى بلورة تلك الأساليب وحسن توظيفها في العمل التربوي، وهي إلى ذلك تواكبها رغبة أُخرى شديدة التمكن من نفوسنا، ألا وهي توسيع المدارك العلمية والآفاق المعرفية لدى المتعلمين المنخطرين في أسلاك المعاهد الموسيقية ببلادنا، يقينا منا بأن الطالب المتفتح على المعارف الثقافية العامة أكثر قابلية لتلقي المعارف الموسيقية، وأقدر على استيعاب النظريات والقواعد واكتساب الخبرات الفنية.

وفي هذا المنحى، يتجه اهتمام وزارة الشؤون الثقافية إلى وضع البرامج، وتفصيل المناهج، للخروج بحصيلة لمواد الثقافة العامة تأخذ بنصيب لا يستهان به من اللغات الحية، والآداب الإنسانية، والثقافية الدينية والوطنية، والعلوم الرياضية والاجتماعية. وهي مواد سيصبح تلقينها عما قريب وبحول الله، من ضمن ما يلقن بالمعاهد الموسيقية.

أيها السادة :

إن البحث في الخصائص التي تطبع هذه الموسيقى، والنظر في العناصر والمقومات المكونة لها، لا يمكن أن يتما بمعزل عن النظر في أُولئك الوسطاء الذين ندعوهم في العادة منشدين أو عازفين، والذين يتحكمون في درجة نجاح الآثار الموسيقية المسموعة، ومدى تأثيرها في الجمهور المستمع.

واعترافا منا بالفضل الذي يضطلع به أولئك وهؤلاء، فإن حرصنا على تسجيل الموسيقى الأندلسية وتدوين ألحانها وإيقاعاتها لا ينبغي أن يصرفنا عن العناية برجال هذا الفن الذين أبلوا البلاء الحسن في سبيل حفظه ورعايته، واضطلعوا بدور تلقينه وتبليغه. ومن هنا أجدني مندفعا إلى القول بضرورة وضع ببليوغرافيا لأعلام الموسيقى الأندلسية المغربية، يعتمد في صوغها وإعدادها على نهج علمي قويم، ويتوخى منها الصدق والأمانة، بالاعتماد على ذوي الخبرة في ميدان البحث، واستنطاق من امتد بهم العمر من شيوخ هذا الفن الأصيل.

أيها السادة :

ما أحرانا ونحن نقيم هذه المهرجانات أن نجعلها فرصة لنسائل أنفسنا عن مدى تجاوبنا مع الآثار الموسيقية التي قدمنا للإنصات إليها. ذلك أن من بين المقاصد التي نتوخاها من تنظيم هذه التظاهرة المرة تلو المرة، أن نسمو بمستوى استماعنا، من درجة التلقي العفوي إلى مرتبة الاستماع الواعي والمسؤول. وإلا فستتحول هذه اللقاءات إلى مناسبات للتسلية والمتعة الموقوتة، وتصبح معها الموسيقى المسموعة آثارا عارية عن كل مغزى، بعيدة عن تحقيق الأغراض التربوية والنفسية التي تتوخاها. وهذا يعني أننا نريد من هذه اللقاءات، ومن خلال الميازين التي سنستمع إليها، أن نيسر السبل لخلق مستويات راقية من الاستماع، قادرة أولا على تركيز الانتباه إلى الأثر المسموع، واستجلاء مواطن جماله، ثم قادرة فيما بعد على تحليله وسبر أغواره ومعرفة عناصر تركيبه، وما إلى ذلك من قدرات فنية متطورة.

ولكي يكون هذا المهرجان في مستوى ما ترنو إليه طموحاتنا، فقد أبينا إلا أن نجعل منه مناسبة يتجدد فيها طرح المشاكل المتعلقة بالموسيقى الأندلسية وفي هذا الصدد، ستقام طيلة أيام المهرجان ندوات علمية تشارك فيها صفوة من رجال الفكر وذوي الاختصاص، يناقشون خلالها قضايا تتعلق بواقع هذه الموسيقى وآفاق مستقبلها، وتتاح فيها الفرصة لإبداء الرأي في التوفيق بين دعاة المحافظة ودعاة التجديد. وان أملنا لمعقود على هذه الندوات، لنخرج منها بجملة من التوصيات نستهدي بها فيا نحن بصدده من مراجعة لبرامج تعليم الموسيقى الأندلسية بصفة خاصة.

أيها السادة :

لقد بات النظر في الموسيقى الأندلسية من الوجهة العلمية أمرا ضروريا حتميا، ذلك أنه آن الآوان لتجاوز النظر إليها كتراث ينحصر التعامل معه عند مستوى الاستماع المجرد عن التأمل والمعاناة، وبات الاهتمام بها يفرض نفسه على مستوى البحث في جوانبها العلمية المختلفة، بما في ذلك النظر في القالب الفني للميزان، وفي العناصر المكونة للصنعات لحنا وإيقاعا، وفي الخصائص التي تطبع أداءها عزفا وإنشادا وفي الكشف عن الصناعات النادرة التي ما تزال تختزنها صدور الحفظة، وفي بعث الإنشادات والمواويل التي أوشك أن يُعَفّيَ عليها الدهر، ويطويها النسيان، وفي تحقيق الأشعار التي تناقلها النساخ وألحقوا بها صنوف من التحريف والتشويه منذ أن جمعها محمد بن الحسين الحايك - رحمه الله - في مطلع القرن الهجري الثالث عشر.

وهذه قضايا كثيرة، يتطلب الإقبال على دراستها ـ فضلا عن التسلح بالخبرة الفنية الكافية ـ، تنسيق العمل، وتضافر الجهود، وخلق الحوافز، مما لا تالو وزارة الشؤون الثقافية جهدا في سبيل توفيره وإعداد الوسائل لتحقيقه.

وإنها لفرصة ذهبية تتاح لي كي أناشد ذوي الخبرة والاختصاص أن يوجهوا اهتمامهم إلى البحث في الجوانب العلمية والفنية للموسيقى الأندلسية، وأن يرفعوا عنها ما علق بها من أوصاف هي أقرب إلى الأساطير وألصق بعالم الخرافة.

محمد ابن عيسى

وقد اشتمل برنامج هذا المهرجان على معارض فنية، وسهرات موسيقية شاركت فيها أهم الأجواق المتخصصة في هذا الفن الأصيل.

كما انعقدت طوال أيام المهرجان ندوة علمية حول دراسة مكونات النوبة من أشعار وأنغام وإيقاعات، وأسهم في هذه الندوة عدد من المهتمين بشؤون الموسيقى الأندلسية، وقد ناقش الحاضرون ورقة عمل تقدمت بها جمعية بعث الموسقى الأندلسية بفاس تضمنت المواضيع التالية :

- إنقاذ النادر من الموسيقى الأندلسية.
- تدوين التراث الأندلسي بالوسائل العلمية الحديثة.
- دور المعاهد الموسيقية ومشاكل تعليم هذا التراث.
- أدبيات الموسيقى الأندلسية.

واختتم المهرجان بقراءة بعض التوصيات التي أسفرت عنها هذه الندوة.

التظاهرة الثقافية المغربية بكرونوبل

توجه السيد وزير الشؤون الثقافية الأستاذ محمد ابن عيسى يوم 18 أبريل 1985 إلى مدينة كرونوبل بفرنسا للمشاركة مع نظيره الفرنسي، السيد جاك لانغ في افتتاح التظاهرة الفنية المغربية المنظمة تحت شعار «الفن المغربي في كرونوبل».

وقد حضر في حفل التدشين عمدة مدينة كرونوبل السيد «آلان كارينون»، وألقى وزير الشؤون الثقافية الأستاذ محمد ابن عيسى بهذه المناسبة كلمة أشاد فيها بأهمية هذه التظاهرة

الثقافية التي تدخل في إطار تعزيز التعاون الثقافي بين المغرب وفرنسا، مشيرا إلى حضور المغرب في هذه التظاهرة يعتبر دليلا على ديناميكية العلاقات بين البلدين ذوي الحضارتين المتقدمتين الذين تربط بينهما وشائج الصداقة المتينة.

وقال السيد الوزير «ان المغرب بلد الفنون وأرض الثقافة الذي كان دائما بوثقة حضارية ونقطة التقاء الثقافات المتعددة، أخذ واقتبس دون أن يطمس هويته الشخصية، وأكثر من هذا، استطاع أن يقوي هذه الهوية بفضل إسهاماته الخارجية».

وعبر السيد الوزير عن أمله في خلق حوار مستمر بين الفنانين والجمهور أثناء هذه التظاهرة، وإفساح مجال التعارف وتبادل الآراء بين مواطني البلدين، وعقد لقاءات ثقافية متعددة وذلك انطلاقا من التفتح الذي يميز المغرب، مستشهدا في هذا الصدد بما قاله صاحب الجلالة في إحدى الدورات البرلمانية من «أن الثقافة المغربية لم تكن أبدا منطوية على نفسها، وليس من سماتها التحجر الثقافي، بل هي ثقافة متفتحة على الجميع، ومتفتحة على جميع التيارات الثقافية، تتأثر أولا وتعطي للآخر رسالتها».

وأوضح وزير الشؤون الثقافية الفرنسي السيد جاك لانغ الدور الذي تقوم به هذه التظاهرة من إسهام في تمتين العلاقات الثقافية بين البلدين وبين دول الجنوب والشمال، مؤكدا إعجابه بالأعمال الرائعة للفنانين المغاربة المتميزة بأصالتها وتنوعها وكثافتها مع مزج التقاليد المغربية ببعض التقنيات الأوروبية لإنجاز أعمال أصيلة.

ثم تحدث عمدة مدينة كرونوبل عن أهمية التظاهرة الثقافية المغربية بمدينة كرونوبل التي تعتبر بمثابة دعوة إلى التفتح على الرأي الآخر، معربا عن ارتياحه للتعاون الثقافي بين البلدين.

بلاغ
حول جائزة المغرب لسنة 1985

إن جائزة المغرب لسنة 1985 ستمنح في نهاية السنة الحالية.

وبناء عليه، فإن وزارة الشؤون الثقافية تنهي إلى علم السادة الراغبين في المشاركة أن يوجهوا الكتب التي يودون ترشيحها لهذه المسابقة ابتداء من 15 مارس 1985، وإن آخر أجل لقبول الترشيحات هو 30 شتنبر من هذه السنة.

وعلى من يريد الإطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود إلى القرار الوزيري الصادر في الجريدة الرسمية عدد 3230 رقم 75574 بتاريخ 17 شعبان 1394 (الموافق 5 شتنبر 1974)، أو أن يتصل بقسم المكتبات والنشر والتوزيع التابع لوزارة الشؤون الثقافية.

جائزة ابن زيدون للشعر
لعام 1985

يعلن المعهد الإسباني العربي للثقافة التابع لوزارة الشؤون الخارجية عن «جائزة ابن زيدون للشعر» بهدف المساهمة في التقاء الثقافتين العربية والإسبانية، وتكريما للشاعر الأندلسي العظيم وذلك وفقا للأسس التالية :

1) يمكن لجميع الشعراء المشاركة في هذه المسابقة أيا كانت جنسيتهم دون التقيد بأية شروط أخرى غير المنصوص عليها في هذه الأسس.

2) تمنح جائزتان، إحداهما للدواوين المكتوبة باللغة الإسبانية والأخرى باللغة العربية، قيمة كل واحدة منها نصف مليون بسيطة، ويمكن للجنة التحكيم، بناء على اقتراح من رئيسها، أن تقرر إذا ارتأت ذلك مناسبا، منح المبلغ المخصص للجائزتين إلى ديوان واحد أو منح جوائز أخرى للدواوين المستحقة لها.

3) يمكن أن تقدم الدواوين مكتوبة باللغة الإسبانية أو باللغة العربية على السواء، ويشترط أن لا يكون الديوان قد نشر سابقا وأن لا يكون قد منح جائزة في أية مسابقة أخرى وأن لا يكون ترجمة ولا تعديلا لمؤلفات شعرية شتى، يحق للشاعر اختيار مواضيع الديوان وحجمه علما بأن لجنة التحكيم ستأخذ الدوافع التي أدت إلى الإعلان عن هذه الجائزة، والمشار إليها في النص السابق حسب الأسس المذكورة آنفا.

4) يقدم كل ديوان في ثلاث نسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة بمسافة مضاعفة بين كل سطر وسطر، على ورق من الحجم العادي ومصدرة إما باسم كاتبه وتوقيعه وعنوانه مع نبذة عن حياته ومؤلفاته وكذلك عنوان الديوان، واما بعنوان الديوان واسم مستعار للمؤلف مع ظرف صغير مختوم يكتب عليه كذلك عنوان الديوان والاسم المستعار ويحتوي على أم المؤلف الحقيقي وعنوانه ونبذة موجزة عن حياته ومؤلفاته.

5) ترسل الدواوين بالبريد المسجل إلى العنوان التالي : المعهد الإسباني العربي للثقافة INSTITUTO HISPANO – ARABE DE Cultura MADRID ويكتب على الظرف البريدي «جائزة ابن زيدون للشعر لعام 1985» أو تسلم إلى السفارات الإسبانية المعتمدة في البلد الذي يقدم فيه الديوان وستتولى هذه السفارات بدورها إرسال الدواوين الشعرية إلى المعهد الإسباني العربي للثقافة.

إن آخر موعد لقبول الدواوين الشعرية هو منتصف ليلة 31 اكتوبر 1985، وستقبل كذلك الدواوين الشعرية التي ستصل بعد هذا التاريخ شريطة أن يشير خاتم طوابعها إلى تاريخ سابق على نهاية المهلة المحددة.

6) يرأس لجنة التحكيم السيد مدير المعهد الإسباني العربي للثقافة، ويتولى اختيار أعضاء اللجنة على أن يظل أسماء أعضاء اللجنة قيد الكتمان حتى يعلن عن الديوان الفائز.

7) إن قرار اللجنة التحكيمية غير قابل للاعتراض.

8) يمكن للجنة التحكيم أن تقرر عدم منح الجائزة لأي ديوان شعر وإن كان هذا لا يحول دون منح جوائز أخرى وفقا للشروط المنصوص عليها في البند الثاني.

9) يعلن عن قرار اللجنة التحكيمية يوم الخميس الواقع في 12 ديسمبر من عام 1985 في حفل رسمي يقام بهذه المناسبة، يدعو إليه المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد.

10) يحتفظ المعهد دون غيره بحق نشر الديوان أو الدواوين الفائزة كليا أو جزئيا وترجمته إلى أية لغة أخرى، ويمكن للشاعر التمتع بحق التصرف بديوانه الفائز بالجائزة كيفما شاء بعد مرور عامين اعتبارا من تاريخ الإعلان عن قرار لجنة التحكيم.

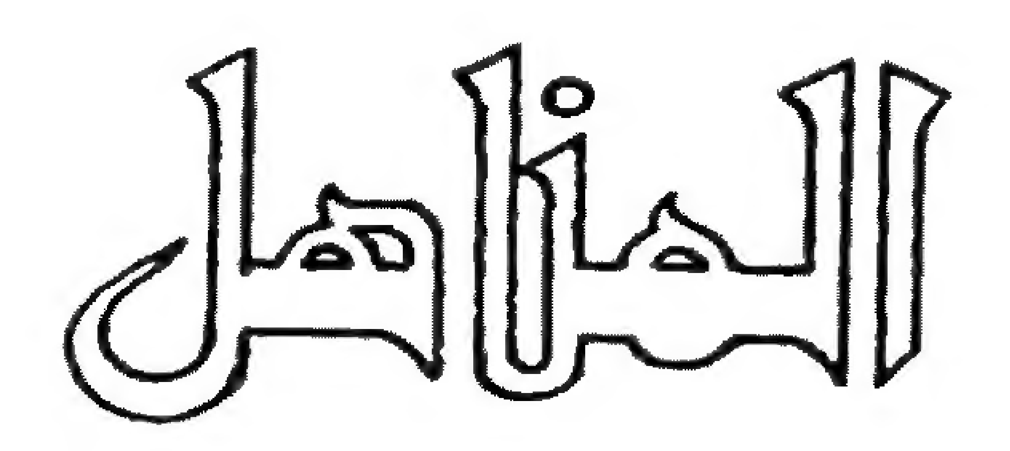
11) إذا قام المعهد الإسباني العربي للثقافة بنشر ديوان حاصل على جائزة من الجوائز، فإن المبلغ المستلم من قبل الفائز يعتبر سلفة من مجمل المبلغ المستحق عن حقوق المؤلف التي يدفعها له المعهد الإسباني العربي للثقافة.

12) لن تجري أية مراسلات حول الجائزة ولن تعاد الدواوين الأصلية إلى أصحابها.

13) إن إرسال الدواوين الشعرية للمشاركة في هذه المسابقة يعتبر موافقة على هذه الأسس دون تحفظ، ولمدير المعهد الإسباني العربي للثقافة أن يبت في أي أمر يجد، ولا يمكن الطعن بقراره بأي حال من الأحوال.

رقم الإيداع القانوني 6 / 1974

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)



تصـــدرهـــــا :

وزارة الشــــؤون الثقـــافيـــــة

رنقة غاندي ـ الربـــاط ـ المغـــرب

التليفـــون : 93 / 92 / 318.91



AL - MANAHIL

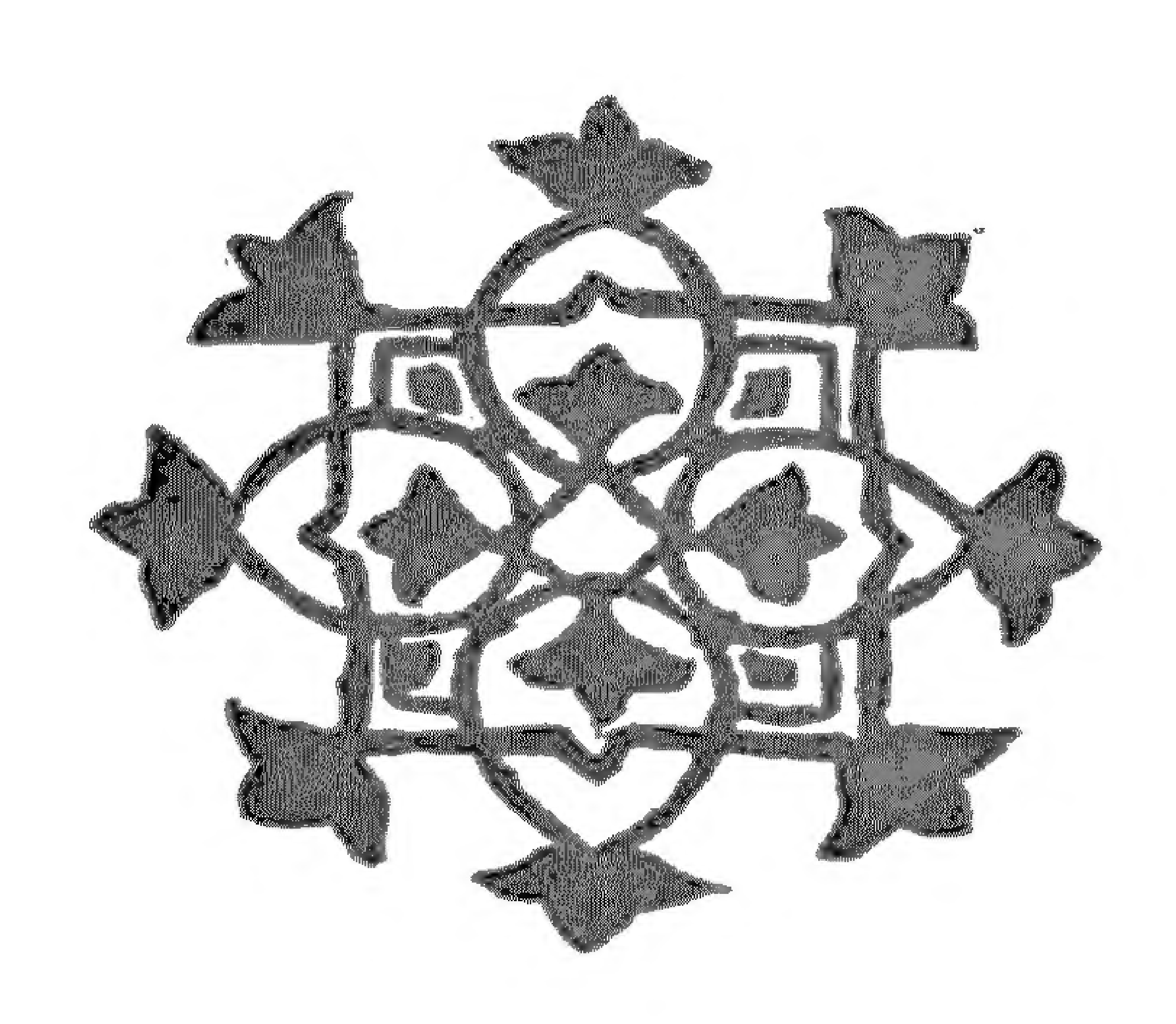
Publication du

MINISTERE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandı - Rabat (Maroc)

Tél : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)



ثمن النسخة 5,00 دراهم